الثقافة الجديدة

فكر علمي- ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

رئيس التحرير: صالح بكر

مجلس التحرير

حمدان يوسف حيدر سعيد

رائد فهمي زهير الجزائري

سامي خالد سعدي يوسف

عزيز سباهي كامل شياع

الفريد سمعان هادي محمود

مهدي محمد علي

المواد المنشورة تعبّر عن آراء اصحابها

341 - 340

أغلق تحرير العدد في 30 تشرين الثاني 2010

السعر :2000 دينار

الشتراك السنوي :)6أعداد(: 50 دولار أو ما يعادلها و100 دولار للمؤسسات.
أرسل جميع الرسائل التحريرية إلى هيئة تحرير:
thakafajadida@hotmail.com
أرسل جميع الرسائل الخاصة بالتسويق إلى هيئة التحرير :
thakafajadida4u@gmail.com
عنوان الموقع على شبكة الإنترنت :
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة : بغداد - شارع أبو نؤاس، والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الإيداع في المكتبة الوطنية :781
جميع المبالغ المالية على الحساب المصرفي للمجلة :

ALJADID
Lloyds TSB Bank plc
Sort Code 30-93-89
Account No: 1871659
UK

ترحب هيئة التحرير بالمساهمة في المجلة مراعاة ما يأتي ما يرسل للنشر:
*أن تكون المقالة او الدراسة او الشعر ... الخ شروط النشر من حيث وضوح الصياغة وسلامة اللغة.
* ألا تتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلا للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت سابقا في أماكن أخرى.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر وترسل عبر البريد الالكتروني أو على اقراص مدمجة. أما المخطوطة فيجب ان ترسل مع المقالة أو الدراسة هيئة التحرير، وتعاد الى اصحابها عند الطلب.
* لا تلتزم المجلة بإعادة المادة المرفوضة للنشر، وتحتفظ بحق نشر المادة المقبولة في أي وقت تراه مناسبا.
* يلتزم المجلة بإعلام صاحب المادة المقبولة للنشر بقرار النشر خلال شهر واحد من وصولها.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع

محتويات العدد

5- كلمة العدد
7- ملف العدد: عبد الجبار وهبي (ابو سعيد): الواهب بلا حدود
8- في ذكرى ميلاده التسعين...خالد في ضمير الشعب.....الثقافة الجديدة
12- بعض من مقالات الشهيد (ابو سعيد)
18- محطات في سيرة أب بطل ورمز.....نادية عبد الجبار وهبي
21- عبد الجبار وهبي.. سيرة مناضل مثال..... حسان عاكف
23-صديق الناس !؟.....كريم حواس

مقـــالات

26- التأمين في الكتابات الاقتصادية الكلاسيكية: ادم سميث وكارل ماركس.....مصباح كمال
38- قمم"مجموعة العشرين"بين ايديولجيا الخطاب وصدمة الواقع.....صالح ياسر
49- العولمة والارهاب والاعلام...سلطة الحدث وصناعة الحقيقة.....عبد الستارجبر
54- السرطانات والتشويهات الخلقية في الفلوجة.....كاظم المقدادي
68- النظرية الخاصة للنسبية لآينشتين ومرجعية الدولة.....عبد الكاظم ماجود

نصوص قديمة

79-الجيش من فرية الدفاع عن الوطن.....صادق البلادي

طاولة مستديرة

92- خارطة طريق لاعادة هيكلة الشركات المملوكة للدولة

نصوص متـــرجمة

108- سبل للخروج من الأزمة : سارة فاغن كنخت.....ترجمة:رشيد غويلب

حـــــوارات

124-حوار مع الفنان محمد غني حكمت

أدب وفـــن

شعر

134- كوابيس انكيدو.....مجيد الموسوي
137-اطلال الزمن القادم.....محمد جابر محمد
139-ما خنت حيّك .....ربيع عبد الحميد قطب
141- عشر قصائد للشاعرة الامريكية:ليزا زاران.....ترجمة : معين جعفر محمد

قصص قصيرة

149-البكاء في الزمن الضائع.....سلام القريني
151-ماحدث مع اقرب الناس.....ناصر قوطي

مسرحية

156-الرحلة 2000.....أطياف رشيد

ندوة

159-تاريخ السينما العراقية.....قاسم حول

قراءات

170-القرين في سرديات المهجر.....نجاة تميم
181- فراس عبد المجيد شاعر يخرج من ركام الأزمنة المرة.....جواد وادي
190-تصورات العراقيين القدماء عن متاهات العالم.....فاضل السوداني

تشكيل

199-ريادة الواسطي في مدرسة بغداد للتصوير.....قاسم العزاوي
206-جواد سليم ..الفنان الذي صنع لافتة باقية الى الأبد.....كاظم السيد علي

لـوحـة الغلاف الاول للفنـان محمد غنـي حكمت، نحات له العديد من المعارض الشخصية والمشاركات داخل العراق وخارجه.

لوحـة الغلاف الاخير للفنـانة الراحلـة بهيجة الحكيم،التي كان لها العديد من المعارض الشخصية والمشاركات داخل العراق وخارجه.

كلمة العدد

شهد هذا العام، وبشكل ملحوظ، تجاوزات متكررة على حرية التعبير والرأي من طرف السلطات المحلية في العديد من المحافظات دون أن يثير الأمر أي رد فعل لدى السلطات المركزية. وبدا المشهد للمتابع العادي، ناهيك عن المراقب السياسي، كما لو انه اتفاق غير مكتوب بين السلطتين لتوزيع الأدوار للحد من حرية التعبير والرأي.

بدأ التصعيد في الإجراءات التعسفية التي اتخذتها السلطات المحلية في محافظتي بابل والبصرة ثم هاهو يدق أبواب العاصمة بغداد، حيث اتخذت جملة من الإجراءات غير المفهومة وتلاها تصريحات نارية للقادة المحليين تهدد الجميع بالويل والثبور من عظائم الأمور!! فقد بلغ الحد برئيس الحكومة المحلية في بغداد والذي صرح لأحد المواقع أن وصف من قام بالمظاهرات التي شهدها شارع المتنبي احتجاجا على إجراءات مجلس المحافظة التي تستهدف حقوقاً أساسية مثبتة في الدستور "بالنفر المتوهم الذي ضم بعض المأجورين"، علما أن هذه المظاهرات ضمت نخبة من المثقفين والإعلاميين والأدباء والكتاب والوجوه السياسية المعروفة بتأريخها الوطني والنضالي في مقارعة الدكتاتورية وكل أشكال الاستبداد والعسف.

هكذا تمت العودة مجددا الى منطق التخوين والاتهام بالعمالة واللاوطنية، مما يمكن اعتباره انتهاكا خطيرا لحرية التعبير والرأي. وهكذا إذن قلب مسار الأشياء والأحداث، فبدلا من أن يكلف السيد رئيس الحكومة المحلية نفسه البحث عن الأسباب التي دفعت نخب المجتمع العراقي الثقافية والسياسية ومنظمات المجتمع المدني للتظاهر والاحتجاج طبقا لحقوق كفلها لهم الدستور.. نراه يتوعد هؤلاء متهما إياهم بأنهم مجرد "بعض المأجورين" ويجب شن الحرب ضدهم لأنهم "نفر متوهم" ليس إلا! وفي ضوء ذلك يمكن القول أن التصعيد الحالي ضد حرية التعبير والرأي وما تلاه من عنف لفظي أصبح مطلقا ولا تحكمه ضوابط، منفلتاً بلا حدود.

إن هذه الممارسات المستمرة في محاصرة حرية التعبير والرأي ذات تأثير خطير على مبادئ أساسية كفلها الدستور العراقي. وهي بالملموس تعد مخالفة مفضوحة لمواد هذا الدستور (ومنها المادتين 38 و 46 على وجه الخصوص) الذي صوّت له ما يقارب الثلاثة عشر مليونا وكان ممهورا بدماء العراقيين والعراقيات الذين تحدوا الإرهاب. فمثلا نصت المادة (46) من الدستور على ما يلي: "**لا يكون تقييد ممارسة أي من الحقوق والحريات الواردة في هذا الدستور أو تحديدها إلا بقانون أو بناء عليه، على ألا يمس ذلك التحديد والتقييد جوهر الحق أو الحرية.**"

وحتى لا يتيه المرء في لجة التخمينات لا بد من وضع قراءة صحيحة لما أقدمت عليه السلطات المحلية في العديد من المحافظات ووضعه في إطاره السليم. فلا يمكن اعتبار ما

اتخذ من إجراءات بمثابة أحداث عابرة، ولا يجوز اختزال تلك الإجراءات الى مجرد ممارسات فردية لهذا المسؤول التنفيذي أو ذاك. يجب العودة بالأمور الى سياقها الصحيح، الى بنية السلط المتعاقبة بعد رحيل الدكتاتورية في 2003/4/9، وممارساتها المختلفة المستندة الى نظام للمحاصصة لم يتح الإمكانية لبناء ديمقراطية حقيقية تحترم الحريات العامة وتدافع عنها وتصونها من عبث بعض أولئك الذين ينتمون لـ "طبقة سياسية " لا تؤمن حقا بالديمقراطية. الخلل كامن إذن في نظام المحاصصة الطائفية وبنية السلطة التي نتجت عنه.

في مثل هذه اللحظات المتوترة، نعلن تضامننا الحار مع كل القوى والشخصيات السياسية والثقافية ومنظمات المجتمع المدني وحقوق الإنسان الذين يخوضون نضالهم على طريق بناء دولة ديمقراطية عصرية تكفل لجميع المواطنين والمواطنات حقوقهم المثبتة بالدستور، وتحترم التنوع الفكري والديني والطائفي والقومي.. الخ في بلادنا. ويتعين الوقوف بحزم ضد كل محاولات كبت الحريات الفردية والجماعية وضد الإقصاء والتهميش وفرض أنماط معينة للتفكير والممارسة. فلا يمكن بناء الديمقراطية دون الدفاع عن أسسها الثابتة وفي مقدمتها حرية التعبير والتظاهر... كما لا يمكن أيضا بناء ديمقراطية بغير أصحابها الحقيقيين وليس من يركبون موجتها للصعود الى السلطة ثم يستخدمونها لبناء نظم تنظر للمواطنين وكأنهم مجرد رعايا تمنح لهم الحرية بحسب مزاج الحاكمين.

إن الحرية قيمة عليا وليس سلعة يجري تداولها في سوق السلطة، لذا لن نكون أسرى للصمت... فالسكوت على خرق أسس الديمقراطية ومبادئ الدستور يعني توفير الفرصة لعودة الاستبداد وان بطبعات جديدة.. ورغم كل الصعوبات، نثق بان القوى الحية في مجتمعنا ما زالت قادرة على أن تكون طرفا في تحديد مسار البلاد نحو مجتمع ديمقراطي حر ومستقل وسيد نفسه بعيدا عن مختلف سلط العسف وأرديتها المختلفة.

عبد الجبار وهبي (أبو سعيد) في ذكرى ميلاده التسعين..
الواهب بلا حدود

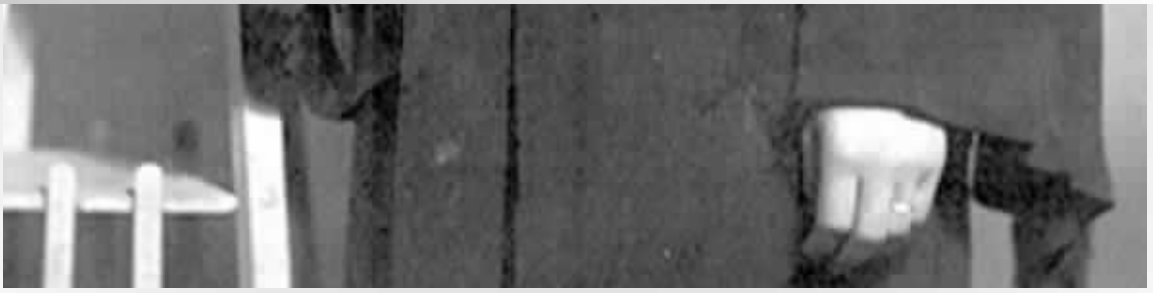

عبد الجبار وهبي (أبو سعيد)
في ذكرى ميلاده التسعين..
خالد في ضمير الشعب

الثقافة الجديدة

في عام الشؤم،عام 1963، العام الذي سالت فيه دماء الشيوعيين واليساريين والديمقراطيين عموما في العراق أنهارا، بعد انقلاب 8 شباط البعثي الفاشي، توقف مداد قلم " أبو سعيد "عن الجريان، مع توقف نبضات قلبه العامر بحب الشعب، بحب الحرية، الموقن أن فجر الغد الأفضل آتٍ ، آت رغم أنف كل الطغاة، ومهما ادلهمت العقبات واشتدت.

عندما غيَّب البعثيون الفاشست جسده لم يكن عمره قد بلغ الرابعة والأربعين فقد كان مولده في بصرة الجاحظ عام 1920.

وبمناسبة عام ميلاده التسعين هذا العام، 2010، تكرس (الثقافة الجديدة) ملف هذا العدد للفقيد الكبير.

أبو سعيد؛

أي عراقي من أبناء شعبنا لا يعرف أبا سعيد! ذلك المناضل الباسل، والأديب البارع الذي حمل رسالة القلم ورسالة النضال الثوري بكل ثبات وتفانٍ، وكان أمينا لشعبه ولأفكار حزبه حتى آخر اللحظات...لقد شق اسم أبي سعيد (عبد الجبار وهبي) طريقه إلى قلوب ابناء وبنات شعبنا، واحتل مكانته المرموقة هناك بعد انتصار ثورة 14 تموز 1958 رغم أن نضالات ذلك الأديب الثوري الخالد تمتد إلى قبل ذلك التاريخ بكثير.

فعلى صفحات جريدة " اتحاد الشعب" (لسان الحزب الشيوعي العراقي آنذاك)، كان عبد الجبار وهبي يحتل زاويته الخاصة بتوقيع "أبو سعيد" وكان قراء الجريدة على اختلاف مشاربهم يتطلعون، أول ما يتطلعون، إلى ما يكتبه قلمه اللاذع، شواظا على أعداء تموز، ودفاعاً عن أهداف تموز ومصالح شعب تموز في التحرير الكامل والديمقراطية والتقدم الاجتماعي.

لقد ناضل أبو سعيد بلا كلل من اجل قيام نظام ديمقراطي في العراق؛ نظام يؤمن أوسع الحريات الديمقراطية للشعب وقواه التقدمية والوطنية، ويوزع الأرض على الفلاحين الكادحين، ويضمن الحقوق القومية للشعب الكردي، وينهض باقتصاديات البلاد بعد تحريرها من قبضة الاحتكارات الأجنبية، نظام معاد لكل أشكال الاستعمار القديم

والجديد، ويساهم بدور هام في حركة التحرر الوطني في البلدان العربية وفي قضية صيانة وتعزيز السلام العالمي، نظام يقوم على اتحاد جميع طبقات الشعب الوطنية. ودعا أبو سعيد بوجه خاص إلى الديمقراطية الحقيقية، إلى مساهمة الجماهير الفعلية في بناء المجتمع وتطويره، كما دعا إلى حرية الرأي والتعبير وحرية التنظيم وحرية الكلمة والصحافة، كل ذلك من اجل صيانة ثورة تموز ودفعها إلى الأمام وتطويرها وتعميقها وإغنائها.

وفي تموز 1963 أعلن الحكام الفاشست إنهم اعدموا عبد الجبار وهبي مع الفقيدين الخالدين جمال الحيدري ومحمد صالح العبلي لحقد هؤلاء الحكام على تموز وشعب تموز وانتقاما من "أبو سعيد" ومن نشاطه البطولي من اجل خدمة الشعب ورفاهيته وكرهها لأفكاره المنيرة الوضاءة وتحديا لإرادة الشعب وللحزب الشيوعي العراقي، واعتقادا منهم بذلك إنهم يقضون على الحزب ويمنعون نهوضه.. ولكنهم كانوا يقضون على أنفسهم ويضيفون أدلة جديدة على إجرامهم، فأدانهم الشعب وسخر منهم، ودفعوا لاحقا حساب جرائمهم السود.

ولد أبو سعيد في مدينة البصرة عام 1920، نشأ وترعرع فيها، درس في مدارسها، ثم بعث إلى بيروت وتخرج من الجامعة الأمريكية فيها متخصصاً في علم الفيزياء، ودَرّسَ الفيزياء في المدارس الثانوية. دفعته مشاكل الشعب العراقي وحالته إلى العمل السياسي، وكان إنسانيا في نظرته وديمقراطياً أصيلا، وطنياً غيوراً ومناضلاً جلداً ضد الاستعمار، فبدأ حياته السياسية بالانضمام إلى احد الأحزاب الوطنية، وعند إعدام (فهد) السكرتير العام للحزب الشيوعي العراقي ورفيقيه زكي بسيم (حازم) وحسين محمد الشبيبي (صارم) عضوي المكتب السياسي في شباط 1949 أحدث صمودهم وتضحيتهم وموقفهم البطولي انعطافاً كاملاً لدى أبي سعيد وقاده إلى الانضمام إلى الحزب واهباً حياته ومستقبله وروحه للحزب من اجل قضية الشعب العادلة.

فكافح وناضل داخل صفوفه، يلقى القبض عليه مرة ويفرج عنه بعد حين، ثم يسجن ويطلق سراحه فيعمل سرا متخفياً عن أنظار أفراد الأمن متنقلاً بين الجماهير من دون أن يعرفه احد، كرس كل جهوده لخدمة الطبقة العاملة وأهدافها من دون كلل متحملاً كل الصعاب وعمل في تشكيل المنظمات الجماهيرية الديمقراطية وساهم في قيادتها.

بعد ثورة 14 تموز 1958 عمل أبو سعيد بكل طاقته مع المثقفين.. مع الكتاب والأدباء.. مع المعلمين.. في حركة أنصار السلام.. وفي المنظمات الجماهيرية. وبعد إجازة "اتحاد الشعب" اليومية، أصبح عضوا في لجنة تحريرها وتخصص في ركن يومي فيها "كلمة اليوم" وكان في هذا ناقداً سياسياً فريداً في أسلوبه البسيط العميق، النافذ إلى قلوب الجماهير يعالج قضايا الشعب الهامة والملحة بأسلوبه ألانتقادي اللاذع والمشرق.

كان الناس من مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية، شيوعيين وتقدميين وديمقراطيين

وغير حزبيين ينتظرون الفجر لتطلع عليهم "اتحاد الشعب" ويتجهون أولا إلى الصفحة الثامنة، إلى العمود الأول، إلى كلمة أبي سعيد، يقرؤونها باهتمام وإمعان، يقرأون السطور والكلمات وما بين السطور فيفهمون ما أراده أبو سعيد وما المح إليه، انه كان يكتب بأسلوب مشوق يعالج فيه مشاكل الناس الحقيقية، وان المرء لا يجافي الحقيقة حين يقول أن فئات أخرى من العراقيين ممن وضعوا أنفسهم خارج القوى الوطنية وعادوا الديمقراطية وضاقوا بثورة تموز وبالنظام الجمهوري، إن هؤلاء كانوا يشترون" اتحاد الشعب " لقراءة أبي سعيد، فالحقيقة التي كان يسطرها أبو سعيد بأسلوبه الخاص فرضت نفسها على فئات واسعة جداً حتى على الذين كان يفضح مؤامراتهم.

ثم انحرف قاسم بسياسته وعادى القوى الديمقراطية ونكلت الأجهزة الأمنية بالمواطنين وحرم كثيرا من نشاطهم وحدد القسم الآخر واضطر عدد من المنظمات الجماهيرية إلى العمل السري، وتبلور الحكم بنظام معاد للديمقراطية وللقوى المخلصة المدافعة عن ثورة تموز ومكتسباتها والعاملة من اجل الدفاع عن جماهير الشعب العراقي ومصالحه. وهنا سلط أبو سعيد نقده اللاذع على النشاط الرجعي، ألقى الضوء عليه وكشف للجماهير وحذر وأهاب بالاستعداد له. وانتقد نظام الحكم نقداً لاذعاً وقد رسم لوحة واضحة بأبعادها وظلالها للمؤامرات المبيتة ضد الحزب الشيوعي العراقي والقوى الديمقراطية.

إن أبا سعيد في كل ذلك قد اكتسب أمرين متناقضين متلازمين: أحبه أبناء الشعب البسطاء المخلصون والمحبون للخير والرفاه والتقدم وللسلام والمعادون للاستعمار والمناضلون من اجل تصفيته ومن اجل الديمقراطية والتقدم الاجتماعي والغد المشرق، أحبه كل الذين كان يشرق وجههم صباح كل يوم بابتسامة الأمل والرجاء والحب للإنسانية ومُثلها العليا. وفي الوقت نفسه كره أبا سعيد الرجعيون والمعادون للتقدم والديمقراطية وعملاء الاستعمار والعهد المباد وكرهه كل الذين يخافون يقضة الشعب ووعيه لان أبا سعيد كان نشطاً في بث الوعي بين الجماهير وفي إثارتها وشحذ الوعي بقضيتها ضد نشاط كل المعادين لثورة تموز، بكلمة: كرهه أعداء السلام وتجار الحروب. وحين كانت جماهير الشعب ترعى أبا سعيد وتصونه، كان أعداء الشعب يتربصون الفرص به. وعندما انتكست ثورة تموز وتسلط الرجعيون على النظام الجمهوري واستلامهم المراكز الحساسة في جهاز الدولة، القي القبض عليه وأودع السجن من دون تهمة قانونية، أوقف في مديرية الأمن العامة في بغداد، ثم في سجن رقم (1) في معسكر الرشيد، بأمر من الحاكم العسكري لان أبا سعيد "خطر على أمن الجمهورية ". قضى شهوراً طويلة معتقلاً في بغداد، والناس البسطاء الذين عبر عن آمالهم يطالبون بإطلاق سراحه، وخرج من السجن في أواخر 1961 إلى شعبه.. إلى ملهمه ومصدر قوته.

وفي يوم الجمعة الأسود 8 شباط 1963، اختفى أبو سعيد مع رفاقه عن عيون الفاشست وكلابهم السائبة، الحرس القومي، ففتشوا عنه فلم يجدوه، وقتلوا العديد من

قادة الحزب الشيوعي العراقي ومئات من مناضليه وكوادره وقتلوا مئات من أبناء الشعب البسطاء الشرفاء، وأشاعوا الحزن والموت في العراق، قتلوا وعذبوا وشردوا الآلاف، اعتقلوا أكثر من مائة ألف مواطن في أيام معدودة، قاموا بعمليات الفرز والتشخيص، أبو سعيد كان مع بعض رفاقه يحرسهم الشعب في هذه الأيام القاسية فلم يجدوه.

فقد الحزب الشيوعي عديدا من كوادره وقادته وعلى رأسهم السكرتير الأول للجنة المركزية سلام عادل، وعانى من ظروف صعبة جدا.

خلال هذه الفترة تنادى الثلاثة الأبطال (جمال الحيدري، محمد صالح العبلي وأبو سعيد) شدوا على أيدي بعضهم، يجب إعادة بناء الحزب، فهذه مسؤوليتهم اضطلعوا بها بتطوع وعن وعي وعاهدوا رفاقهم الشهداء من قبلهم في العمل في كل وقت. لقد رفعوا راية الحزب في أصعب الظروف وأشدها قسوة، أعادوا لبناته، أصدروا جريدته المركزية. في حزيران 1963، سقطوا في يد العدو، بين أنياب الفاشست، فعذبوهم بوحشية، فصمدوا وتحدوا، شمخوا، استشهدوا قرابين لنصر سيأتي ذات يوم.

نشأ أبو سعيد من أبناء الشعب الشرفاء البسطاء، ناضل من اجل سعادة شعبه، كتب له صان شرف الكلمة التي خطها، ستبقى ذكراه خالدة ما بقى الشعب العراقي يذكره بالفخر والاعتزاز ومثلاً إنسانيا عاليا في قافلة شهدائه البررة.

وستبقى (كلمة أبي سعيد) نوراً ساطعاً للأحرار.

بعض من مقالات
الشهيد عبد الجبار وهبي "أبو سعيد"

وهي مأخوذة من كراس بعنوان:

أبو سعيد، مقالات مختارة، من منشورات الحزب الشيوعي العراقي، 1984

الحزب الشيوعي العراقي
المقر العام تأسس 1934

أبـــو سعـيـــد

قلت لصاحبي وقد التقيت به بالباب الشرقي عند تمثال السعدون، دخيلك أية واحدة من تلك الدرابين، هي دربونة فلان؟ بودي أن أمر فيها والقي نظرة على الشيء.. الشيء الذي انتشله فلان وطقه على باب دكان؟ (**يقصد هنا مقر حزب داود الصايغ الذي منحه قاسم إجازة للعمل العلني ليكون بديلا عن الحزب الشيوعي العراقي – المحرر**) قال: ليست بعيدة من هنا تعال، امشي وأنا وان كنت لا اعرفها بالضبط، أو الأحرى، لست متأكدا أية واحدة هي؟ فأما عند مطعم الشباب أو عند السينما؟ تعال الفكرة لطيفة ولا ضرر منها، مادام الوقت ليلاً والمرور إلى شارع أبي نؤاس من الدربونة لا يلفت النظر ولا يثير شبهة،، ثم رحنا سوية.

الدربونة ضيقة، تزدحم عند مدخلها من شارع السعدون بالسيارة والمارة والمتسكعين

كنت اكلم صاحبي ونحن نمشي، قلت أين هو الدكان والقطعة؟ فأشار صاحبي إلى لوحة بيضاء واسعة سعة الأحلام السود المنقوشة عليها حروفا يعرفها الناس بغير لون السواد، وأرقاما تشير إلى 27 سنة من نضال الشيوعيين العراقيين الذي طبقت شهرته الآفاق.

ألقيت نظرة عجلى على اللوحة الخشبية البيضاء و"البوية" السوداء والمصابيح المضيئة ذلك هو الشيء الذي انتشله فلان من قلوب اهله فيما يتخيل وعقله هنا للرزق. ذلك في رأي فلان (عمارة) 26 سنة من الدم والعرق والصبر الجميل.

وألقيت نظرة أخرى بعد وقفة على دجلة ورجوع من الدربونة ذاتها، كان فكري سارحا مع النهر العظيم الخالد في التاريخ.. مع المياه تنساب هادئة لينة وهي اقوى من الصخر، وتشق الصخر، وتنحدر في الأرض

الطيبة وقد تتلوى وقد تنعطف لكنها تظل ماضية في طريقها لا يمنعها شيء.. وضحكت من فكرة (الشيء).

قال صاحبي: مالك تضحك؟ وكان غاضبا، مدلهم الوجه، يقضم بأسنانه طرفا من شاربه الأسود الكثيف!

قلت: اضحك! وكيف لا أضحك؟ ألا ترى الدنيا يعمها الخير.

هذا سبب ضحكتي وسبب آخر، إني إذا رأيت ضخامة النهر ورأيت الشيء، هذا الشئ المعلق على باب فلان.. تذكرت ما يصنع الصبيان حين يغضبون ويقذفون النهر بأشياء في أيديهم ليوقفوا تيار الماء أو يسيئوا إلى طهره ونظافته، كنت انظر، إلى الشيء، والباب والدهليز والنوافذ وجزء من الحوش، تسطع فيها وفيه أنوار شديدة من الكهرباء وكأن عندهم "جلوس" من غير عرش، يجلس عليه سلطان، أو كأن ليلتهم احتفال بلا محتفلين. هذا إذن هو " الحزب" بلا حزبيين والنضال بلا مناضلين، والشيوعية بلا شيوعيين.

وللحقيقة والتأريخ وإنصافا لمقام السيد فلان، اعترف أن باب الدكان لم يخل من "معاميل" فقد شاهدت بضعة "أنفار" بملابس " الباش بزغ" يجلسون على كراسٍ مقابل الباب، وجوه عابسة كئيبة، تتثاءب وهي تسهر على سلامة القطعة وسلامة الماركسية – اللينينية، التي لا اعتراض عليها في القانون.

يالخسارة المعاشات وخسارة اللوحة وأجرة النجار والخطاط وإيجار الدار ومصروفات الصيانة والترقيع والتشجيع، ثم ودعت صاحبي شاكراً ورجعت إلى (اتحاد الشعب) لأكتب كلمة وكانت في ذهني أفكار وأحاسيس تتضارب، وأقول بصراحة، إني رأيت البارحة لأول مرة في حياتي، اسم الحزب الشيوعي العراقي مكتوبا في لوحة " علني" غير محفوظ عن أنظار أعداء الشعب والوطن والتحرر.

كان بودي أن افرح بالاسم، وكان بودي أن اكتشف جانبا من "بطولة" فلان الذي انتشل إجازة الحزب من مخالب القانون، وقدمها دون عناء.

شهادة مزكاة بحسن السلوك والسمعة لكل راغب، فلم أجد سبيلا إلى الفرح، أو سبيلاً إلى اكتشاف جوانب جديدة من قضية "فلان" غير ما تتناقله أحاديث الناس ونوادرهم، وأؤكد للقارئ أن الشئ الذي اسمه (حزب)..الشئ الذي انتشله السيد فلان مرتين، مرة من مخالب القانون، فحصل له إجازة ومرة من مخالب الزمر الانتهازية اليسارية، فحصل له شهادة حسن سلوك معترف بها عند كل الفصائل المعادية للشعب والديمقراطية والجمهورية، هذا الشئ ليس أكثر ولا اقل من دكان فارغ معروض للبيع أو الإيجار.

وكلمتي، انه إذا كان يطيب للبعض أن يسئ إلى سمعة الحزب الشيوعي بإشهار "إفلاس" السيد فلان، معروضا في دكانه العلني، فان هذا البعض لو رجع إلى الواقع، وخرج من (دربونة فلان الضيقة) إلى الشارع الرحب، ورأى وجوه الناس وسمع الكلمة من أبسطهم، لأدرك شيئا رائعاً بل عجيباً من وعي الشعب ويقضة الضمير وصدق عزمه. كثير من الناس لا يفهم الفلسفة الماركسية – اللينينية، ولا يعرف إلا القليل عن النظريات الديمقراطية الصحيحة والمليحة، لظنهم مع ذلك يحتقرون الجبن والغدر والكذب واللعب على الحبال والنشل والانتشال.

في هذه الأيام حيث ترفع الأفاعي السوداء رؤوسها المجرمة من جديد غير عابئة بدروس الماضي غير ملتفتة إلى قبضة الشعب الجبارة وسلطته الوطنية، فأن شعبنا الذي استوعب دروس الماضي، أن شعبنا يضع ثقته أكثر من أي وقت مضى بالطليعة الواعية الساهرة الصابرة، التي عرفها في الملمات ذخرا وسندا ومشعلا وهاجا ينير الطريق.

تدور الدنيا ويأليتها تدور على غصن زيتون

أبو سعيد

في علم التنجيم، إن الأرض تدور في السنة مرة، يسمونها: دورة السنة ويقولون أنها تكتمل في يوم نوروز، رأس السنة، في عرف أصدقائنا الكرد، والفرس، ويقول كذلك هذا القول كثير من العرب الذين أحبوا عيد الربيع، عيدا يكسلون فيه ويحلمون في "الكسلة " أحلام العمر، ويتوجسون في "يومها" هواجس الغد من خير وشر فيقول العارفون، دارت السنة على حية، أو أرنب أو ثور أو فأر.

أنا لا أؤمن بالتنجيم وان كانت بابل أنجبته وأنشأته وبنت له الأبراج وزرعت من آثاره في حضارات الشرق بقايا ما تزال تعيش من عبادة الشمس والقمر والنجوم والأصنام، لكني أتمنى أن تدور "الأرض" هذا العام على غير ما اعتادت عليه من رموز "الحيوان" بعضه أليف، مسكين، وبعضه وحش، وبعضه غادر!

أتمنى أن تدور على غصن زيتون، من زيتونة مباركة يكاد زيتها يضئ وان لم تمسه نار. ففي الزيتون شبع للجائع ونور للمستضيئين وامل وسلم للعالمين.

فعسى أن يأخذ "العارفون" بأمنيتي وهي أمنية الشعب، فيصدروا فتوى" غصن الزيتون" بدل " الفأر"، وعسى أن نجد في هذا العام، ما يشتهي الناس أن يجدوه وينتظروه ويجاهدوا في سبيله في كل عام.

وارجع إلى التنجيم، فهذا العلم اصوله القديمة من معرفة الناس، بالفلك.. وللفلك في أذهان البسطاء، معناها الذي يعني الحظ، أو القدر، أما عندي فهو علم يدرس في الجامعات والمراصد وتحسب أبعاده بالعقول الالكترونية، وهي وان كانت "جامدة" لاحياة فيها ولا إرادة، إلا أنها أذكى كما تشهد به الصواريخ القمرية والكونية، ومن عقول بمعنى أصحاب العقول الضعيفة في " الحساب".

الفلك علم ينبئ بأن الأرض لم تعد" صينية" مدورة كصينية البقلاوة يحملها ثور هائل الحجم والقوة، فوق قرنه، فإذا تعب القرن اليمين حولها الى القرن اليسار عند فجر الحادي والعشرين من آذار من كل عام.

فقد ماتت الخرافة، وجاء العلم ينبئ أن الأرض تشبه " شمامة" عالقة في الفناء، كما يعلق البهاء في الهواء، تدور بالناس، على نفسها وتدور بهم في فلك، حول الشمس، وتتبع الشمس في مسيرة كبرى في فضاء لا يتناهى ولا يبلغ حتى الضوء مداه في ملايين ملايين السنين والضوء أسرع من الحصان الاصيل بنحو ثلاثين مليون ضعف. لقد ماتت الخرافة وجاء العلم ووضع الإنسان يده على زمام سرعة الانطلاق الى الكواكب وبودي في هذا اليوم الأول من أيام الربيع في هذا اليوم الذي تنبس فيه الأحلام، وروح الصداقة بين أبناء الوطن، عربا وأكرادا، وتعيش فيه هواجس الغد من خير وشر، بودي أن اذكّر

الناس أن قوانين العلم، إذ ترسم للأرض حركتها، فهي ترسم كذلك للحياة وللشعب حركتهما، وهي "حركة " تسير بالناس في مسيرة كبرى الى الأمام، الى الأفضل والأصرف والأرقى، فإذا كان المتشككون بالعلم يعوزهم دليل، فتلك أقمار الإنسان الجديد، تدور حول الأرض وحول القمر، وحول الشمس، وتلك أيضا نصف البشرية التي أقامت في أوطانها دعائم السلم والتحرر والحياة الكريمة، حياة بلا جرح وسياط وهوان وأكاذيب.

وكلمتي:

إني أؤمن بالعلم.. وقوانينه وحسابه فان تمنيت أن تدور " السنة" على غصن الزيتون، فلأني اعلم أن الزيتون، انفع للناس وابقى وأطول عمراً من "حية أو ثور أو عقرب أو فأر" السنة تدور ولسوف تدور على غصن زيتون، هكذا اشتهي وارتئي وأومن فان أرادها الاستعمار وعقاربه وجرذانه، على غير ما يشتهي ويرتئي ويؤمن الشعب، فليس " للعقارب والجرذان " غير النعال، نعال أراه يرتفع، وقد يهبط في المكان الصحيح.

تحيتي للأصدقاء يستبشرون بنوروز والربيع والزهر، ويؤمنون بالعاقبة الخيرة للشعب الخير المناضل، وتهنئتي لمن يريد الهناء للناس.

كنت في البصرة

أبو سعيد

شمس آذار في البصرة تبشر بالصيف، تبشر بالرطب وان كانت عرائس النخيل لاتملك في آذار غير عطر التفاح.

رأيت طفلا يحمل " لقاحه" هكذا نسمي نحن البصريين قشرة " الطلع" المعطرة حين يقصها منجل الفلاح الى نصفين، لكل نصف عروة – رأيته يحمل لقاحة مترعة بالماء كما يحمل الدلو ويتمشى عند باب الصريفة.

ماء اللقاح مسكرة كخمرة الربيع هكذا توسوس في مخليتي ذكريات قديمة منسية، من طفولة كل الأطفال الذين لعبوا حفاة تحت سعف النخيل، وعاركوا "الرواكيب" من اجل الجمّار وتنشقوا عطر الطلع وحلموا بالصيف والرطب والتمر، واحبوا واحترموا منجل الفلاح، صاحب تلك الطيبات والمكرمات.

تمنيت أن اخطف "اللقاحة" المترعة بالماء لأسكب ماءها العطر على وجوه أخرى كنت أراها عابسة قاسية.

وجوه لا تفهم الفرح إلا "نضدة" دنانير في الجيب أو القاصة، أو سوطا يلهب ظهور الكادحين من اجل أن تبقى الصريفة الخاوية صريفة خاوية، والبطن الجائعة، جائعة تقتنع بالخبزة اليابسة والشاي، ويقتنع أصحاب السوط بما " قسم اللّه" من خيرات الأرض، تمنيت أن اخطف "اللقاحة" لأسكب ماءها على تلك الوجوه، تنشقوا العطر أيها السادة، جربوها أن تحلموا معنا حلم الطفل، حلم الشعب الذي يحلم في آذار بحلاوة الصيف والرطب. جربوا أن تفهموا الفرح انتصارا لإرادة الحياة إرادة الشعب، جربوا أن تفتحوا في توابيت قلوبكم نافذة، هذه الملايين التي تدب تحت شمس آذار وعلى جباهها حبات عرق، لا تلبث حتى تجف مسرعة، في النسيم.

كنت في البصرة اذرع شبانها.. طولاً وعرضاً وأجوب أطرافها وقراها وأعيش الربيع واحلم بالصيف واقرأ أفكاري في العيون الذكية الواعية، التي تشرق لكلمات الحب والصداقة والسلم وكرم النفس، وسمعت هناك من لسان الناس، لسانهم الرقيق المهذب، شكوى لاحتسبها شكوى أن

كنت تجهل كيف يتكلم البصريون بمرارة ماء البحر ورقته وصفائه.

أصغي الى سائق سيارة.. والى امرأة حافية في السوق.. وتلميذ أمام مركز الشرطة في انتظار أن يزور الموقوفين، والى مستخدم مطرود من الميناء.. وعامل نفط في جوفه مثل ما في جوف الأرض من لهيب ودخان.. والى معلم في نقابة المعلمين وطباخ هزيل البنية في باخرة تروح وتجيئ في شط العرب.. والى " مهرب" يرى في الكويت جنة من جنات الأرض أقامها الانكليز والأمريكان والشيوخ، وفقهم اللّه لسعادة الناس، حيث كل شيء رخيص بلاش.. حتى البصل احتفظ بسعره المعقول، وأصغيت الى الإشاعات والطبخات والصفقات وهموم سيادة مدير الميناء ونشاط سيادة المتصرف ووكيله ومشاكل الكمارك والشاحنات و"الدوب" والتاجر، الشيخ وصاحبه الضيف العزيز.. وأصغيت كثيراً وطويلاً الى تجار ومحامين وباعة جرائد.. وربات بيوت والى رجعيين وقوميين ووطنيين ديمقراطيين وشيوعيين، لكني لم أسجل في دفتري كلمة أو اسماً.. لاني اكتب كلماتي بالخط العريض ولا حاجة لي "بالتفتيش" بالصغائر والتفاصيل.

كنت في البصرة.. في العيد ويتبع هذا، عند أصدقائي القراء.. سؤال وجيه.. ماذا في البصرة؟ وسأجيب في كلمات قادمة، واليوم اكتفي بما ذكرت من شمس آذار وطلائع الصيف، البصرة جميلة وشعبها بطل فاتح عينه وطبقتها العاملة معقل عظيم شامخ للجمهورية والاستقلال والديمقراطية.

وثمة انطباع .. يصعب كتمانه أن "حكومة" البصرة.. مستعجلة أكثر من اللازم.. في محاولة القضاء على ما يدعي "بالخطر الشيوعي".. والعجلة من الشيطان خصوصا في مدينة النفط والميناء والصرائف والجوع.. والنخيل، وتحت شمس آذار الساطعة.

وانطباع آخر.. الشعب في البصرة يشكو مرّ الشكوى ويضحك أيضا مما يرى... ويؤمن ويثق بانتصاره.

سارق الأكفان...

أبو سعيد

التقيت في البصرة بتاجر "وسط " كان حديثه يدور، شأن الكثير من الناس... في الشكوى من ارتفاع الأسعار.... الدهن... اللحم...، صابون أبو الهيل. السمك... الصبور.... والبصل بشكل خاص. شوف إبني... كل أنواع المرق...البانذنجان، الفاصوليا، السبيناغ، الطماطة... ما عدا مرق "الشجر" تحتاج الى البصل.. وكذلك الدجاج المحشي...والسمك المحشي....وأنواع الكبة والدولمة.. تحتاج اليه.... وسعر الأُوقية.... يعني حقتين ونصف إسطنبول، من البصل بـ 600 فلس.... بينما السكر الانكليزي... يصنع في بريطانيا العظمى، ويدفع عليه "نول" الشحن، وأجور حمالية، و"خانجية" ... و"دلالية"، وكمرك، وأرباح تاجر جملة ومفرد، ثم تشتريه بنصف سعر البصل، شفت إبني.. هذي أينَ... ومتى صارت؟

قلت: إذا لم يبق شئ... غير البصل... تفكر فيه من "أشياء" في البصرة... رغم لذة البصل مع الدجاج المحشي.... ولذة البصل مع الخبز الناشف... في طعام بعض الناس.. فإني لا أرى رأيك في.... التشاؤم من سعر البصل... إن ضجة البصل... تشبه " رائحة "البصل، فهي أكبر و أضخم من حقيقتها...

البصلة صغيرة ورائحتها تملأ البيت...و"ضجتها "تملأ المدينة... وآكل البصلة " يفضح نفسه إذا نطق... أليس كذلك؟

وفي اعتقادي ...أيها العم ...أن فقدان البصل من الأسواق مسألة بسيطة...فيكفي جلب 100 طن الى البصرة... أي عشر "شاحنات" قطار .... وبعدها عشر... فيعود سعر البصل الى وضعه... فالمسألة بسيطة ولا ينبغي تكبيرها... ولاينبغي الإصغاء للشائعات التي يروجها أعداء الجمهورية خصوصا – منهم – جواسيس العهد المباد.

قال ... شوف إبني... نحن... أنا وأولادي لا نتعاطى السياسة... و ليست لنا مداخلات... والحمد للّه ... وشكره حتى مراجعة المحاكم... ولهذا السبب... لا نبيع بالكمبيالة ولا أعطي دينا بفلس... أحمر.. بل أبيع نقدي، أنا أضع نقودي في الجيب.. وأنام مرتاح البال، ولكن ما تفضلت به من وجود الجواسيس وأهل الطمع والرشوة وآكلي المال الحرام.... هو صحيح... وهو سبب المشاكل.

أحكي لك "سالفة" في المعنى الذي في فكري، يقال .. أن ولدا يتيما.. كان يسمع الناس، من كل صوب .. يشتمون أباه. وهو لا يدري سببا لغضب الناس على أبيه.. "المرحوم".... وكان يسأل أمه عن السبب، فلا يلقى عندها الجواب حتى زهق....وضاق ذرعا بالحياة وبالناس فراح يهدد أمه ويضيّق عليها الخناق.... لتكشف له السر... حتى أخبرته ...بأن الوالد "المرحوم" كان ينبش القبور، ويسرق أكفان الموتى، فاحتقره الناس جميعا وكرهوه، وشتموه ولعنوه، حياً وميتاً. وراح الولد، إبن الملعون، يفكر كيف "يحسن" سمعة أبيه ... ويخلص روحه من اللعنة... ؟ فذهب الى المقبرة، وصار "ينبش" القبور .... ويسرق أكفان الموتى –كما فعل أبوه من قبل ويزيد على ذلك بأن يمثل بأصحابها.... حتى اشتهرت فعلته.. وصار الناس يترحمون على أبيه ... فقد كان أبوه... يسرق الكفن، رحمه اللّه، ولا يمثل في الجنازة، هكذا صار يتحدث الناس.!

شوف إبني، أبو سعيد! إن بعض الموظفين، وغير الموظفين .... عندنا .... وربما في بغداد أيضا... يريدون أن يترحم الناس على أرواح ... عبد الإله ، ونوري، وإبنه صباح .... هذه هي المسألة.!

قلت ...

"السالفة" لطيفة، أيها العم... ومفيدة للذين يريدون أن يفهموا... لكن "السوالف" وحدها لا تكفي... خصوصا وأن الانكليز والأمريكان والجنيهات والدولارات ...والإذاعات والشائعات ... والأكاذيب، وكلها موجودة ....تؤثر في العقول والقلوب وبعض "الضمائر" وعليه، ينبغي أن تكون على حذر، فليس أخبث من الاستعمار في الدنيا، وليس أخبث من جواسيسه.

والمسألة، عندي... أيها العم! ليست في أسعار البصل، أو اللحم والدهن... بل ليست فيما يراه من مشاكل أخرى ومضايقات واعتداءات وقتل ... بل هي في "أصابع" الاستعمار.. "الأصابع" التي ينسى وجودها البعض... ولاننساها، نحن الشيوعيين، وهذا وعد أنني سأظل أذكر الناس... بالاستعمار! ... ووعد آخر أني سأنقل بأمانة ...الى الشعب ..الأفكار. ...

محطات في سيرة أب بطل ورمز

نادية عبد الجبار وهبي

أبطال حكايتي ناس حقيقيون، عاشوا زمنهم وتفاعلوا مع أحداثه لحظة لحظة، ويوما بيوم ، وسنة بسنة.

قارعوا الظلم دفاعا عن المظلومين، فضحوا القتلة وسارقي قوت الشعب. عاش هؤلاء الأبطال حياتهم مناضلين من أجل الغد السعيد والمستقبل الأفضل، حيث تتحقق فيه العدالة والمساواة.

أحد هؤلاء أبو سعيد، والدي عبد الجبار وهبي، الصحفي والشيوعي، الانسان المتواضع. وبمناسبة ذكرى عيد ميلاده التسعين، وقد قتله البعثيون الفاشست ولمّا يبلغ الرابعة والاربعين ، تحضرني بعض ذكريات طفولتي التي عشتها في الأمس البعيد – القريب، الحاضر أبدا، منذ بدايات خمسينات القرن الماضي، اروي بعضا منها:

كان منزلنا يقع في محلة راس الحواش في الأعظمية، كان ينبض بالحياة و بالدفء و بالمحبة، فما بالخبز وحده يحيا الانسان. فأصدقاء والدي كثيرون، منهم شعراء و كتاب و شخصيات وطنية معروفة أذكر منهم عزيز شريف وفريد الأحمر وعبد الملك نوري، محمد مهدي الجواهري ، عبد الوهاب البياتي، رحيم شريف وآخرون.

في تلك الفترة حل بضيافة والدي بدر شاكر السياب، قادما من البصرة، أُقام في بيتنا ردحا طويلا من الزمن. في الأمسيات كان أبريق الشاي يُعَمر، وترشف الاستكانات واحدة تلوَ الأخرى. والدي وبدر يتبادلان الأحاديث، ويتواصل النقاش بينهما طويلا.

يقرأ بدر ما يكتبه من قصائد وأبيات جديدة ثم يدور نقاش طويل بينهما، يمتد ساعا ت وساعا ت، لم يكونا على وفاق دائما، فنظرتهما للأمور كانت، كما يبدو، متباينة، متغايرة. لكن والدي لم يقطع الصلة معه، ولم يخاصمه يوما.

بعد سنوات أدركت أن أبي يحترم آراء الأخرين، ولا يخاصم أحدا بسبب إختلاف الرأي، كان حكيما، ودودا و متواضعا على الدوام.

أعتقال والدي أول مرة كان مفاجئا لنا، رغم أن عيون جواسيس الشرطة الوقحة ترصد الأماكن، وتلاحق الناس، مضيقة الخناق عليهم، وخاصة على المثقفين اليساريين. ومع ذلك فوجئنا عند حدوث طَرق شديد على الباب ، مصحوبا بصياح عال ، وتهديد بكسر الباب. كنت وأخي سعد مذعورين، نرتجف من الخوف. قا لت لنا أمي: لا تخافوا، جاءوا للتفتيش !!

لم نعرف ماذا يعني التفتيش إلا بعد أن

عبثت الشرطة بمحتويات البيت، وقلبته رأسا على عقب، ثم جاؤا بوالدي مقيدا، كانت الشرطة قد اعتقلته في مظاهرة اشترك فيها ذلك اليوم. لم أحتمل هذا المنظر فسقطتُ على الأرض، وأصابتني حالة صرع، وبذلك وبدون قصد مني أكون قد ساهمت في إنقاذ رزم من الكتب كانت مخبأة في سطح دارنا مهيأة للتوزيع، فلم يتسنّ للشرطة العثور عليها ومصادرتها، فالكتب التقدمية تقلق الأنظمة الرجعية لأنها تنير العقول، و تسلط الضوء على الحقائق فتسهم في تعميق الوعي الاجتماعي أساس التغيير.

* * * * * *

قرر والدي الإختفاء والالتحاق بالعمل السري، ودعنا وذهب رغم قسوة لحظات ذاك الوداع فقد كان هادئا، ذلك أنه مقتنع بهذا الإختيار الصعب. والدتي تحملت مسؤولية إعالتنا، وكل ما يتعلق بحياتنا إدراكا منها ومساندة له ليفي بوعوده في التضحية في سبيل ما آمن به.

بعد شهور مضنية من الفراق إلتقيناه في أحد بيوت الأصدقاء أصبح نحيلا ويرتدي دشداشة وغطاءا على الرأس، متحديا بهذا شرطة نوري السعيد، والنظام الملكي برمته، كنت سعيدة بذلك اللقاء فما زال والدي عبد الجبار حيا، على قيد الحياة.

1954 عام الرحيل الى سوريا

حصل أبي على جواز سفر باسم الحاج محسن عبد، وقرر إصطحابنا معه أنا وأخي سعد، وأما أمي، نظيمة وهبي فقد كانت سجينة في سجن النساء في بغداد تقضي ما تبقى من محكوميتها بسبب مشاركتها في نضالات الشعب ضد الحكومات الرجعية.

ركبنا القطار من الموصل بعد أن علمنا كيف نتصرف، فأنا ناهدة الإبنة الكبرى، المريضة جدا، وأخي سعد يقوم على رعايتها والاهتمام بها...عند نقطة التفتيش الحدودية في تل كوچك كان القلق واضحا عليه، غير أن الأمور سارت على أحسن وجه فاجتزنا الحدود العراقية بسهولة وأمان... فقطار الأمل، كما أطلق عليه والدي آنذاك، حملنا بحنان ومحبة.

وصلنا الى أول محطة للحرية ليجد والدي الحياة الأكثر طمأنينة واستقرارا وليواصل الكتابة ليُكمل مشروع كتاب كان يحرص على إنجازه. في الشام إستأجرغرفة عند تانت نجيبة، كما كنا ندعوها، ورغب أن تكون منضدة الكتابة قرب الشباك، ومؤملا أن يستطيع نشر بعض المقالات في الصحف السورية، إلا أن هذا الأمر لم يتحقق لأسباب جوهرية تتعلق بقيود كثيرة تحد من حرية النشر. فالصحافة السورية يومها تقليدية ومحافظة، لا تختلف عن مثيلاتها في البلدان العربية الأخرى. خيبة أمل صغيرة لم تحد من حيوية والدي ومثابرته الشديدة وروحه المرحة، أسمعه يدندن أحيانا بأغنية عراقية قديمة :

من همي نحل جسمي
وانطوه بيوم أجفاك
جلدي على عظمي.

كانت والدتي تغنيها أيضا، فهو الآن في شوق عارم الى وجودها معنا بأمل أن يلتم الشمل من جديد.

في عام1955 أنجز والدي كراس "من أعماق السجون في العراق". كان عملا شاقا، مضنيا، لكنه تكلل بالنجاح، فقد تم طبعه في لبنان، وجرى توزيعه في العالم

العربي ووصل أوربا، واحتفظ والدي بنسخ كثيرة من هذا الكتاب في البيت.

في تلك السنة تجمعت شبيبة وطلبة العالم المحبة للسلام في وارشو، حيث انعقد المهرجان العالمي الخامس للطلبة والشباب من أجل السلم والصداقة والتضامن.

وكنا نحن الثلاثة ضمن الوفد العراقي، ضمن جزء الوفد القادم من دمشق، والذي إكتمل بأعضاء الوفد القادمين من خارج الوطن، وبشكل خاص من الطلبة الدارسين في أوربا، ان أخي سعد كان أصغر أعضاء الوفد العراقي سنا فلم يكن قد تجاوز السابعة من العمر.

وكان لوالدي حضور متميز في نشاطات الوفد العراقي في المهرجان، فقد ترجم صفحات كثيرة من كراس " من أعماق السجون" الى اللغة الانكليزية، التي كان ما يزال يجيدها، كيف لا وهو خريج الجامعة الأمريكية في بيروت، وكان الهدف من هذه الترجمة إطلاع شبيبة العالم و طلبتها على ما يقوم به حكم حلف بغداد من قمع وارهاب جعل من العراق سجنا كبيرا، تُنتهك فيه حرية الانسان، وتُصادر حقوقه، وكل ذلك النشاط من أجل كسبهم الى التضامن مع شعب العراق.

وفي عام 1956 فقط تحقق جزء من أمنية طالما تمناها فقد التحقت أمي بنا في سوريا والتأم شملنا من جديد، غير أن هموم أبو سعيد لم تنته، فهموم الكتابة والنشر ما زالت قائمة، وهموم الوطن الكبيرة ما زالت عالقة تحتاج الى حلول ناجحة وهكذا فالذكريات لا تموت، والحكايات عن "أبو سعيد" لا تنتهي فهي زهور ملونة تزهر في ربيع كل عام تضوع بعطرها الفريد فيتجدد الأمل وتفتح ألف باب.

حياة والدي عبد الجبار وهبي (أبو سعيد) وسيرته النضالية حتى يوم استشهاده البطولي تاريخ مشرف لي أفتخر به فهو إرث من المجد لا تضاهيه كل كنوز الدنيا.

عبد الجبار وهبي.....سيرة مناضل مثال

د.حسان عاكف

منذ عام 1963،عام استشهاده، وكلما ذكر اسمه أمامي أو قرأت شيئا له أو عنه، يتملكني شعور آت من صدى زمن بعيد وتملؤني عاطفة عميقة مشوبة بكثير من الحزن وقليل من التباهي، انه الشهيد عبد الجبار وهبي "أبو سعيد". ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط بل كنت أتذكره بقامته التي تميل الى القصر قليلا ونظارته الطبية ومشيته الهادئة الواثقة في واحد من شوارع منطقة راغبة خاتون في بغداد كلما سمعت ابنته الفنانة أنوار وهي تردد:

" عد وأنه اعد ونشوف ياهو أكثر هموم
من عمري سبع سنين و اكَليبي مهموم".

عام 1959، ويومها كنت طفلا في التاسعة من عمري، كنا نتباهى في بيتنا لان "أبو سعيد" كان جارا لنا في منطقة راغبة خاتون. كنت انظر إليه باحترام كبير موشى بهالة من المهابة، لاني عرفت انه كان سياسيا مطاردا خارج الوطن أبان الحكم الملكي، وانه مثل الكثير من الذين تضمهم وتعرفهم عائلتنا من الناشطين في الدفاع عن الجمهورية الفتية .

انتقلنا من راغبة خاتون و انتقل معنا اسم "أبو سعيد" وظل طيفه يلازمني حتى اللحظة مع سجله الإنساني المشرق، مثلما ستظل ذكراه كـ "سيرة رجل شجاع" محفورة في وجدان شعبه، وملازمة لذاكرة الأجيال القادمة.

بعد انقلاب8 شباط "الأسود" خلّد الجواهري الكبير استشهاد أبو سعيد في قصيدته الرائعة "سلاما" الى جانب رفاقه الشجعان سلام عادل والحيدري وأبو العيس وعبد الرحيم شريف (أبو رائد) والشهداء الميامين الآخرين:

حماة الحمى والليالي تعودُ
وخلف الشتاء ربيع جديدُ
سيورق غصن ويخضر عودُ
ويستنهض الجيل منكم عميدُ
سيقدمه رائد إذ يرودُ
ويخلف فيه أباه سعيدُ
وسافرة ستربي النسورا
توفي أبا العيس فيهم نذورا

كتب الشهيد الدكتور صفاء الحافظ عن مطاردة السلطة الملكية لـ " أبو سعيد" واضطراره للهرب والاغتراب في سوريا مع رفيقة دربه المناضلة نظيمة وهبي، وتنقلهم بين دمشق وبيروت ودير الزور.

ومما ذكره الشهيد الحافظ أن "أبو سعيد"

كان معجبا بالصحفي اللبناني "أمين الأعور" الذي قال عنه أن "قلمه جارح ،يحلل المعاني ويضع يده على تعابير جميلة". كان أمين الأعور يكتب في جريدة الأخبار جريدة الحزب الشيوعي اللبناني آنذاك، وقال أبو سعيد مرة (بودي لو أزاول هذا اللون من الكتابة القصيرة المعبرة كتابة نحن في أمس الحاجة إليها في العراق).

وقد حقق أبو سعيد أمنيته بعد عودته الى العراق غداة انتصار ثورة الرابع عشر من تموز، من خلال عموده الشهير في جريدة "اتحاد الشعب" الذي أصبح محط إعجاب وانبهار عشرات لا بل مئات الألوف من قرائه.

في بطاقته الشخصية نقرأ أن "أبو سعيد" كان عضوا في نقابة الصحفيين وعضوا في اتحاد الأدباء الى جانب عضويته في نقابة المعلمين وفي حركة السلم العراقية، مما يدلل أن المناضل المثال كرس حياته كلها في العمل والنضال من اجل قضية اجتماعية عامة، وكونه رجلاً لم يترك دقيقة واحدة من وقته دون أن يقدم شيئا لشعبه و وطنه.

لم اقرأ لصحفي تتلمذ في مدرسة "اتحاد الشعب" في ستينيات القرن الماضي أو أسمع منه وهو يتحدث عن تجربته الصحفية في تلك المدرسة، إلا و يشير الى "أبو سعيد" وزميليه عبد الرحيم شريف وعدنان البراك وتأثره بهم، صحفيين ومثقفين ومناضلين، وقبل هذا وذاك أناس مشبعون بالتواضع والمرح وبروح عطاء لا ينضب وحب غير محدود لبلدهم و شعبهم، خصوصا فقراءه وكادحيه ومهمشيه. فليس صدفة إذن أن الثلاثة كانوا ضمن موكب واحد من مواكب شهداء الحزب الشيوعي العراقي.

الصحفي والروائي الراحل أبو كَاطع (شمران الياسري) أشار في لقاءات ومناسبات عدة الى تأثره بأسلوب "أبو سعيد" السلس واللاذع الساخر في الكتابة، آخرون وصفوا هذا الأسلوب بالسهل الممتنع.

كثيرة هي الأهازيج التي رددتها الجماهير بعد انتصار ثورة الرابع عشر من تموز، احدها الأهزوجة الشهيرة (اسأل الشعب ماذا يريد – وطن حر وشعب سعيد). وحين حدث الخلاف بين الشيوعيين وعبد الكريم قاسم وبدأت الاعتقالات والمطاردة للعناصر الوطنية والديمقراطية ولأعضاء الحزب الشيوعي على وجه الخصوص من جانب شرطة النظام ومخبريه و"المجلس العرفي لشمس الدين عبد اللّه"، وظف أبو سعيد هذه الأهزوجة في عموده الشهير في "اتحاد الشعب" في مقال ظل عنوانه يتردد لفترات طويلة لاحقة: (اسأل الشرطة ماذا تريد– عبد الإله ونوري السعيد)، إشارة الى تلك الملاحقات والاعتقالات وللتحذير من الارتداد الذي بدأ يلوح في مواقف قاسم وسياسة حكمه.

في كتابه (العراق البيرية المسلحة) يذكر الكاتب والباحث علي كريم سعيد الظروف التي مر بها الشهيد أبو سعيد في المعتقل: فيقول(اعتقل عبد الجبار وهبي مع رفيقيه جمال الحيدري و محمد صالح العبلي حيث تعرضوا الى تعذيب شرس في قصر النهاية يصفه الضابط محمد علي سباهي الذي كان عضوا بارزا في حزب البعث وتركه قبل 8 شباط.

في عام 1963 زرت عمار علوش في قصر النهاية وكان مشرفا على التحقيقات فرأيت عنده عبد الكريم الشيخلي – وزير

الخارجية بعد انقلاب 1968- وأيوب وهبي وخالد طبره وهناك فجأة رأيت الصحفي عبدالجبار وهبي ممدا على الأرض وكان على وشك الموت يطلب الماء فيجيبه خالد طبرة (ها كواد تريد مني ماي)!!.

وفي شهادة أخرى كتب الدكتور فؤاد بابان: كنت معتقلاً في قصر النهاية فرأيت عبد الجبار وهبي (أبو سعيد) مقطوعة إحدى رجليه حيث نشرت بآلة قطع حادة وكان الى جانبه شخص آخر لديه يد واحدة.

رغم هذه العتمة الموحشة، وكلما حاولت تذكر ابن البصرة الشماء، مدرس الفيزياء، الشيوعي، الصحفي اللامع والرجل المثال أبو سعيد وهو بين أيدي جلاديه تجدني اتخيله حاملاً جراحه هازءاً منهم وهو يترنم بالاغنية التي كتب كلماتها ابن فلسطين، الارض المحتلة، سميح القاسم وصدح بألحانها فنان لبنان، الحرب الاهلية، مارسيل خليفة بعد سنوات من استشهاد ابو سعيد:

منتصب القامة امشي
مرفوع الهامة امشي
في كفي قفصة زيتون
وعلى كتفي نعشي

صديق الناس!؟ *

كريم حواس/ عامل مطبعة

ما الذي يجمع الناس بين أحلام وآمال، طموحات وإرادات نوايا وغايات، بائع جرائد.. صاحب مكتبة.. أستاذ جامعي.. فراش مدرسة ابتدائية ... أستاذ فيزياء أو كيمياء.. طالبة أو طالب جامعة، فلاح من التنومة حالم من هور الغموكَة مناضل خرج لتوه من سجن بعقوبة .. امرأة يضيق صدرها بأحلام المستقبل السعيد..أطباء مهندسون صيادلة شعراء ساسة..عمال بناء.. ميكانيكيو مطابع.. سواق سيارات قاطرات .. حوزويون.. قهوائيون وآخرون يصعب ذكرهم جميعاً.

هؤلاء جميعا نجدهم تكتمل عيونهم يتسمر لقراءة "كلمة اليوم" ومهما كانت العناوين الأخرى مغرية أو موثرة في الجمهور لها الأولوية.

إن من يقرأ اليوم من ما كتبه أبو سعيد يدرك سبب حب الناس له رغم أنهم لم يلتقوه كشخص..إذ كان يعبر عن آلامهم وأحزانهم وآمالهم وطموحاتهم.. نساءا ورجالا .. شيبا وشبابا.

ولم يكن عبد الجبار وهبي يهدف الى استجداء عواطف القراء وإنما جل همه أن الإنسان يقف ببسالة بدفاعه عن حقوقه فردا وجماعة.. وان يحث الخطى بإرادة ثابتة لبناء غده دون منّة احد.

إن نماذج (نجسانه، قاسم شخنوب، الدكانة) وغيرها فيها البرهان على ماقلنا.

المتتبع لما كتبه وظهر للقراء اعتمد معايير محددة: الوقوف بجانب الكادحين عمال وفلاحين وبرجوازيين صغار دعم موقفاً فلسفياً وهو التزام نضالي.

– الجمهور والملكية؛ نظامان متضادان لا ينبغي الخلط بينهما.

ما الذي يجمع الناس بين أحلام وآمال، طموحات وإرادات نوايا وغايات، بائع جرائد.. صاحب مكتبة.. أستاذ جامعي.. فراش مدرسة ابتدائية ... أستاذ فيزياء أو كيمياء.. طالبة أو طالب جامعة، فلاح من التنومة حالم من هور الغموكَة مناضل خرج لتوه من سجن بعقوبة .. امرأة يضيق صدرها بأحلام المستقبل السعيد..أطباء مهندسون صيادلة شعراء ساسة..عمال بناء.. ميكانيكيو مطابع.. سواق سيارات قاطرات .. حوزويون.. قهوائيون وآخرون يصعب ذكرهم جميعاً.

هؤلاء جميعا نجدهم تكتحل عيونهم وتتجلى قلوبهم صباحاً من ضغط هموم الحياة وهم يلتهمون التهاما وبنهم بيّن كما يفعل النحل وهو يلتهم رحيق الأزهار طاوين "اتحاد الشعب" مركزين البصر والبصيرة على مكان محدد من الصفحة الذي عنوانه الثابت "كلمة اليوم".

الليل يبدأ بطي نصفه الثاني.. الشارع تتثاقل خطاه. وداخل المطبعة تتسارع الخطى ويزداد النشاط تمضي الساعة الأولى والثانية وربما الثالثة بعد منتصف الليل. تنهض عشرات الرؤوس من زوايا المطبعة يتقدمون بالدور يأخذ كل منهم حصته. ثم يتسمر لقراءة "كلمة اليوم" ومهما كانت العناوين الأخرى مغرية أو موثرة في الجمهور لها الأولوية.إن من يقرا اليوم من ما كتبه أبو سعيد يدرك سبب حب الناس له رغم أنهم لم يلتقوه كشخص..إذ كان يعبر عن آلامهم وأحزانهم وآمالهم وطموحاتهم.. نساءا ورجالا .. شيبا وشبابا.

ولم يكن عبد الجبار وهبي يهدف الى استجداء عواطف القراء وإنما جل همه أن الإنسان يقف ببسالة بدفاعه عن حقوقه فردا وجماعة.. وان يحث الخطى بإرادة ثابتة لبناء غده دون منّة احد.

إن نماذج (نجسانه، قاسم شخنوب، الدكانة) وغيرها فيها البرهان على ماقلنا.

المتتبع لما كتبه وظهر للقراء اعتمد معايير محددة: الوقوف بجانب الكادحين عمال وفلاحين وبرجوازيين صغار دعم موقفاً فلسفياً وهو التزام نضالي.

– الجمهور والملكية؛ نظامان متضادان لا ينبغي الخلط بينهما.

– إن 14 تموز عمل منظم لسنوات عديدة وكانت أشكال الانجاز موزعة في مهمات بين النشر ومنظمات المجتمع المدني (نقابات،أحزاب،الخ).

– إن ثورة تموز قد غيرت طبيعة وأسس المجتمع وأحدثت تشكيلة سياسية اقتصادية ثقافية وليس انقلابية نفذها ثلة عسكر مخمورين لذا على أصحاب المصلحة بالثورة أن يتمسكوا بالتغيير والتطوير لما هو أفضل.

– الجماهير هي صانعة التاريخ وليس الأفراد مهما بلغت عظمة جهودهم الفردية في تسريع أو إفشال حدث ما أو إعاقته، يسرت لمختلف القراء سعة معرفية تقدمية رغم تباين منحدراتهم الطبقية والعلمية. أية قضية تناولها أبو سعيد سواء فردية أو اجتماعية كانت قانونية أو اقتصادية أو سياسية ...تستقر داخل الحراك الاجتماعي كقضية طبقية تهم المجتمع بمجمله.

2010/11/20

* كان قد تم طبع كتيب صغير)كتيب جيب(احتوى "كلمات" أبو سعيد لغرض إصداره وتوزيعه في حينه تم سرحب واطلاف واقترح اليوم وإحياءا لذكرى الراحل الشهيد الخالد..أن تجمع في كراس وتطبع وتوزع لذكرى إعدامه الثامنة والربعين.

مقـــــالات

التأمين في الكتابات الاقتصادية الكلاسيكية: آدم سميث وكارل ماركس

مصباح كمال

تعلم مصباح غازي عسكر كمال مبادئ التأمين في بغداد عندما بدأ العمل في شركة التأمين الوطنية (1968) بعد حصوله على شهادة بكالوريوس في العلوم السياسية من جامعة بريطانية (1967). غادر العراق سنة 1977 لإكمال دراسته العليا في بريطانيا حيث حصل على شهادة ماجستير في العلوم الإدارية (1978) وبدأ العمل في إحدى شركات وساطة التأمين وإعادة التأمين في لندن ولا يزال يمارس العمل. نشر العديد من المقالات التأمينية في مجلات تأمينية عربية وإنجليزية. ساهم في إعداد معجم انجليزي-عربي لمصطلحات التأمين وتعاون مع أحد زملائه على ترجمة كتاب عن إدارة الخطر.

مقدمة

هذه محاولة أولية للتعريف باستخدام التأمين كمفهوم وآلية في بعض الكتابات الاقتصادية الكلاسيكية، اخترنا من بينها (ثروة الأمم) لآدم سميث (1723–1790) و (رأس المال) لكارل ماركس (1818–1883).

وقد استفدنا من الإنترنت في البحث عن تعبير التأمين في نصوصهما. ربما لم ننجح في بحث شامل بهذا الشأن، ولعل من يهمه

الأمر يضيف إلى ما وجدناه ويوسع نطاق التعليق والتحليل.

يقترن التأمين دائماً بالخطر(الخطر كموضوع) محل للتأمين (الممتلكات والمسؤوليات)، والخطر بمعنى مسببات الضرر أو الخسارة، كالحريق والانفجار والفيضان والحوادث العرضية، والخطر كحالة / وضع أو بيئة محل الخطر، والخطر كسلوك وموقف المؤمن له وهو ما يوصف بالخطر المعنوي)، فهو آلية لتوفير حماية مالية من آثار أخطار الطبيعة وتلك التي يتسبب بها الإنسان أو تنشأ نتيجة لدينامية النشاط الاقتصادي في مختلف المجالات، وما يترتب على ذلك من تبعات قانونية وتعاقدية. وتقوم الآلية على تجميع أقساط التأمين من عدد كبير من المؤمن لهم والاستفادة منها لتعويض أولئك الذين يتعرضون للخسارة أو الضرر. ويلعب قانون الأعداد الكبيرة ونظرية الاحتمالات والإحصاء والعلوم الاكتوارية دوراً مهماً في تصميم وتسيير آلية التأمين.

ومن منظور قانوني فإن التأمين هو "عقد به يلتزم المؤمن ان يؤدي إلى المؤمن له أو إلى المستفيد مبلغاً من المال أو إيرادا مرتباً أو أي عوض مالي آخر، في حالة وقوع الحادث المؤمن ضده، وذلك في مقابل إقساط أو أية دفعة مالية أخرى يؤديها المؤمن له للمؤمن." (المادة 981- فقرة 1 من القانون المدني العراقي رقم (40) لسنة 1951).

لم يعالج سميث وماركس مفهوم التأمين وآليته أو القانون المنظم له (تكوين صندوق من أقساط التأمين من أكبر عدد ممكن من طالبي التأمين واستخدامه للتعويض عن الخسائر التي تلحق بالبعض منهم) كموضوع مستقل. فلم يكن ذهنهما منصرفاً إلى معالجة نظرية للتأمين كما فعل آخرون فيما بعد.

آدم سميث شرح مفهوم التأمين باختصار وأشاد بأهميته في حين أشار كارل ماركس إلى التأمين لخدمة أطروحاته الاقتصادية الأساسية. ويمكننا القول إن استخدام مفهوم التأمين لا يتعدى الإشارة إلى مؤسسة التأمين ونشاطها في زمانهما، وفي سياق موضوع أكبر – كما هو الحال عند ماركس.

ملاحظة للقارئ: [جميع العبارات المحصورة بين قوسين مربعين هي من وضع كاتب المقالة مصباح كمال]

آدم سميث والتأمين

[هذا الجزء من الورقة هو ترجمة لمقالة نشرت في مدونة بعنوان الاقتصاد السياسي ويُعرّفها صاحبها Mark Biernat كالتالي: "مدونة مارك بيرنات الاقتصادية لتحسين الاقتصاد، وتخفيض الضرائب وتخفيف أعباء الحكومة."(1)

لم يكتب آدم سميث الكثير عن التأمين ولكن نستعرض هنا بعض الأفكار والاقتباسات ذات علاقة به.

موقف آدم سميث من الخطر

"احتقار الخطر، وأمل افتراض النجاح، هما الأكثر حضوراً في سنين العمر الذي يختار فيه الشباب مهنهم مقارنة بأية فترة من الحياة. فكم هو قليل الخوف من سوء الحظ في توازيه مع حسن الحظ الذي يكشف عن نفسه بوضوح أكثر في مدى استعداد الناس العاديين للتطوع كجنود، أو العمل

كبحارة، مقارنة بحرص غيرهم ممن هم في منزلة أفضل لدخول ما يسمى بالمهن الحرة."

اعتقد إن الناس يسيئون تقدير الخطر في كل ركن من أركان الاستثمار. فالغرور والكبرياء يضعان الخطر جانباً كما أن الرغبة في المجد تغشي أبصارهم. نظرة على إدارة الاستثمار في أي شركة تأمين في الوقت الحاضر تكشف تعريضهم لمدخرات الناس للخطر، والتي يقوم دافعي الضرائب بإنقاذها [الشركات].

لقد كان التأمين بالنسبة لآدم سميث قيمة جيدة [فهو يشرح هنا آلية التأمين والحاجة إلى رأسمال مناسب لدى شركة التأمين لضمان وفائها بالتزاماتها تجاه المؤمن لهم]:

"تجارة التأمين توفر أمناً كبيراً لثروات الناس العاديين، وعن طريق تقسيم خسارة كبيرة، التي من شأنها أن تدمر أي فرد، على عدد كبير [من الناس والشركات] يصبح عبئها خفيفاً وسهلاً على المجتمع بأسره. ومن أجل توفير هذا الأمن، على أي حال، فمن الضروري أن يكون لشركات التأمين رأس مال كبير جدا.

موقف آدم سميث من التأمين والتوزيع [توزيع الأخطار]

كتب آدم سميث عن التوزيع ما يلي:

"يبحر العديد، في كل الفصول، وحتى في زمن الحرب، دون أي تأمين. ربما يتم هذا في بعض الأحيان دون أي تهور. عندما يكون لشركة كبيرة، أو حتى تاجر كبير، عشرين أو ثلاثين سفينة في البحر، فإن كل واحدة منها [السفن] تُؤمِنُ، إن جاز التعبير، الأخرى. فقسط التأمين الذي يتم توفيره ربما يكفي ويزيد لتعويض هذه الخسائر التي يمكن أن تتعرض لها أثناء المجازفة المشتركة. إهمال التأمين على النقل البحري، على أي حال، كالإهمال على المنازل، هو، في معظم الحالات، ليس نتيجة لمثل هذا الحساب الدقيق بل مجرد تهور أرعن، وازدراء متغطرس تجاه الخطر."

الرسالة [التي يتضمنها هذا الموقف] هي: التوزيع هو نوع من التأمين الذاتي.

يسجل آدم سميث نقطة مهمة وهي أن التوزيع [توزيع أعباء الأخطار] يمكن أن يوفر الحماية ضد الخطر. ولكن السؤال هنا هو: لماذا يتجاهل العديد من مديري الاستثمار هذا الأمر؟ صحيح أنهم يستخدمون التوزيع البسيط لكنهم لايستخدمون التوزيع الحقيقي.

[يقدم آدم سميث في هذه الفقرة شرحاً مقتضباً جداً عن آلية عمل التأمين – الأعداد الكبيرة للأخطار/ قانون المتوسطات. فشركة الملاحة البحرية التي لا تؤمن على هياكل سفنها، لدى شركة تأمين، ليس بسبب الإهمال وإنما عن وعي، تمارس شكلاً من أشكال إدارة الخطر من خلال التأمين الذاتي مستفيدة من قانون الأعداد الكبيرة ونظرية الاحتمالات. وفي المثال الذي يذكره يقول أن احتمال تعرض عشرين أو ثلاثين سفينة في "مجازفة مشتركة" للخسارة ليس وارداً، وهذا هو الحال في الأوضاع الاعتيادية وخلافها يصنف ككارثة. ولذلك فإنه يكيف موقفه بالقول أن قسط التأمين الذي لم ينفق على التأمين، بفضل التأمين الذاتي، "**ربما يكفي ويزيد**" للتعويض عن خسارة سفينة.

إن الخطر، بأشكاله المختلفة، يحيط بنا باستمرار ولا فكاك منه. ولذلك يؤكد آدم سميث أن الاستهانة بالخطر"مجرد تهور أرعن" وغطرسة تقوم على الجهل.]

التأمين |ثروة الأمم

كانت المملكة المتحدة دولة بحرية. ولآدم سميث تعليق مثير للاهتمام عن التأمين. فقد كتب عن التأمين في **ثروة الأمم** [1776]:

"كون فرصة تحقق الخسارة يُقلّلُ من قيمتها كثيرا، وقلّما تُثمن بأكثر مما تستحقه، فهو أمر نتعلمه من الربح القليل جدا لشركات التأمين."

هذا يعني أن الناس عادة ما يكون تأمينهم ناقصاً، على الأقل في 1776. لكن هناك شئ آخر. الناس يقللون من تقدير المخاطر المالية. وأنا أتفق 100% مع هذا. أنظر لسوق الأسهم أو سندات الرهن العقاري، فقد تعامل الناس معها على أنها آمنة 100%.

[ربما كانت إشارة سميث إلى ميل الناس والشركات إلى التأمين على أموالهم بأقل من قيمتها الاستبدالية هي الأولى في إبراز ما أصبح يسمى اصطلاحاً بالتأمين الناقص. والدافع إلي التأمين الناقص من قبل المؤمن له هو تخفيض قسط التأمين الذي غالباً ما يحدد بضرب سعر التأمين بمبلغ التأمين. فكلما كان مبلغ التأمين منخفضاً انخفض قسط التأمين. هذا الميل لدى المؤمن له ليس في صالحه عندما تتعرض أمواله المؤمن عليها للضرر إذ عندها يلجأ المؤمِن إلى جعل المؤمن له مسؤولاً عن تعويض بعض الضرر الذي لحق به، وذلك من خلال تطبيق ما يعرف بشرط المعدل أو شرط النسبية. "وفحواها انه إذا كانت قيم المال المؤمن عليه تزيد يوم الحادث على مبلغ التأمين، كان التعويض الذي يلزم به المؤمن هو ما يعادل النسبة بين مبلغ التأمين وقيمة المال يوم الحادث... إن قاعدة النسبية مستمدة من مبدأ عادل تمليه قواعد العدالة ذلك أن التعويض يلزم أن يكون متناسباً مع القسط المدفوع وان المؤمن يضار ولا شك إذا ألزم في حالة التأمين الناقص بأداء نفس مبلغ التعويض الذي كان يدفعه لو أن التأمين كان كاملاً في حين أنه لم يستلم إلا قسطاً محسوباً على قيمة للشئ المؤمن عليه أقل من قيمته الحقيقية."(2)

موقف سميث من التأمين

"**من أجل جعل التأمين، سواء ضد خطر الحريق أو** [الخطر] **البحري، تجارة تقريباً، يجب أن يكون قسط التأمين العام كافياً لتعويض الخسائر الشائعة، ودفع تكاليف الإدارة، والحصول على ربح كافٍ كان بالإمكان تحقيقه من رأسمال مماثل** [لذلك الرأسمال الموظف في التأمين] **وظف في أية تجارة شائعة. الشخص الذي لا يدفع أكثر من هذا** [قسط التأمين]، **من الواضح أنه لا يدفع ما يزيد عن القيمة الحقيقية للخطر، أو أدنى سعر يتوقع بصورة معقولة تأمينه بموجبه. ولكن على الرغم من أن العديد من الناس قد حققوا القليل من المال** [الأرباح] **عن طريق التأمين، فإن عدداً قليلاً جداً كونوا ثروة كبيرة بفضله؛ ووفقاً لهذا الاعتبار وحده، فإنه يبدو واضحا بما فيه الكفاية أن الرصيد العادي للربح والخسارة ليس أكثر ربحية في هذا**

مما كان سيكون عليه [الرصيد] **في نشاطات تجارية أخرى يحقق للعديد من الناس الثروات. ورغم أن قسط التأمين معتدل عموما، فإن كثيراً من الناس يستهينون بالخطر باحتقار كبير يحول دون تخصيص قسط للتأمين."**

تفسير آدم سميث للتأمين

أعتقد أن الاقتباس أعلاه يفصح عن نفسه. فهو كناية عن المخاطر المالية ككل. والناس لا يفهمون ذلك ويلعبون بالنار. وحتى العديد من شركات التأمين، كما اعتقد، تعرض الأصول الاستثمارية للخطر. هذا الأمر يدهشني.

[ينظر سميث للنشاط التأميني كمشروع تجاري، رأسمالي، يستهدف الربح. فهو يعرض الاستخدامات البديلة لرأس المال الموظف في شركة تأمين، فإن لم يستطع الرأسمالي "الحصول على ربح كافٍ" أنتقل إلى نشاط آخر يدّر ما يكفي من الربح.

وفي تقديره "أن العديد من الناس قد حققوا القليل من المال [الأرباح] عن طريق [الاستثمار في] التأمين" لكن "عدداً قليلاً جداً كونوا ثروة كبيرة بفضله." وينعى سميث باللائمة على الشركات والناس الذين لا يتحوطون ضد الخطر من خلال شراء حماية تأمينية.]

كارل ماركس والتأمين

لم نتوفر على ترجمة عربية جاهزة لكل نصوص ماركس ذات العلاقة بالتأمين وقمنا بترجمة حرة لبعضها. الاقتباسات مطولة بعض الشئ ولكنها ضرورية لفهم السياق الذي ورد فيه ذكر التأمين (3).

تكوين احتياطي/صندوق للتأمين

في كتابه **نقد برنامج غوتا** (1875) يقول ماركس ما يلي في مناقشة الأطروحة التالية أدناه في البرنامج(4).

3- "**إن تحرير العمل يتطلب رفع وسائل العمل إلى مستوى ملكية المجتمع بأسره، وضبط العمل الإجمالي بصورة جماعية مع توزيع دخل العمل توزيعا عادلاً**".

إن "دخل العمل" تعبير عن فكرة غامضة كان لاسال [1825–1864] يتخذها بدلا من المفاهيم الاقتصادية الواضحة. ثم ما هو "التوزيع العادل"؟

إذا أخذنا أولا كلمتي "دخل العمل" بمعنى نتاج العمل، فإن دخل العمل الجماعي يعني حينذاك **النتاج الاجتماعي الإجمالي**. والآن، ينبغي إن نقتطع منه:

أولا: ما نستعيض به عن وسائل الإنتاج المستهلكة؛

ثانيا: قسماً إضافيا لتوسيع الإنتاج؛

ثالثا: أموالا للاحتياط أو للتأمين ضد الطوارئ، والكوارث الطبيعية، الخ..

إن هذه الاقتطاعات من "دخل العمل غير المنقوص" تحتمها الضرورة الاقتصادية، وتتحدد مقاديرها وفقاً للوسائل والقوى المتوافرة، وجزئياً بموجب حساب الاحتمالات؛ ولكنها في مطلق الأحوال لا يمكن تحديدها على أساس العدالة."

الضرورة الاقتصادية تقتضي تكوين صندوق للتأمين لمواجهة الخسائر المترتبة على طوارئ العمل، التي ترافق عملية الإنتاج، وكذلك الكوارث الطبيعة التي تلحق بوسائل الإنتاج المادية. وكما يذكر ماركس في مكان آخر فإن "رأس المال الثابت هذا،

منظوراً إليه من وجهة نظر موضوعية، يتعرض لحوادث معينة، ومخاطر في عملية إعادة الإنتاج."

وما يُحتفظ به في هذا الصندوق من أموال نقدية يتحدد باعتماد حساب الاحتمالات - أي احتمالات تعرض وسائل الإنتاج للخسائر بفعل طوارئ العمل أو الكوارث الطبيعية. وتعتمده شركات التأمين، التجارية والعامة والتعاونية، مثل هذه الاحتمالات للتأمين على الحياة والممتلكات والمسؤوليات القانونية والتعاقدية. وهي أيضاً ما تعتمده الشركات الكبيرة عندما تقوم بالتأمين الذاتي على ممتلكاتها من خلال تكوين صندوق للتأمين ضد الطوارئ. وهذه الممارسة اتخذت شكلاً مؤسسياً متطوراً صار يعرف منذ خمسينات القرن العشرين باسم شركة التأمين المقبوضة captive insurance company.

قوله إن مقدار الاستقطاعات من الناتج الاجتماعي الإجمالي لا يمكن تحديده في مطلق الحالات على أساس العدالة ربما يؤشر على استبعاد ماركس للمعايير الأخلاقية في مجال التأمين.

معروف أن ماركس كان مهتماً بالرياضيات فقد خلّفَ ما يقرب من ألف صفحة من مسودات دراسته للرياضيات.(5) يعنى هذا أنه كان يكتب من موقف العارف بأهمية حساب الاحتمالات الذي ينتظم آلية التأمين.

السؤال الذي ينهض هنا هو: هل أن استقطاع أموال "للاحتياط أو للتأمين ضد الطوارئ، والكوارث الطبيعية، الخ.. " يكون على نطاق الشركة الواحدة، وهو بهذا الشكل نوع من أنواع التأمين الذاتي، أو على المستوى الوطني – أي من منظور بنية الدولة الحديثة من خلال تخصيصات الميزانية أو تكوين صناديق طوارئ لمواجهة آثار الكوارث. هذا على مستوى المؤسسات الإنتاجية الصناعية والخدمية.

كيف هو الحال بالنسبة للأفراد؟ هل أن الفرد يقوم بالتأمين الذاتي (من خلال تخصيص احتياطي من دخله) أو أن الدولة تقوم بجبر الضرر الذي تلحق به وبأسرته كما هو الحال بالنسبة لإصابات العمل أو إعانة البطالة وغيرها من منافع دولة الرفاهية. هذا الجانب لم يشغل حيزاً في تفكير ماركس فنظرته ضمن المفهوم الموسع لإعادة الإنتاج اقتصرت على توفير الحدود الدنيا للإبقاء على العمال كقوة عمل وإعادة إنتاجهم وعائلاتهم كوسائل إنتاجية قادرة على العمل وعلى إنتاج فائض القيمة. وسيمر بعض الوقت قبل أن تظهر التشريعات الخاصة بالضمان الاجتماعي.

إن طبيعة النظام الاقتصادي تحدد كيفية تمويل مثل هذه الصناديق لتعويض الأفراد والمؤسسات من نتائج الكوارث الطبيعية.

الاحتياطي المستقطع من الناتج الاجتماعي الإجمالي (لصندوق التأمين) لمقابلة آثار الحوادث والكوارث والمساهمة في تصليح وصيانة وسائل الإنتاج المادية، من وجهة نظر ماركس، يمكن أن يدار من قبل "شركات تأمين منفصلة" أو من داخل المؤسسة الإنتاجية.

تكوين مثل هذا الاحتياطي يتجاوز طبيعة النظام الاقتصادي الاجتماعي - كما سيرد فيما بعد -إذ أن الخطر، بأشكاله المختلفة، ملازم للاجتماع البشري ولا يقتصر على التنظيم الرأسمالي.

تمويل صندوق التأمين

"لو أخذنا بعين الاعتبار إعادة الإنتاج في حالتها الطبيعية، فإن جزءا فقط من العمل المضاف حديثا للإنتاج يستخدم في الإنتاج، وبالتالي في إعادة إنتاج رأس المال الثابت. وهذا هو بالتحديد الجزء الذي يحل محل رأس المال الثابت المستخدم في إنتاج مواد الاستهلاك، وأجزاء كبيرة من العائدات. رأس المال الثابت هذا، منظوراً إليه من وجهة نظر موضوعية، يتعرض لحوادث معينة، ومخاطر في عملية إعادة الإنتاج. (وعلاوة على ذلك، واعتباره من وجهة نظر القيمة، فإنه [رأس المال الثابت] قد يستهلك من خلال تغيير في الطاقة الإنتاجية للعمل، لكن هذا لا يشير إلا إلى الرأسمالي الفرد). وبناء على ذلك فإن جزءاً من الأرباح، من فائض القيمة وفائض المنتجات، والذي يمثل فقط العمل الجديد المضاف، بقدر ما يخص قيمتها، هو بمثابة صندوق التأمين. في هذه الحالة لا يهم، ما إذا كان هذا الصندوق يدار من قبل شركات تأمين منفصلة أم لا. هذا هو الجزء الوحيد من الإيرادات التي تستهلك كموضوع للاستهلاك بعينه ولا يخدم بالضرورة كصندوق للتراكم. وما إذا كان يخدم التراكم في الواقع، أو يغطي مجرد نقص في إعادة الإنتاج، يتوقف على الحادث."

(**رأس المال**، المجلد الثالث. عملية الإنتاج الرأسمالي ككل، الجزء السابع، الفصل التاسع والأربعون. مساهمة في تحليل عملية الإنتاج. (VII.XLIX.36)

في شرحه لمخطط إعادة إنتاج مكونات رأس المال الاجتماعي الإجمالي aggregate social product وهي ليست مجرد إعادة إنتاج لمقدار القيمة بل هي في ذات الوقت إعادة إنتاج مادية، يُقسّم ماركس الإنتاج الاجتماعي إلى قسم يضم إنتاج وسائل الإنتاج وقسم يضم إنتاج وسائل الاستهلاك.

ويقسم ماركس إعادة الإنتاج إلى نوعين: إعادة الإنتاج البسيط وإعادة الإنتاج الموسع. في النوع الأول يستهلك إجمالي فائض القيمة بشكل غير منتج – إي إنه ينفق لشراء السلع الاستهلاكية. أما إعادة الإنتاج الموسع فإنها تعني أن جزءاً من إجمالي فائض القيمة يستخدم في شراء رأسمال إضافي، ثابت ومتغير، بهدف زيادة حجم الإنتاج. [في الحالة الأولى يظل الاقتصاد في مكانه في حين يحقق الاقتصاد في الحالة الثانية نمواً بفضل إعادة استثمار جزء من فائض القيمة.(6)

وفقا لماركس، فإن إعادة الإنتاج الاقتصادي في النظام الرأسمالي مشروطة بتراكم رأس المال. فإذا فشل العمال في إنتاج المزيد من رأس المال، من فائض القيمة، فإن إعادة الإنتاج الاقتصادي تبدأ بالتدهور. ولذلك فإن إعادة الإنتاج هي بالضرورة إعادة إنتاج موسع ويحتاج إلى نمو مستمر للسوق. وهكذا فإن النمو الاقتصادي ليس مجرد رغبة لدى الرأسمالي ولكن ضرورة مطلقة في النظام الرأسمالي، وليس فقط بسبب النمو السكاني ولكن لأسباب اقتصادية تجارية (التراكم والتركز) ولتعظيم أرباح الرأسمالي.(7)

يقول ماركس إن "رأس المال الثابت هذا، منظوراً إليه من وجهة نظر موضوعية، يتعرض لحوادث معينة، ومخاطر في عملية إعادة الإنتاج." رأس المال الثابت يتعرض

"لحوادث معينة" في عملية الإنتاج الأساسية، أثناء تكوين رأس المال العيني الثابت، وليس فقط في عملية إعادة الإنتاج. في الواقع إن الحوادث يمكن أن تقع في مختلف المراحل الإنتاجية بضمنها النقل والخزن والمناولة. هذه المقولة هي ذاتها التي ذكرها ماركس في نقد برنامج غوتا. لكن ماركس هنا ليس معنياً بذلك بل بما تتركه الحوادث من آثار سلبية على عملية التراكم الرأسمالي، عملية إعادة الإنتاج. والحماية التأمينية، كما هو الحال في الاقتصاد الرأسمالي القائم، تدخل كعنصر غير مباشر في الإنتاج من خلال توفير أرصدة نقدية، بمثابة تعويض، للخسائر المادية والمالية التي تتعرض لها وسائل الإنتاج.

ماذا يعني إن "جزءاً من الأرباح، من فائض القيمة وفائض المنتجات، والذي يمثل فقط العمل الجديد المضاف، بقدر ما يخص قيمتها، هو بمثابة صندوق التأمين. في هذه الحالة لا يهم، ما إذا كان هذا الصندوق يدار من قبل شركات تأمين منفصلة أم لا. هذا هو الجزء الوحيد من الإيرادات التي تستهلك كموضوع للاستهلاك بعينه ولايخدم بالضرورة كصندوق للتراكم."

ما يتضمنه هذا القول هو أن الرأسمالي له خيار تكوين صندوق للتأمين، يمول من "الأرباح، من فائض القيمة" لتوفير التعويض لرأس المال الثابت الذي يتعرض للحوادث ويستوجب التصليح أوالاستبدال؛ أو يستخدم مخصصات هذا الصندوق لشراء الحماية التأمينية من شركة تأمين مستقلة.

صندوق التأمين الذي يذكره ماركس هو المعادل لآلية التأمين الذاتي، أو في صورته العصرية هو شركة التأمين المقبوضة. تأسيس هذه الشركات لها أسباب عديدة منها تدوير الأرباح داخل المؤسسة وهي تُشكّل أحد عناصر التكامل ألعامودي للمؤسسة الرأسمالية.

ولا يرى ماركس في صندوق التأمين ما يساهم في التراكم بل يعتبره إنفاقاً استهلاكياً صرفاً. وهو من هذا المنظور يدخل في خانة العناصر "غير المنتجة" في حين أن ضمان إعادة الإنتاج، للإبقاء على ما هو قائم من رأسمال عيني ثابت بعد تعرضه للحوادث، يحتاج إلى تمويل، وصندوق التأمين يقوم بتوفير التمويل.(8) الكلفة المالية للتأمين، في صورته التجارية (شراء الحماية التأمينية من خارج الشركة) أو في وضع رصيد مخصص للحوادث (التأمين الذاتي)، يمكن أن تحتسب مسبقاً. قد لا تكون الأرصدة الداخلية المخصصة لمقابلة كلفة تصليح آثار الحوادث والكوارث الطبيعية كافية وعندها يضطر الرأسمالي إلى تمويل كلفة تصليح أو استبدال رأس المال المتضرر من فائض القيمة (وقد لا يكون هذا كافياً لأنه لم يتحقق كما هو متوقع بسبب الحوادث والكوارث). لو كانت الحماية التأمينية، في صورتها التجارية أو المقبوضة، متوفرة للرأسمالي لكان عندها قد قام بتصليح الأضرار دون إخلال كبير بسيولته النقدية وحافظ على مستوى أرباحه.

ونعرف أن التطور التاريخي للنشاط التأميني يُدل على دوره في الحفاظ على الثروات الرأسمالية وفي توفير أرصدة قابلة للاستثمار في الأصول المادية الثابتة وفي الأوراق المالية وضمن ضوابط للحفاظ على حقوق المؤمن لهم.

وجهة نظر ماركس هو أن صندوق التأمين يمول من الأرباح الناشئة من قيمة العمل الجديد المضاف. وهو يعتبر ما يخصص لصندوق التأمين من الأرباح، من فائض القيمة، استهلاكاً صرفاً ولو أنه يكيّف هذا التخصيص بالقول بأنه "لا يخدم بالضرورة كصندوق للتراكم." يعني هذا أن رؤيته للتأمين ضيقة تنحصر في المساهمة في جبر واستبدال رأس المال الثابت (المكائن والعدد والآلات) عند تعرضها للحوادث وكوارث الطبيعة. مثل هذا التقييم ينطبق على المؤسسة الواحدة التي تخصص صندوقاً للتأمين وآخر للإندثار/الاستهلاك: "ما نستعيض به عن وسائل الإنتاج المستهلكة – كما يقول ماركس – وآخر "لتوسيع الإنتاج."

ونعرف أن لصناديق التأمين دوراً اقتصادياً أوسع يتمثل ليس بمجرد المحافظة على الثروات المادية الوطنية من خلال التعويض عن الأضرار والخسائر التي تلحق بها، وإنما المساهمة من خلال تراكم أقساط التأمين، الفائضة عن مواجهة مصاريف إدارتها ومقابلة الالتزامات التعاقدية أو تلك المفروضة بقوة القانون، في تكوين أرصدة قابلة للاستثمار في أصول مادية جديدة أو أوراق مالية أو في تقديم القروض.

دور صندوق التأمين في جبر الضرر

"في الواقع، يتم تقسيم فائض القيمة التي أوجدها الرأسمالي إلى إيرادات ورأس المال، وهذا يعني تقسيمه إلى مواد للاستهلاك ووسائل إضافية للإنتاج. لكن رأس المال الثابت القديم، والمحول من العام الماضي (خارج الجزء الذي أصابه الضرر وتدمر لذلك الحد، وباختصار، رأس المال الثابت القديم الذي ليس من الضروري إعادة إنتاجه، وبقدر ما كان هناك أي انقطاع في عملية إعادة الإنتاج، فالتأمين يغطي ذلك)، بقدر ما يتعلق بقيمته، لا يعاد إنتاجه من العمل الجديد المضاف." **رأس المال**، المجلد الأول. (VII.XLIX.37)

يبدو أن ماركس يحصر وظيفة التأمين (الممول داخلياً من إيرادات المنشأة أو التأمين الذي أشتراه الرأسمالي من شركة تأمين) في تغطية (تعويض) ذلك الجزء من رأس المال (العيني) الثابت الذي "أصابه الضرر وتدمر لذلك الحد."

وهنا لا يدخل التعويض التأميني حقاً في عملية إعادة الإنتاج إذ أن وظيفة التأمين هي إرجاع الممتلكات، رأس المال الثابت، إلى الوضع الذي كانت عليه قبل تعرضها للحوادث. ولأن التأمين، في جوهره، مشروع تعاوني فإن الحماية التأمينية لا يمكن ولا يجب أن تكون موضوعاً للربح لأن في ذلك إجحاف بحقوق جمهور المؤمن لهم.

درجة الخطورة، أسعار التأمين وأسعار السلع

"هذه المفاهيم تنفع كأساس لحسابات الرأسمالي، على سبيل المثال افتراض أن رأس المال الذي يتم استخدامه ببطء أكثر من غيره، وذلك لأن السلع تتطلب وقتا أطول لإنتاجها، أو لأنه يجب أن تباع في أسواق نائية وينبغي لذلك فرض الربح المفقود بهذه الطريقة وتعويضه عن طريق رفع السعر. وهناك فكرة أخرى هي أن رؤوس الأموال المستثمرة في نشاطات تتعرض لخطر كبير، على سبيل المثال في مجال النقل البحري،

ينبغي تعويضها عن طريق زيادة في الأسعار. وحالما يتطور الإنتاج الرأسمالي، وأعمال التأمين، يتعادل الخطر بالنسبة لجميع مجالات الإنتاج ..، إلا أن رؤوس الأموال المستثمرة في الشركات الأكثر خطورة تضطر لدفع أسعار أعلى للتأمين واستعادتها [أسعار التأمين العالية] ضمن أسعار سلعها. رأس المال، المجلد الثالث. عملية الإنتاج الرأسمالي ككل. (II.XII.16)

تحويل عبء الزيادة في أسعار التأمين على "رؤوس الأموال المستثمرة في الشركات الأكثر خطورة" إلى المستهلك (سواء كان فرداً أو شركة) ظاهرة اقتصادية معروفة. يعنى هذا أن الرأسمالي يلجأ إلى زيادة أسعار منتجاته للتعويض عن أقساط التأمين، العالية، التي يدفعها لقاء حدة الخطورة في رأس المال. وهو إذ يقوم بذلك فمن أجل المحافظة على هامش ربحه باعتباره الخالق للربح في حين أن مصدر هذا الربح بالنسبة لماركس هو فائض القيمة.

يدفعنا هذا إلى القول إن ماركس كان يفرق بين درجات الخطورة في تعرض رؤوس الأموال للمخاطر الطبيعية والحوادث الأخرى المرتبطة بعملية الإنتاج. فأسعار التأمين تعكس حدة الخطر في المال المؤمن عليه أو المسؤوليات المؤمن عليها. وهذه قاعدة تقوم على مبدأ الموازنة بين حدة الخطورة وبين ما تفرزه من أضرار والرصيد التأميني اللازم للتعويض عن هذه الأضرار كي لا تعمل على تقويض الوضع المالي لشركة التأمين أو استنفاذ صندوق التأمين لدى المؤسسة الإنتاجية –وهذا بغض النظر عن طبيعة النظام الاقتصادي.

المتوسطات الحسابية/الاحتمالات في التأمين على الحياة وفي تقدير القيمة الاستعمالية للمكائن

"ينفق عمر أداة من أدوات العمل، في تكرار عدد أكبر أو أقل من عمليات مماثلة. ويمكن مقارنة عمرها مع حياة الإنسان. فكل 24 ساعة يقرب الإنسان من قبره: ولكن كم هي عدد الأيام التي ما زال [الإنسان] يحتاجها للسفر على هذا الطريق، أمرٌ لا يستطيع إنسان أن يحدده بدقة من خلال النظر فقط في وجهه. ومع ذلك فإن هذه الصعوبة لا تمنع مكاتب التأمين على الحياة من وضع استنتاجات دقيقة جداً وفي نفس الوقت مربحة جدا من خلال نظرية المتوسطات.theory of averages وهذا هو الحال مع أدوات العمل. فمن المعروف بالتجربة متوسط مدة استمرار ماكنة من نوع ما في الاشتغال. لنفترض أن القيمة الاستعمالية لها في عملية العمل تستغرق ستة أيام فقط. وعليه، في المتوسط، فإنها تفقد كل يوم سدس قيمتها الاستعمالية، وبالتالي تتخلى [الماكنة] عن سدس قيمتها لما ينتج يوميا. البلى الذي تتعرض له أدوات العمل، وخسارة قيمتها الاستعمالية اليومية، والكمية المقابلة من القيمة التي تفقدها لصالح المنتج تحتسب وفق ذلك."

(**رأس المال**، المجلد الأول، عملية الإنتاج الرأسمالي الجزء الثالث، الفصل الثامن، رأس المال الثابت ورأس المال المتغير. (III.VIII.11)

كما ذكرنا أعلاه فإن ماركس كان مواكباً لاستعمالات نظرية الاحتمالات وقانون الأعداد الكبيرة والمتوسطات. واهتمامه هذا

يفسر المقارنة التي يعقدها بين حياة الإنسان وحياة الماكنة. وها هو هنا يشرح لنا تطبيقاً لنظرية المتوسطات فيما يخص عمر الآلات والمكائن المستخدمة في الإنتاج.

والتعليل الذي يقدمه ينتظم أحد أنواع التأمين، تأمين عطب المكائن. فشركة التأمين تفرق بين المكائن الجديدة والمكائن المستعملة، وتضع شروطاً محددة فيما يخص البلى والاندثار/ الاستهلاك نتيجة الاستعمال، أوعدم الاستعمال، باعتباره من الظواهر الملازمة للاستعمال، وبالتالي يحدد العمر التشغيلي للمكائن. وهذا العمر يتأثر بنمط التشغيل (عدد ساعات التشغيل، وزيادة التشغيل فوق القدرة التصميمية) ومستوى ونوع الصيانة التي تخضع لها المكائن. والغالب أن الاندثار لا يكون موضوعاً للتأمين – أي لا يتم التعويض عنه لأنه يفتقد أحد العناصر المهمة في التأمين وهو الصفة الاحتمالية لوقوع الحادث المسبب للضرر. فكل ما هو مؤكد الوقوع أو يمكن التنبؤ بوقوعه أو نعرف أنه سيحصل، شئنا أم أبينا، كالبلى الذي يحصل تدريجياً فهو حتمي، لايتساوق مع معيار التأمينية insurability أو الاستئمانية.(9)

وبالطبع فإن ماركس هنا ليس معنياً بالتأمين على المكائن بل تناقص القيمة الاستعمالية لها منظوراً إليها كرأسمال مادي ثابت. ولكن في مكان آخر ربط ماركس بين تضرر رأس المال الثابت، ومنه المكائن، وتمويل الضرر اللاحق بها خلال عملية الإنتاج بالقول:

"رأس المال الثابت القديم، والمحول من العام الماضي خارج الجزء الذي أصابه الضرر وتدمر لذلك الحد، وباختصار، رأس المال الثابت القديم الذي ليس من الضروري إعادة إنتاجه، وبقدر ما كان هناك أي انقطاع في عملية إعادة الإنتاج، فالتأمين يغطي ذلك."

لسنا من المتخصصين في الاقتصاد الماركسي ولذلك فإن عرضنا ربما يفتقر إلى الدقة أو الفهم الصحيح لمقولات ماركس، وعليه ننبه على ضرورة قراءة ما كتبناه بدرجة من الحذر القائم على الشك.

لندن تموز 2010

هوامش:

1- رابط النص الأصلي: http://political-economy.com/adam-smith-insurance/

2- بديع أحمد السيفي، الوسيع في التأمين وإعادة التأمين علماً وقانوناً وعملاً، ج **1** (بغداد: د.ن.،2006) **ص** 181، 182

3- اعتمدنا على الموقع الإلكتروني التالي في اقتفاء استخدام التأمين في كتاب رأس المال:
http://www.econlib.org/cgi-bin/searchbooks.pl?searchtype=BookSearch&pgct=1&sortby=R&searchfield=F&grp=AllMarx&id=68&query=insurance+&andor=and#pagelisting

4-اقتبسنا الترجمة من الموقع الإلكتروني:
http://www.marxists.org/arabic/archive/marx/1875-cg index.htm
والترجمة غير موفقة في توصيل المعنى. رابط النص الإنجليزي:
http://www.marxists.org/archive/marx/works/1875/gotha/ch01.htm

5-The Mathematical Manuscripts of Karl Marx, New Park Publications, 280pp. Reviewed by Andy Blunden;Source: Labour Review (WRP), June 1983.
http://webcache.googleusercontent.com/search?q=cache:IjZpP0GThe4J:www.marxists.org/archive/marx/works/1881/mathematical manuscripts/review.htm+marx+and+mathematics&cd=1&hl=en&ct=clnk&gl=uk

6 -A DICTIONARY OF MARXIST THOUGHT, ED BY TOM BOTTOMORE (OXFORD: BASIL BLACKWELL LTD, 2ND ED 1991), P471-472.

7- هناك ارتباك في المناقشات حول إعادة الإنتاج الاقتصادي ويعزى ذلك إلى حقيقة أن علماء الاقتصاد يساوون أو يجمعون بين الإنتاج المادي (الموسع) للسلع والخدمات اللازمة لبقاء البشرية وإعادة الإنتاج (الموسع) لرأس المال. من وجهة نظر ماركس، هناك أربعة جوانب رئيسة لإعادة الإنتاج الاقتصادي:

* إنتاج منتجات قابلة لإعادة الإنتاج للحفاظ على مخزون الموجودات في المجتمع أو الإضافة لهذا المخزون.
* الإبقاء على وإعادة إنتاج الناس القادرين على العمل وعائلاتهم.
* إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية والإبقاء عليها وضمان تطبيقها ولا سيما علاقات الإنتاج التي تميز الهرم الاجتماعي/التراتب الطبقي، وحقوق الملكية.
* إعادة إنتاج العلاقات الاقتصادية الإبقاء عليها.

إعادة الإنتاج الاقتصادي ملازم لجميع الأنظمة.

هذه المعلومات مقتبسة من الإنترنيت.

8- يفترض أن صندوق التأمين يضم أرصدة كافية للتعويض عن خسارة كبيرة تلحق برأس المال الثابت (وفي زماننا خسارة الأرباح أيضاً التي هي موضوع للتأمين التجاري) أو أن الحماية التأمينية التي يشتريها الرأسمالي من شركة التأمين، مقابل قسط للتأمين، واسعة بما يكفي لتمويل خسارة واحدة كبيرة أو عدة خسائر خلال السنة.

9- انظر: جيفري كلارك، "وجهة نظر تاريخية عن التأمينية" مدونة مجلة التأمين العراقي، 2010/6/3

قِمم "مجموعة العشرين" بين ايديولجيا الخطاب وصدمة الواقع ❖

د. صـــالح يـــاســـر

الدكتور صالح ياسر خريج جامعة بغداد عام 1972، وحاصل على درجة الدكتوراه في العلاقات الاقتصادية الدولية من المدرسة المركزية للتخطيط والإحصاء في وارشو /بولندا وذلك في عام 1981. عمل لثلاثة عشر عاما أستاذا للاقتصاد العلاقات الاقتصادية الدولية. كما شارك في العديد من الملتقيات العلمية والسيمينارات المتخصصة. وللدكتور ياسر العشرات من المقالات والأبحاث والدراسات العلمية المنشورة في العديد من المجلات المتخصصة في العراق والعديد من البلدان العربية. كما اصدر عدة كتب من بينها: العلاقات الاقتصادية الدولية. الأبستمولوجيا -الأنطولوجيا -الأكسيولوجيا (2006)، و روزا لوكسمبرغ وإشكاليات التحليل الاقتصادي للرأسمالية (2009).

القمة الاولى لمجموعة العشرين (قمة واشطن)

عُقدت هذه القمة في العاصمة الأمريكية – واشنطن – في 15/تشرين الثاني/نوفمبر 2008 في واشنطن، أي بعد شهرين بالضبط من **اندلاع الازمة المالية العالمية**، وفي عهد ادارة جورج دبليو بوش المتهمة بالمسؤولية المباشرة عن هذه الازمة المالية. ويبدو ان عقد هذه القمة في الولايات المتحدة كان يراد منه اثارة الانتباه الى ان واشنطن تستقبل القمة الاقتصادية، بصفتها زعيمة العالم الرأسمالي، وليس كونها السبب في الانهيار– الازمة!.

تم في هذه القمة مناقشة " اصلاح النظام المالي العالمي " وسبل الخروج من الازمة التي تمر بها اسواق المال وبقية الفروع الاقتصاية كالصناعة والتشغيل والطاقة. وكان الهدف المعلن عنه من وراء عقد هذه القمة، مناقشة جميع الخيارات لانعاش الاقتصاد العالمي لمنع حدوث أزمة مالية مماثلة لتلك التي

ضـربت العـالم خـلال الفتـرة الاخيـرة. واذا دفعنا هذه الصيغة الى نهايتها المنطقية امكننا الاستنتاج انه كان يراد منها الاشارة الى أنها – اي الازمــة – قــد انتهت وأن وظيفــة المجتمعين الحيلولة دون تكرارها، تهرباً من تحمل واشنطن مسؤولية هذه الازمة بشكل أساسي.

هذا مع العلم أن هذه هي المرة الاولى التي تعقد فيها قمة لـ " مجموعة العشرين " التي أنشـأت سنة 1999، وبحضـور قـادة دول ورؤساء حكومات. ويؤكد هذا الحدث، الأهمية المتزايدة للدول الصاعدة، كالصين والهند والبرازيل، على الساحة الدولية، فضلا عن خطورة الأزمة الاقتصادية الحالية، حيث تأثرت معظم اقتصادات وأسواق العالم بشدة من جراء موجة " الاضطراب المالي " الذي فجره انهيار سوق الرهن العقاري في الولايات المتحدة بيد أنها امتدت بعد ذلك إلى كافة أرجاء العالم ولتتحول الى ازمة اقتصادية عالمية.

ولابد من الاشارة الى عمق الازمة وطابعها العالمي واثارها المدمرة ادى الى اختلاف مقاربات الاطراف المشتركة في قمة واشنطن لهذه الازمة.

واولى هذه الخلافات تتعلق بأسباب الازمة. فمثلا ترى الدول الصاعدة انها ليست مسؤولة بأي حال عن هذا الانهيار، لكنها مع ذلك اكتوت بسلسلة تبعات كارثية، لم تنحصر في خسارة أسواقها المالية لمكاسب، كانت متوقعة عام 2008، وفقدان عملاتها نحو ربع قيمتها، بل شملت أيضاً هبوط صادراتها وانسحاب الاستثمار الاجنبي من أسواقها، حيث انخفضت تدفقات رؤوس الاموال الاجنبية اليها من تريليون دولار (الف مليار دولار) في 2008 الى 525 مليار في 2009.

نقطة الخلاف الثانية تتعلق بتوقيت عقد هذه القمة. القت هذه النقطة المزيد من التخمينات والتحليلات، إذ إن المسبب الاساسي في هذه الازمة، النظام الاقتصادي والمالي للولايات المتحدة، لن يكون قادراً على التعاطي بجدية حول سبل حل الازمة، كون الادارة الاميركية كانت في مرحلة انتقالية ستسلم نفسها لرئيس آخر في كانون الثاني 2009، خاصة وأن الرئيس الاميركي المنتخب انذاك (باراك اوباما)، له وجهة نظر حول المسائل الاقتصادية تختلف مع توجهات وسياسات ادارة بوش، الامر الذي لا يمنح الثقة بالمقترحات والمواقف الاميركية التي يمكن أن تتعهد بها إدارة هذا الاخير التي كانت على وشك الرحيل، إذ إن مثل هذه المواقف قد لا تلزم الادارة الجديدة، ما يجعل مثل هذه التعهدات وكأنها لم تكن، الامر الذي يبدد الثقة بالمواقف الاميركية التي كان ما زال يمثلها جورج دبليو بوش، والتعاطي معها دون جدية كافية، ما قد يشجع الاطراف الاخرى على التراجع من قبلها عن مواقف وقرارات امكن اتخاذها في هذه القمة.

النقطة الخلافية الثالثة تتعلق ببنية النظام الرأسمالي نفسه، وكيفية معالجة الازمة التي اندلعت في ايلول/سبتمبر 2008. فقد بيّنت النقاشات التي اندلعت خلال فترة التحضيرات للقمة المذكورة ان هناك تصدعا واضحا – في الدرجة وليس في النوع طبعا– في مواقف الدول الرأسمالية المتطورة، بين الولايات المتحدة والاتحاد الاوروبي تحديداً. فبينما حرصت ادارة بوش على عدم التدخل الواسع في أعمال الموسسات المالية والاقتصادية، ومنحها التغطية المالية الكافية بلا ضمانات مؤكدة،

فإن معظم دول الاتحاد الاوروبي تصر على مزيد من التدخل والرقابة على هذه المؤسسات، وربما العودة بشكل من الاشكال الى رأسمالية الدولة، أو الاقتراب أكثر من هذه الصيغة، من خلال امتلاك الدولة من خلال شراء أسهم أساسية من رأسمال الشركات والمؤسسات الكبرى، لتبرير اخضاعها للسياسات العامة والتحكم برقابتها مباشرة.

وتوصلت الدول العشرون إلى خطة عمل " لتنظيم أسواق المال العالمية بشكل أفضل، واتخاذ خطوات لوقف التراجع الاقتصادي العالمي وإنقاذ الاقتصاد العالمي من الركود ". واتفق القادة على أن تتم هذه الإجراءات لتحسين الأسواق المالية وضبطها قبل يوم 31 من مارس من عام 2009، وأن تعقد قمة أخرى لبحث ما تم إنجازه من خطة العمل في 30 من إبريل 2009 (أي بعد تولى الرئيس الأمريكي المنتخب باراك أوباما مهام منصبه).

ملاحظات حول (قمة واشنطن)

رغم تصريحات قادة ورؤساء الدول المشاركين بالقمة، التي اكدت على "نجاحها وعلى أهميتها باعتبارها خطوة هامة نحو حل الأزمة المالية العالمية " إلا أن كثيراً من المحللين يرون أن نتائج القمة الاقتصادية جاءت مخيبة للآمال، ولم تأت بجديد وخالية من خطوات واستراتيجيات معينة لإنقاذ الاقتصاد العالمي.

ان تحليل الاجراءات التي توصلت اليها (قمة واشنطن) تتيح القول انها لم تكن تريد اتخاذ اجراءات جذرية وانما اعتماد اجراءات لاحتواء الازمة ضمن اطار النظام. وبهذا المعنى فان هذه القمة توصف عموما بانها قمة "بريتون وودز– 2 "وهدفها احتواء الازمة الاقتصادية العالمية و"اصلاح" النظام المالي العالمي، ليكون بديلا للنظام الذي تاسس في "بريتون وودز – 1 " عام 1944. بهذا المعنى يمكننا القول ان قادة قمة العشرين – بما اتخذوه من اجراءات – انما وضعوا قواعد منظمة لنسخة جديدة من الراسمالية بعد انهيار نسختها النيوليبرالية (1).

بهذا المعنى ايضا فان الداعين الى "بريتون وودز – 2 " لا يسعون الى نظام عالمي جديد بل الى انقاذ الراسمالية والنظام الذي اسسته في "بريتون وودز – 1 " وتعزيز صندوق النقد والبنك الدوليين ومنظمة التجارة العالمية عن طريق توفير الية للرقابة على الاحتكارات تضبط انفلاتها وجموحها. وما يثير الانتباه ان الداعين لنظام "بريتون وودز– 2 "يحملون المسؤولية عنها للنيوليبرالية التي تبناها المحافظون الجدد في البيت الابيض الاميركي الذين تعودوا ترديد عبارتهم المشهورة القائلة ان الازمة "من صنع الانسان"، وليس ازمة بنيوية للنظام نفسه. ويضيفون انه اذا كان هناك فشل في النظام فانه فشل "الراسمالية على النمط الاميركي"، وليس فشل الراسمالية بشكل عام، وان "شطط " الليبراليين الجدد الاميركيين كان "جنونا" و "خيانة للراسمالية"، وان علاج هذه الازمة الراسمالية يكون فقط بالمزيد من الراسمالية!

ولهذا لوحظ ان مناقشات القمة شهدت تباينا – على مستوى الشكل – في النظر الى الازمة وحلولها. ففي حين دعا الرئيس الامريكي في حينه (بوش) إلى إدخال تعديلات طفيفة على القواعد المالية العالمية من دون وضع أي حواجز أمام التجارة، أعلن الرئيس الفرنسي (ساركوزي) أن سياسة "الرأسمالية المتفلتة انتهت" مع المصارف التي ترزح تحت رهونات عقارية متعثرة اضطرتها إلى طلب المساعدة

من الحكومات.

الفكرة الجوهرية إذن لمهندسي قمة العشرين في واشنطن كانت تستند بالاساس على " تجديد " النظام السائد، لا استبداله، مما يكشف اصرارا من المستفيدين من هذا النظام على استمراره ومنع انهياره بتجديده وتحصينه ضد "سلبياته " التي فجرت الازمة الحالية لكي لا تتكرر وبالتالي اصرارا على منع قيام نظام بديل وعلى اجهاض اية دعوات ومبادرات دولية متزايدة لا تحض في الاصل على هدم النظام القائم بل تدعو فقط الى شراكة فيه تنهي الاحادية القطبية واحتكارها لصنع القرار الاقتصادي والمالي والسياسي.

القمة الثانية لمجموعة العشرين (قمة لندن)

كما معلوم عقدت مجموعة العشرين قمتها الثانية في لندن في 2 نيسان/ابريل 2009. وتمثلت اهداف هذه القمة بحسب الوثائق التي صدرت عنها في (2):

– استعادة الثقة والنمو والوظائف؛

– إصلاح النظام المالي لاستعادة عملية الإقراض؛

– تعزيز التنظيمات المالية لإعادة بناء الثقة؛

– تمويل المؤسسات المالية الدولية وإصلاحها لتجاوز هذه الأزمة والحؤول دون وقوع أزمات في المستقبل؛

– ترويج التجارة والاستثمار العالميين ورفض الحمائية، من أجل تعزيز الازدهار؛

– تحقيق معافاة شاملة ومراعية للبيئة ومستدامة.

واكدت القمة على ان تحقيق هذه الاهداف يتطلب اتخاذ مجموعة من الاجراءات اهمها:

– مضاعفة الموارد المتوافرة لصندوق النقد الدولي ثلاث مرات لتصل إلى 750 مليار دولار، ودعم مخصص جديد لحقوق السحب الخاصة تصل قيمته إلى250 مليار دولار لتعزيز القدرة الائتمانية للصندوق.

– تخصيص مئة مليار دولار على الأقل لدعم الإقراض الإضافي من المصارف التنموية المتعددة الاطرف.

– توفير 250 مليار دولار لتمويل التجارة، واستعمال الموارد الإضافية التي يتم الحصول عليها من المبيعات المتفق عليها من الذهب الذي يملكه صندوق النقد الدولي بهدف توفير التمويل بشروط امتيازية للبلدان الأشد فقراً في العالم.

– تخصيص 250 مليار دولار لتمويل التجارة العالمية على مدى عامين بهدف زيادة حجمها.

– تشكّل برنامج دعم إضافياً بقيمة 1.1 تريليون دولار لاستعادة الائتمان والنمو والوظائف في الاقتصاد العالمي. ويشكّل هذا البرنامج، إلى جانب الإجراءات التي اتخذها كل بلد، خطة عالمية للمعافاة على نطاق غير مسبوق.

كما صدر عن القمة إعلان بعنوان:" تعزيز النظام المالي "، تم فيه التاكيد بشكل خاص على ما يلي (3):

– إنشاء هيئة جديدة للاستقرار المالي ذات تفويض معزّز، كي تخلف (منتدى الاستقرار المالي)، على أن تضم بلدان مجموعة العشرين كافة وأعضاء منتدى الاستقرار المالي وإسبانيا والمفوضية الأوروبية؛

– إرساء تعاون بين هيئة الاستقرار المالي وصندوق النقد الدولي لإطلاق تحذير مبكر عن المخاطر المالية التي يواجهها الاقتصاد الكلي، وتحديد الخطوات المطلوبة لمعالجتها؛

– إعادة صوغ تنظيماتنا كي تتمكّن سلطاتنا من تحديد مخاطر الحيطة المالية الكلية؛ تطبيق

التنظيمات والإشراف على كل المؤسسات والأدوات والأسواق المهمة للمنظومة ككل. وسوف يشمل ذلك، للمرة الأولى، صناديق التحوط المهمة للمنظومة.

– إقرار المبادئ الصارمة الجديدة لمنتدى الاستقرار الاقتصادي حول الأجر والتعويض وتطبيقها، ودعم خطط التعويض المستدامة والمسؤولية الاجتماعية المشتركة لكل الشركات؛

– اتخاذ إجراءات ضد الكيانات غير المتعاونة بما في ذلك الملاذات الضريبية. واعلن الاعلان ان البلدان مستعدة لفرض عقوبات من أجل حماية الاموال العامة والانظمة المالية؛

– دعوة واضعي المعايير المحاسبية إلى العمل بصورة طارئة مع المشرفين والمنظّمين لتحسين معايير التخمين والشروط، ووضع مجموعة واحدة من المعايير المحاسبية العالمية ذات النوعية العالية؛

– تطبيق الإشراف التنظيمي ووجوب التسجيّل على وكالات التصنيف الائتماني حرصاً على تلبيتها للمدوّنة الدولية عن حسن الممارسة، وفي شكل خاص لمنع التضارب غير المقبول للمصالح.

ملاحظات حول قمة العشرين (لندن/ ابريل 2009)

ان قراءة ظاهرية لوثائق القمة تتيح الاستنتاج ان مهندسيها متفائلون بشكل عام. يبقى السؤال المطلوب طرحه عن مسوغات هذا التفاؤل إذا وضعت القمة ونتائجها تحت مجهر أوسع نطاقا، أي بما يتجاوز حدود المشاركين فيها، وهم (عدا مفوضية الاتحاد الأوروبي) حكومات 19 دولة يقطنها أكثر من ثلثي سكان العالم (أكثر من 4 مليارات نسمة، نصفهم في الصين والهند) وتملك زهاء 90%من إنجازاته الاقتصادية، بينما يبقى خارج هذا الإطار زهاء ثلث سكان العالم (أكثر من مليارى نسمة) في أكثر من 180 دولة، يبلغ حجم إنجازاتها الاقتصادية زهاء 10%.

نحتاج اذن الى مقاربة اخرى في تقويم الحصيلة الإجمالية للقمة، يتم التركيز فيها على الملاحظات التالية:

– الحديث العام عن 19 دولة صناعية وناهضة لا يصح دون الإشارة إلى أن من يتحكم بالإنجازات فيها عبر "أداة المال" لا يمثل المليارات الأربعة من السكان، بل ما لا يصل إلى 10%منهم قطعا، والباقي فئات فقيرة ومهمشة تمثل إجماليا النصف أو أكثر، ثم "الطبقات الوسطى" التي تحمل الإنجازات على عاتقها، وحجمها مختلف بين دولة وأخرى.

– لا بد من ملاحظة أن القمة تناولت – وفق العنوان المقرر لها– إصلاح النظام المالي العالمي، وكلمة "إصلاح" التي صاغها مهندسو القمة دقيقة المعنى، فليس فيها ما يعني "تعديل" او "تغيير" النظام المذكور، وإنما اقصى ما يطلبه قادة القمة هو اتخاذ إجراءات وتثبيت آليات إضافية ليخرج النظام من " عثرته " الخطيرة الحالية، ويعود إلى سابق عهده، ولا يتعثر في مرة تالية. ودفع هذه الكلمة: " تعديل " الى نهايتها المنطقية يتيح القول انه إذا كان الخلل كامنا في جذور هذا النظام القائم منذ الحرب العالمية الثانية، ولم يطرأ عليه سوى تعديل طفيف في سبعينيات القرن العشرين، فإن هذا الخلل لم يكن موضع البحث، بل لا يراه المشاركون في القمة خللا، إنما رأوا الخلل في "خروج" التطبيقات العملية على القواعد الأساسية

المثبتة من قبل، وبالتالي فهم يعملون على وضع ما يكفل عدم خروجها على تلك القواعد مجددا.

لابد في تقويم الحصيلة أيضا من خلال ملاحظة أن الأزمة على صعيد العلاقات والممارسات المالية بدأت بالفعل تتحول إلى أزمة على صعيد العلاقات والممارسات الاقتصادية والتجارية، فأصبحت تهدد ما يوصف بالقيمة العينية للإنجازات الاقتصادية بالخطر. فمثلا لم تعد مشكلة قطاع السيارات في البلدان الصناعية مثلا مقتصرة على عدم الحصول على قروض من المصارف المالية، بل أصبحت تشمل انخفاض مستويات التصريف، وبالتالي خفض مستوى الإنتاج، مع ما يترتب على ذلك من خسارة للعائدات على مستوى الدولة الصناعية المنتجة، ومن ارتفاع معدلات البطالة فيها، ووصول الأخطار إلى مزيد من القطاعات الاقتصادية ذات العلاقة بصناعة السيارات. وجميع ذلك لا يرتبط بالنظام المالي العالمي بل يرتبط بالنظام "الاقتصادي" العالمي القائم على الرأسمالية، الموصوفة بالسوق الحرة، وهذا ما لم يكن أصلا موضع البحث في قمة العشرين.

وفيما يخص البلدان النامية فان العبارات الواردة في إعلان قمة العشرين تحمل صياغة غامضة شبيهة بصياغة عبارات مشابهة في قمم عالمية ماضية، كالحديث عن "دعم الدول النامية التي تنوء تحت ثقل الأزمة المالية" دون تحديد شكل الدعم ومواطنه، ولا التنويه بالمطالب التقليدية للدول النامية، كفتح اسواق الدول الصناعية أمام منتجات الدول النامية، والتخلص من أسباب حجر وصول التقنيات الحديثة إليها.

النتيجة المستخلصة اذن من هذه القراءة المكثفة لبنود الاعلان الذي صادقت عليه قمة العشرين، هي هيمنة المال في صيغة " الإصلاح" الذي دعت اليه. فمثلا حدد البيان الصادر عن القمة أسباب الأزمة تكمن في مبالغة بعض المصارف والمؤسسات المالية في السعي للربح، والاستعداد للمخاطرة، ونشر "منتجات مالية" محاطة بالغموض، مع لوم حكومات بعض البلدان الصناعية كونها تأخرت في وضع أنظمة مناسبة للأسواق المالية (أي تبرئة المبادئ والقواعد، وحصر السبب في التطبيقات، وفي عدم الالتفات إلى مخالفاتها).

ولهذا فان قراءة مركبة لما صدر عن (قمة لندن) تتيح الاستنتاج ان جميع المحاور والبنود تتلاقى على قاسم مشترك واحد هو تمكين النظام المالي العالمي القائم، وهو نظام راسمالي طبعا، من الوقوف على قدميه مجددا بعد أن أصابته الازمة الاخيرة إصابة بالغة، وهو في الأصل النظام الذي اعتمد ويعتمد على تراكم الثروات المالية في أيدي نسبة ضئيلة تسيطر على التصرف بها، استثمارا وإقراضا وتشغيلا لعجلة الإنتاج بهدف زيادتها، أي زيادة الثروات ضغطا على تكاليف الإنتاج كالأجور وأسعار المواد الخام، لتحقيق أرباح مرتفعة.

وما يثير الانتباه ان إعلان قمة العشرين هذا، والقمة الذي سبقته، يحصر أسباب الأزمة المالية العالمية في نطاق "تصرفات خاطئة" من جانب مسئولين في مصارف ومؤسسات مالية، ولا يتعرض لوجود خطأ أو احتمال وجوده في صلب "قواعد اللعبة" في النهج الرأسمالي، وهي التي تسمح بتلك التصرفات الخاطئة ابتداء.

بتعبير آخر، فان عملية " الإصلاح " لا تتخلى عن القضية التي هي في صلب النظام ذاته، وفحواها تحوّل الاموال من أداة للتعامل

في تبادل السلع والخدمات، إلى غاية بحد ذاتها، فأصبح من يمتلكها يتحكّم في عالم السلع والخدمات كأدوات لزيادة ثروته، وبالتالي في عالم البشر الذين ينتجون ويستهلكون تلك السلع والخدمات.

القمة الثالثة لمجموعة العشرين (قمة بيتسبيرج)

عقدت القمة الثالثة لمجموعة العشرين في أيلول (سبتمبر) من عام 2009 في مدينة (**بيتسبيرج**) في ولاية بنسيلفانيا الأمريكية، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يرأس فيها الرئيس الأمريكي (باراك أوباما) قمة مجموعة العشرين.

ركزت هذه القمة، كما جاء في وثائقها، على مسألة تشديد البنوك المركزية الرقابة على المؤسسات المالية بجميع أنواعها. وكان من بين الملفات الساخنة المطروحة أمام القادة هو تحدي تعافي الاقتصاد العالمي بصورة دائمة من تداعيات الأزمة المالية، فضلا عن ضمان إصلاح القطاع المالي العالمي في فترة زمنية متوسطة من جملة الأمور. كما ناقش القادة المبادرات التي طرحها الرئيس الفرنسي (نيكولاي ساركوزي) بخصوص وضع سقف لمكافآت مديري البنوك وربط المكافآت بأداء المؤسسات على المدى الطويل.

لقد انعقدت (قمة بيتسبيرغ) وسط تجاذبات وخلافات حول قضايا جوهرية لإصلاح النظام المالي العالمي بين الأمريكيين وحلفائهم البريطانيين من جهة وبين الأوروبيين بقيادة فرنسا وألمانيا من جهة أخرى. أما دول مجموعة العشرين الأخرى فكان لها متطلباتها التي لم تحصل منها إلا على القليل.

فالولايات المتحدة الأمريكية عارضت وبشدة إحداث تغييرات جذرية على النظام الرأسمالي منذ أيام الرئيس السابق (جورج دبليو بوش)، واستمرت سياساتها المعارضة حتى بعد تولي الرئيس الحالي (باراك أوباما) الذي نادى بالإصلاح. فهي تعارض وبشدة أية إجراءات من شأنها أن تقلل من الدور الأمريكي في الشأن لاسيما التقليل من الولايات المتحدة في المنظمات المالية والنقدية الدولية كصندوق النقد الدولي. كما تعارض وبشدة إحلال عملة عالمية موحدة بدلاً من الدولار الذي تطبعه بثمن بخس في مطابعها وتعيد نشره في العالم بلا غطاء من الذهب. كما تحاول الولايات المتحدة وبكل الطرق التقليل من جموح الاقتصاديات الصاعدة لاسيما من قبل الصين وروسيا والبرازيل والهند، نظراً لأن أمريكا تعاني من عجز في ميزانها التجاري منذ زمن بعيد نتيجة اعتماد مستهلكيها على السلع من تلك الدول بشكل أساسي والتي تتسم بانخفاض السعر مقارنة بالسلع الأمريكية.

ماذا حققت الولايات المتحدة وبريطانيا من القمة؟ ان متابعة ما صدر عن **قمة بيتسبيرج** تتيح تأشير واقع ان **الولايات المتحدة** حققت القضايا التالية:

- لم توافق القمة على إحداث أي تغيير جذري على النظام الرأسمالي ولم تتطرق لهذا التغيير قط لانه اصلا غير مطروح على جدول الاعمال الحالي.
- أجهضت كل مشروعات استبدال الدولار بأية عملة عالمية أخرى قبل انعقاد أية قمة دولية.
- وافقت على إصلاح صندوق النقد الدولي بطريقة تضمن لها السيادة فيه.
- حصلت على قرار بإعادة التوازن في الاقتصاد العالمي بحيث لايكون المستهلك

الأمـريكي مـركزاً فـيه، في خطوة للحـد من الاقتحام الصيني لأسواقها.

– قللت من شـأن قـرار مكافـآت المديـرين واكتفت بوضع ضوابط له من خلال القمة.

اما **بـريطانيـا** ونظرا لكونهـا حليف الـولايـات المتحـدة الأول في أوروبـا، فقـد حصلت على كل ما يتوافق معها ومع أمريكا من خلال القمة.

وفيمـا يخص دول **الاتحـاد الأوروبي** فـانها طالبت منذ بدايات الأزمة بإجراء إصـلاحات علـى النظام المالي، حيث طالبت بـوضع " ضـوابط صـارمـة " لمكافـآت كبار المديرين. كما عارضـت وبشكل مؤقت إصدار عملـة بديلـة عن الدولار، ليس حباً في أمـريكا بل مـن اجل أن يـصبـح اليـورو هـو العمـلـة العـالمية البـديلـة للـدولار لكن بعـد أن يـصبح اليورو مـؤهلاً لـذلك. ومن جـهة اخـرى سعت هذه المجموعـة للتقليل من شـأن الاقـتصاديات الناشئة التي تغزو منتجاتها الرخيصة أسواق الاتحاد الأوروبي وتنافس السلع المحلية. كما سـعت دائماً إلى عـدم المساس بمكـانة أعضاء الاتحاد في المؤسسات الدولية.

وارتبـاطـا بـالملاحظات اعلاه ثمـة سـؤال يطـرح نفـسه: مـــاذا حققت دول الاتحـاد الأوروبي من قمـة بيتسبيـرج ؟ للاجابـة على هذا السؤال يمكن قول التالي:

– ان هذه الـدول لم تفلح في إجـراء تغيـيرات جدية على النظام المالي الرأسمالي.

– لم تفلح في تمـرير كل متطلباتها حول ضبط مكافآت كبار المديرين.

– كسبت من بقاء الدولار عـملة عالمية موحدة أملاً في أن لايكـون للصـين وروسيـا الاتحادية دور فيها، وأملا في أن يكون اليورو هو العملة العالمية بعد ضعف أكبر للدولار.

– حصـلت علـى قـرار بـإعـادة التـوازن في الاقتصاد العـالمي للحد من الاقـتحام الصيني لأسواقها.

– قـد تخسـر جزءاً مـن سيادتهـا في صندوق النقد الـدولي لصالح الدول الـناشئة مع إعادة الهيكلة الجديدة لمساهمات الصندوق.

ومن جهتها فـان الدول الصاعدة – الصين وروسيا والهند والبرازيل فقد طـالبت وبشكل متكرر بإنهاء الهيمنة الأمريكية على الاقتصاد العالمـي، كما طالـبت بوجود عـملة عالميـة بديلة عن الـدولار. وكـافحـت من أجل الإبقـاء علـى منتجاتهـا سائدة في الأسواق العـالمية لاسيما الأوروبية والأمـريكية، وطالبت بحصص ونفوذ أكبر في هيكلة صندوق النقد الدولي.

وارتـباطا بـذلك ماذا حققت هـذه الدول من القمة؟ الاجـابة علـى هذا الـسؤال تـتيح القول مايلي:

– لـم تفلح هـذه البلـدان في إنهـاء الهيمنـة الأمريكيـة على الاقتصـاد العالمي فهـذه عملية طويلة.

– كمـا لم تفلح في إيجـاد عملـة بديلـة للدولار الأمريكي.

– صدر قرار عن القمـة بـ " إعادة التوازن في الاقـتصـاد العـالمي " والهـدف منه الحـد من جموح صادراتها إلى الدول الغربية.

– قـد يحـصل بعـض منهـا علـى القليل من الـنفوذ في صـندوق الـنقد الـدولي بعـد إعادة الهيكلة.

امـا بقيـة الدول المشاركـة في القمة فـانه ونظرا لعدم وضوح اهـدافها وبالـتالي لم تكن لها مطـالب واضحـة المعالـم لذا يصعب الحكم على ما حققته من خلال القمة.

وبغض النظر عن ما حصلت عليه الاطراف المشاركة في هذه القمة، يبدو أن الرابح الأكبر كـان صندوق النقـد الدولي الـذي خرج بشكل أقوى ممـا كان عليـه نتيجـة إيكـال القمـة إليه

مهمة مراقبة اختلالات التوازن وتقديم توصيات للسياسة الاقتصادية إلى الدول التي سيتعين عليها اتخاذ " تدابير تصحيحية "متلائمة مع الوضع. وبما ان الصندوق المذكور هو احد القوى المسؤولة عن الازمة الاقتصادية العالمية الراهنة فانه لا ينبغي توقع حصول تقدم قريب في مسار الازمة. لذا فان الحلول المطروحة ستظل تدور في سياق النظام الراسمالي وليس خارجه. فايكال مهمة " مراقبة اختلال التوازن " الى صندوق النقد الدولي تعني ان قادة قمة بيتسبيرج لا يعترفون بان الاقتصاد العالمي يعاني من ازمة عميقة بل من مجرد " اختلالات " في التوازن لا بد من اصلاحها من خلال تشديد الضبط المالي!.

القمة الرابعة لمجموعة العشرين (قمة تورنتو)

انعقدت هذه القمة في العاصمة الكندية (تورنتو) بين25 و27 من من شهر يوليو/ تموز 2010. وما ميّز هذه القمة هو انقسام القوى العالمية الكبرى على نفسها بشأن " كيفية الحفاظ على قوة الدفع " التي حظي بها الاقتصاد العالمي، وسبل منع تعرض النظام المالي العالمي لازمة أخرى. فقد توجه قادة مجموعة الدول الصناعية والاقتصاديات الصاعدة العشرين إلى قمة تورنتو وهم يحملون أولويات مختلفة بشأن الدين الحكومي وحزم التحفيز والإصلاحات المالية...الخ.

فمثلا كانت الولايات المتحدة تعول على القمة لتعزيز انتعاش اقتصادها بوصفه السبيل إلى التغلب على تحدي البطالة والركود المستعصي الذي ورثته عن الازمة المالية والاقتصادية الاخيرة. واعترف وزير الخزانة الأميركي (تيموتي غايثنز) وكبير المستشارين الاقتصاديين للبيت الأبيض (لاري سَمرز) في " بيان - رأي مشترك " بعنوان: "**جدول أعمالنا لمجموعة العشرين** "، بأن الاقتصاد الأميركي "ما يزال يواجه تحديات ضخمة ويحتاج إلى نمو عالمي متوازن ومستدام ليحافظ على زخم انتعاشه". وانتقد غايثنر وسمرز الموازنات الأوروبية التقشفية باعتبارها مصدر تهديد لهدف النمو العالمي المتوازن والمستدام. وشددا على الحاجة إلى تسريع جهود إنشاء إطار دولي للإصلاح المالي.

في حين تمضي **اقتصاديات القوى الصاعدة** مثل الصين والهند والبرازيل قدما وتحقق نموا بصورة ملحوظة، مظهرة علامات ضعيفة من التأثر جراء أزمة الائتمان العالمية دفعت العالم إلى ركود في العام الماضي.

أما أوروبا فتكافح في ظل نمو بطيء يتضاعف بسبب أزمة الديون الجارية علما ان دول الاتحاد الأوروبي بدأت بالفعل في تطبيق سياسة انكماشية تقشفية.

وبالمقابل هناك **خلاف** بين الولايات المتحدة واوربا ويتعلق بمستقبل الضرائب على أعمال المصارف. ففي الوقت الذي يعتقد فيه الجانب الأوروبي بضرورة فرض الرسوم على المصارف لمعالجة العجز المالي الحكومي، ترى الولايات المتحدة أن تحميل البنوك المزيد من الأعباء سيتسبب بخفض الانفاق الاستهلاكي الضروري لانعاش النمو.

وقد عبّر وزير الخارجية الألماني، (ولفغانغ شوبل)، عن هذا الاختلاف بوجهات النظر بالقول: " *المشرعون في الولايات المتحدة يريدون التركيز على الاصلاحات القصيرة الأمد، بينما نركز نحن على الخطوات الطويلة الأمد، لهذا نحاول التعامل مع مخاطر الديون*

الحكومية وارتفاع التضخم ".

إنها إذن معركة وصراع بين سياستين اقتصاديتين في اطار النسق الراسمالي العالمي، الأولى تؤيد " تحريض الطلب وتنشيط الاقتصاد عبر دعم الدولة في هذه المرحلة " (تمثلها واشنطن) والثانية تؤيد اتباع سياسات تقشف لتقليص العجوزات (تمثلها باريس ولندن وبرلين).

لقد احدثت هذه المسارات المتباينة اختلافات حادة بشأن ما يتعين فعله على الساحة الدولية. فقد قال الرئيس الأمريكي (باراك أوباما) في خطاب إلى نظرائه من قادة مجموعة العشرين في تورنتو إن الدول ستشكل خطرا على الانتعاش العالمي إذا خفضت الإنفاق العام. وأضاف "*يجب أن تتمثل أولويتنا القصوى في تورنتو في حماية وتعزيز الانتعاش... بذلنا جهدا استثنائيا لاستعادة النمو، ولا يمكننا تركه يتداعى أو يفقد قوته الآن*".

ومن جهة اخرى فقد اشار البيان الختامي لقمة مجموعة العشرين في تورنتو على ان "*الأولوية الأبرز لمجموعة العشرين هي حماية وتعزيز الانتعاش الاقتصادي بالإضافة إلى إرساء أسس نمو قوي ومستديم ومتوازن وتحصين أنظمتنا المالية ضد المخاطر*".

وجدد قادة القمة التاكيد على انه ولمدة ثلاث سنوات وحتى نهاية العام 2013 تتعهد بلدان المجموعة بالامتناع عن زيادة العقبات امام الاستثمار وتجارة الأموال والخدمات وعن اقامة اخرى جديدة او فرض قيود جديدة على التصدير او تطبيق اجراءات تحفيز للصادرات تتعارض مع قواعد منظمة التجارة العالمية، واذا طرأت مثل هذه الاجراءات " فسيتم تصحيح المسار".

الخلاصة ان قمة مجموعة العشرين انهت اجتماعاتها في تورنتو من دون أن تنهي خلافاتها حول سياستي التقشف وزيادة الإنفاق والاستهلاك. فمن جهة، الولايات المتحدة الأميركية رفعت شعار "إنعاش الاقتصاد العالمي"، وكانت تضغط باتجاه الزيادة في الإنفاق الحكومي، والزيادة في الاستهلاك لتحفيز النمو الاقتصادي، ومن جهة أخرى كان الاتحاد الأوروبي يدافع عن سياسة التقشف وربط الأحزمة. فاوربا تعاني من أزمات مالية واقتصادية، وعجزٍ في موازنات معظم دولها، وجاءت أزمة اليونان وتدني سعر اليورو لتزيد من تفاقم الأزمة الاقتصادية في هذه الدول.

وخلافاً للتوقعات، لم تنجح قمة تورنتو في تحقيق النتائج المرجوة منها، فما ميّزها هو عدم اتخاذ قرارات ملزمة، بل لجأ القادة إلى إفساح المجال أمام كل دولة في معالجة التحديات التي تواجهها، لكن في حدود أربعة مبادئ هي (4):

– إطار متين للتشريع عن طريق تعزيز البنية التحتية لأسواق المال.

– مراقبة فاعلة على أداء المؤسسات المالية.

– معالجة مسألة المؤسسات المالية التي تعاني ظروفاً مالية صعبة، لكن ليس على حساب دافعي الضرائب.

– تبني قيم الشفافية الدولية.

وختاما ثمة سؤال يطرح نفسه وهو: ماذا لو دخلت أوروبا والولايات المتحدة مرحلة طويلة الأمد من التكيف المالي في حين استمرت البلدان الناشئة على مسارها الحالي؟ وماذا لو اتسعت شقة التباين بين "الشمال " و "الجنوب" في إطار مجموعة العشرين؟

يتيح العرض المكثف لما اتخذته القمم الاربع من قرارات واجراءات، وما طرحته من

مبادرات، بلورة الخلاصات التالية:

● يبدو ان الاجراءات التي طرحتها القمم الاربع، بهذه الصبغة او تلك، يجمعها هدف مشترك هو انها تهدف الى " تهدئة " الاسواق المالية، والتخفيف من الهلع الذي اصاب المتعاملين وغير المتعاملين ايضا، وذلك من اجل اعادة الثقة الى النظام المالي والمصرفي الراسمالي، مع عدم المساس بالاسس التي يقوم عليها الاقتصاد الحر.

● ان مركز الثقل في القرار الاقتصادي، لم يعد يتمثل في الاستحواذ على على فائض القيمة الناتج عن عمليات الانتاج فقط، وانما اعادة توزيع الارباح الناتجة من المشتقات للاستثمارات المالية. وهذا ما يمثل جوهر استراتيجية المجموعات الاحتكارية التي تستهدف الاستحواذ على الربح الاحتكاري الناجم عن الاستثمارات المالية؛ مما نجم عنه تلك الفقاعات المالية التي تعبر عن منطلق التوظيفات المالية ذاتها.

● بغض النظر عن التباين في مواقف الادارة الامريكية في عهد بوش وعهد اوباما، الا ان الموقف الاستراتيجي للادارة الامريكية (في الحقبتين) كان واضحا وثابتا ويتمثل في الابتعاد عن المعالجة الجذرية للازمة من جهة، والاتجاه الثابت للادارة الى تحميل الاخرين وزر سياساتها التي قادت الى الازمة.

● وبما ان القرارات المتخذة في هذا القمم تاتي محصلة لتوازن القوى السائد فيها وهو في الواقع يميل بشكل صارخ لصالح هيمنة البلدان الراسمالية المتقدمة، فانه يمكن القول ان الهدف المركزي للبرامج التي اقرتها القمم الاربع هو ليس التوصل لحلول جذرية للازمة بل اعادة انتاج العلاقات الراسمالية، على الصعيدين المحلي والعالمي. وهذا يعني انه يتعين على العالم ان يظل منتظرا الاسوأ في قادم الايام، ما دامت المعالجات لا تتجه الى اصل المشكلة (5).

2010/10/15

* مبحث من دراسة اوسع حول الاقتصاد السياسي للازمات الاقتصادية في الراسمالية المعاصرة.

الهوامش

(1) قارن: نقولا ناصر، خواطر متمردة حول قمة العشرين في واشنطن، مقالة منشورة على الانترنيت على الرابط التالي : http://www.aleshteraki.net/articles.php?lng=arabic&id=1017

(2)نشرت جريدة النهار ترجمة للبيان الختامي اعدته نسرين ناظر. انظر: http://www.alsafahat.net/blog/?p=10869

(3) قارن: لمزيد من التفاصيل حول هذه القمة قارن: نبيل بوفليح، دور صناديق الثروة السيادية في معالجة الازمة المالية والاقتصادية العالمية، بحوث اقتصادية عربية، العددان 48 –49/خريف – 2009شتاء 2010، ص 98 – 99 ؛ كذلك: علّة مراد، الازمة المالية العالمية ... تأمل ومراجعة، بحوث اقتصادية عربية، العددان 48 –49/خريف – 2009شتاء 2010، ص25 – 26.

(4) د.جاسم حسين، نتائج باهتة لقمة العشرين في كندا، http://www.alrroya.com/node/84323

(5)قارن: منير الحمش، السياسات الاقتصادية الكلية في ظل الازمة العالمية الراهنة، بحوث اقتصادية عربية، العدد 47/صيف 2009، ص 21–22.

العولمة والإرهاب والإعلام..
سلطة الحدث وصناعة الحقيقة

عبد الستار جبر/مدير تحرير مجلة الاقلام

لم يعد الإعلام يبحث عن الحقيقة، بل بات يصنعها، وللدقة، يصنع حقائق متعددة ومختلفة، أكثر من نسخة للحقيقة، ولا أدري إن كان هذا سيصيب المؤرخين بالحيرة، ويضعهم أمام تراكم متفاقم للحقائق المتباينة التي تتفاوت بتفاوت وسائل الإعلام وتوجهاتها الآيديولوجية، فيعانون مما يمكن تسميته في هذه الحالة بـ (دوار الحقائق الإعلامية)، أم أنهم سيكونون سعداء بهذا الكم المتكاثر الذي سيغني كتاباتهم التاريخية ويثري مصادرهم، ليمنحونا بدورهم متاهات تاريخية، أقصد مدونات تاريخية مليئة بالحقائق الكثيرة (متناقضة، متعارضة، مختلفة، متشابهة، ... الخ)، وهذا ما يتيح لنا حرية إختيار الحقائق التي تناسبنا، سيكون بوسع أي منا إختيار الحقيقة التي يرغب بها، وليس ما يفترض أن تكون ثمة حقيقة واحدة وحيدة، تفرض نفسها على الجميع.

لم تعد حياة الحقيقة تتوقف على صدقها المنطقي، أو على مدى مطابقتها للواقع، وإستنادها الى الحدث الذي تستمد منه كينونتها وصيرورتها، إنما على السلطة التي تروج لها(1)، وهذه السلطة الآن هي الإعلام، هذه الماكنة الهائلة التي تحولت مهمتها من نقل الواقع ومتابعة الأحداث إلى إعادة إنتاج الواقع، وصناعة الحدث، وصياغة الأفكار، وتوجيه الآراء، ومع سيل الصور الذي يغرقنا، مما تبثه وسائل الإعلام التي تتناسل وتتشابك بشكل يفوق السيطرة عليه(2)، تتغير تمثلاتنا وحساسيتنا للواقع، لما يحيط بنا، هذا إن لم تزجنا في واقع بديل، آخر، إفتراضي، تخلقه ماكنتها الصورية والآيديولوجية، تسحبنا إليه بقوة تفقدنا السيطرة على حريتنا وإرادتنا، ذلك إنها تساهم في تنميط رؤيتنا إلى العالم، وقولبة إنطباعاتنا عن الأفراد والجماعات والدول والأنظمة والشعوب. لقد باتت مسؤولة عن

تشكيل صورنا الذهنية عن أشياء كثيرة، إن لم يكن عن كل شيء. من منا يستطيع أن ينكر أو يتجاهل أن من يقود الرأي العام الآن هو الإعلام؟، بقدرته المتعاظمة التي تتسلل وتتسرب إلى العقول والمشاعر لتؤثر وتحرك وتوجه الآراء والمواقف والعواطف، حتى لقد بات يمكن القول أن "الناس على دين إعلامهم"، بعد أن كان يقال أنهم على دين ملوكهم.

إن الطفرة الإعلامية التي أتاحها التطور التقني في صناعة الصور الألكترونية في القرن الأخير من تاريخ البشرية، وإستخدام الأقمار الإصطناعية في تقوية وإعادة البث عبر الفضاء، "فرضت صياغة جديدة للعقل الإنساني ومن ثم غيرت الكثير من مظاهر السلوك الإجتماعي والسياسي" (3)، وأصبح العالم يعيش في عصر البث الفضائي، وشبكة الأنترنت، العابرة للحدود والأنظمة، للجغرافيا والسياسة، حتى لقد تفاءل البعض أو تنبأ بتحرير العالم، عن طريق هذه الطفرة الإعلامية، مبشراً "بولادة قوتين ديمقراطيتين: الإعلام المعولم والإقتصاد المعولم، اللذين من شأنهما الإطاحة بأي نظام سياسي لا يتمتع بمقدار كافٍ من الشفافية والديمقراطية" (4)، كانت هذه نبوءة توماس فريدمان في العام 1999، وقد سقطت بالفعل، منذ ذلك الوقت، أنظمة ديكتاتورية مختلفة في العالم، آخرها نظام صدام حسين، لكن بفعل القوة العسكرية وليس القوة الإعلامية، فما زالت أنظمة ديكتاتورية متشبثة بكراسي الحكم، إستطاعت أن تتكيف مع متغيرات وضغوط الطفرة الإعلامية الجديدة.

ربما كان فريدمان مفرطاً بنبوءته أو تفاؤله، أو يوتوبيا حالماً، لكن هذا لا يثلم من القوة التي يمتلكها الإعلام، والسلطة التي تتعاظم بيده يومياً، وكأنها كرة ثلج تكبر كلما إنحدرت، مكتسحة كل شيء أمامها.

إنها سلطة ينمو خطرها ويتضاعف، كلما سمح لها بإعادة تشكيل الواقع والحقيقة وتقديمهما، طبقاً لمنطق الإثارة والسيطرة الذي تتبناه، ويقودها اليه إغراء قوة التكنولوجيا وآيديولوجيا الهيمنة، اللذان يستثمران سطوة الصورة وفتيشيتها (صنميتها) على التلقي، وحيثما يتعاظم إتجاه الإعلام المرئي بتعقد تقنياته، تتعاظم سلطته اللامرئية ويتفاقم خطرها، على الكتل الجماهيرية المستلبة أمام وسائله وحقائقه المفترضة أو المتلفزة، هذا ما إستشعره بورديو فسعى الى "فضح آيديولوجيا التكنولوجيا وكشف السلطة غير المرئية التي تمارسها وسائل الإتصالات المرئية والمكتوبة" (5)، التي باتت، بنظره، تمثل خطراً كبيراً على الحياة السياسية والإجتماعية، بل وحتى على الديموقراطية، حينما تحقن الجماهير بأفكار وآراء عنصرية معادية للآخر وللتعايش الإنساني المشترك.

وفي أقل أنواع الخطر الذي تمثله وسائل الإعلام، فإنها تمارس نوعاً من العنف يسميه بورديو بـ(العنف الرمزي)، وهو "عنف يمارس بتواطؤ ضمني من قبل هؤلاء الذين يخضعون له وأولئك الذين يمارسونه بالقدر الذي يكون فيه أولئك كما هؤلاء غير واعين ممارسة هذا العنف أو

الخضوع له"، لذا فقد بات على علماء الإجتماع تولي مهمة جديدة لهم، هي أن يعروا السلطة الخفية التي يمارسها الإعلام على الوعي، ويكشفوا عن آليات "الهوس الإعلامي" وثقافة الإستهلاك أو إدمان الإعلام، إذا جاز لنا توصيف هذه الظاهرة، حيث أصبحت وسائل الإعلام المرئية هي المصدر الوحيد للأخبار والمعلومات لكثير من الناس، وهذا منبع خطرها، خطر الحقيقة المتلفزة التي تتحكم بالعقول والقلوب والغرائز.

إنه الخطر الذي أنتج أجيالاً تميل الى المتعة والحرية الشخصية المفرطة في الغرب، وأجيالاً تميل الى العنف وتنزع الى التمايز عن الآخر في الشرق، وحيث سوق الغرب عولمته عبر تقنياته الإعلامية، سوق الشرق بنفس هذه التقنيات عولمته المضادة، عولمته الخاصة وهي (الإرهاب).

فان كانت العولمة قد روج لها الغرب وخاصة أميركا بوصفها مشروعه الإنساني الكوني، أو نظامه العالمي الجديد، الذي يتخطى الحدود الجغرافية ويتجاوز القيود السياسية، فإن الإرهاب بات الضد النوعي الذي أنتجه الشرق، ربما من هوس المقاومة الذي يسكنه، كرد فعل لما سماه بالغزو الثقافي الذي جلبته له رياح العولمة الغربية عبر التقنيات الإعلامية التي يمتلكها، وإستثمرها الشرق بدوره، ليرد الصفعة، وكان رداً قاسياً، تمثل في إنهيار برجي التجارة العالمية في نيويورك.

كان 11 سبتمبر يمثل بالنسبة للغرب، المارد الذي خرج من قمقم الشرق لا ليحقق الرغبات بل ليدمر ويقتل، فلم يعد الشرق مغرياً بل مفزعاً، ومثيراً لمشاعر السخط والكراهية، ثم توالت صفعات أخرى قاسية في لندن ومدريد، لتتحول المشاعر أزاء هذه العولمة الشرقية التي إختـرقت الحدود الجغرافية للغرب، وإستغلت الأنظمة السياسية، الى نوع من الرهاب، أطلق عليه الإسلاموفوبيا، وكأننا نعيش ليس صراعاً حضارياً أو ثقافياً بل صراعاً مرضياً، فوبيا مقابل فوبيا، من فوبيا العولمة في الشرق إلى فوبيا الإسلام في الغرب(6).

لكن هذه العولمة المضادة إنقلبت على أصحابها، مثلما يقال إنقلب السحر على الساحر، وباتت دار الإسلام أو دار السلام، كما تسمى في أدبيات معولمي الإسلام بنسخته المتطرفة، داراً للحرب أيضاً، فضلاً عن ديار الغرب التي تعتبر هي دار الحرب أو الكفر الأولى. لم تعد هنالك دار للسلام أو الإسلام، في جغرافيا أو مشروع هذه العولمة البديلة (الإرهاب)، أصبح العالم كله دار حرب.

فالعراق وأفغانستان وباكستان وفلسطين ولبنان وإسرائيل والصومال والسعودية وغيرها، أراض مباحة لتنفيذ طقوس هذه العولمة التدميرية.

وهو ما يؤشر تحولاً تاريخياً في البعد الإستراتيجي للإرهاب، بدء مع الحرب على العراق، بتحوله وإنقلابه الى داخل المجتمعات الحاضنة له، المجتمعات العربية والإسلامية، هذه المجتمعات المستهلكة، غير المنتجة، إستطاعت أن تنتج الإرهاب وتسوقه قسراً إلى العالم، كمشروع مقاومة مضاد للعولمة، لكنها في مرحلة لاحقة، أخذت تستهلك منتجها نفسه

(الإرهاب) قسراً أيضاً، ولم يتم ذلك كله إلا بفعل قوة هائلة هي الإعلام.

لقد هيمن موضوع الإرهاب على المشهد الإتصالي العالمي، وأصبح موضوعاً قاراً في الخطاب الإعلامي العربي والدولي، وأسهم الإعلام العربي تحديداً في الترويج للحركات الإسلامية المتطرّفة، بشكل مباشر أو غير مباشر، عبر تقديمها كممثل شرعي للدين والثقافة الإسلاميين، فضلاً عن التغطية الإعلامية المتتابعة للأنشطة الإرهابية وعرض مواقف أصحابها، والسماح لهم بتبريرها وتسويقها، بل وتسهيل مهمة دعم وتنظيم شبكاتهم، حتى لكأنه يبدو نوعاً من التبشير الديني، الذي يستغل الشرائح التي تمتاز بسمات "الجهل والحنق والهشاشة وهو كل ما يلزم لتهيئة الكوادر الجديدة للجماعات المتطرفة"(7) لغرض تجنيدها، مما عزّز إنتشار وتداول أساليب العنف والتماهي مع أنشطتها، ولنقل مع طقوسها.

فقد أصبحت عمليات التفجير طقوساً دينية ذات قيمة قدسية عالية في نظر الجماعات التي تقوم بها وتلك التي تؤيدها، وهي تُكبِّر بانتشاء غريب لمشاهد العنف التي تتناقلها وسائل الإعلام أو تلك التي تسهل تقنيات الإتصال حفظها وإنتشارها وتداولها، رغم ما تخلفه من دمار ودماء ومشاهد إنسانية مروعة لم يشهد لها التاريخ البشري مثيلاً من قبل (8).

وفي ظل تشابك وتداخل وتقاطع مصالح القوى السياسية التي لاشك إما تحتضن أو توجه الإرهاب، ومن خلال سيطرتها على وسائل الإعلام، فإن الأخيرة فقدت إستقلاليتها وموضوعيتها، وتحولت، بإستثناء القليل منها، إلى منابر للدعاية ولتضليل الرأي العام، عبر تسريب معلومات خاطئة، وإشاعات كاذبة، فضلاً عن التلاعب بالمصادر الخبرية وبالصور، ناهيك عن التغطيات الصحفية المتحيّزة. لقد فقد الإعلام العربي مصداقيته وحياديته، وهذا الإنحراف الوظيفي لوسائل الإعلام دفعها إلى إستغلال سلطتها التأثيرية على الرأي العام، بعيداً عن الإحتكام إلى أخلاقيات المهنة، بل وإلى أية سلطة أخلاقية أخرى، وباتت تشكل خطراً، إستشعره عدد من المفكرين والباحثين العرب والغربيين، يقول المفكر الفرنسي ريجيس دوبريه: "ان الصحفيين يخيفونني ويربكونني.

أني أخاف من السلطة التي يمتلكونها، بمعنى آخر إنني أحسّ بذات الشعور الذي يمكن أن نحسّه أمام محققي التفتيش في القرن الثالث عشر أو أمام أساتذة القرن الثامن عشر.. إنهم أناس قادرون على إدانة وتكفير وتحطيم بشر بالكلمات أو بالصور".

هذه القدرة المتعاظمة التي يخافها دوبريه، حولت الإعلام من سلطة رابعة الى سلطة أولى، وهذه السلطة الإعلامية المخيفة بقوّتها والمرعبة بهيمنتها، كما يقول د.المازري حدّاد "لا تواجهها أية سلطة مضادة ناجعة ولا أي نفوذ قادر على تقويمها وإصلاحها وتأديبها ومعاقبتها عندما تخطئ، وكل ذلك يتم باسم حرية الإعلام".

وهاهو الإعلام العربي، بإسم حريته

المقدسة التي ينتهكها ويستغلها بنفسه، هذه الأيام، يلعب دوراً خطيراً في تأجيج الصراع الطائفي في العراق بل وفي تحريك الملف الطائفي برمته في عموم منطقة الشرق الأوسط.

وبفعل هذه العولمة البديلة (الإرهاب) لم يعد يمكن الحلم بتحول العالم الى قرية كونية صغيرة، فالإرهاب يقسم العالم الى جغرافيتين متناقضتين، وأصبح الحديث عن خطر أهداف العولمة الساعية الى تنميط العالم إقتصادياً وإجتماعياً وسياسياً وثقافياً، ضرباً من التهويم الجانح بعيداً عن إدراك موازين القوى الجديدة، التي يمثل فيها الإعلام السلاح الفعال في إعادة صياغة الواقع، وصناعة الحقيقة المتلفزة، عبر ترجمة وتحويل الأفكار والإستراتيجيات إلى قوى مؤثرة وسلطات فاعلة في الرأي العام.

الهوامش:

(1) **ينظر: ضد الراهن. عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، المغرب، ط1/ 2005، ص: 63.**

(2) **في العالم العربي فقط تخطى عدد المحطات التلفازية العربية أو الناطقة بالعربية، الـ100 محطة منذ حوادث 11 سبتمبر2001، ويؤشر هذا التضخم إلى "نمو قطاع الإعلام العربي أو الناطق بالعربية، وتطور أدواته التكنولوجية وتوسع موارده البشرية والمالية، وذلك في فترة لا تتعدى خمس سنوات". كان هذا التقرير عام 2006، أي أنه لم يحص عدد المحطات الجديدة التي إنبثقت في العام 2007. وهو لم يشمل أو يقدم إحصائية لوسائل الإعلام العربية الأخرى: المسموعة والمقروءة، فضلا عن المواقع الانترنيتية، ينظر: الإعلام العربي بعد 11 سبتمبر. علي نصار، عن: .www.aljazeera.net**

(3)**صناعة العقل في عصر الشاشة. محمد فلحي، ط1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، 2002، ص33.**

(4) **برنامج السلطة الرابعة، من قناة العربية،2005/9/13، مع ضيف الحلقة الكاتب والمحلل السياسي، طوني فرنسيس.**

(5) **سلطة الإعلام غير المرئية، رضوان جودت زيادة، صحيفة المستقبل، ع 1979، 16 تموز2005، ص: 18.**

(6) **بات لدى عدد من المفكرين والباحثين الغربيين رؤية الى الإسلام بوصفه "كتلة لا تاريخيّة منغلقة لم تُنْتج إلاّ قمع الحريات الفردية والعنف والإرهاب والتسلّط، ولم تَقُدْها صدمة الحداثة إلاّ إلى الحقد على الغرب وقيمه ومكتسبات حداثته، وهو ما يفسّر حسب هذه القراءة الثقافوية ما نراه من صدام بين الشرق والغرب، كانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر إحدى مظاهره الدامية". الإعلام والإرهاب: البنية الفكريّة- الثقافة البديلة. خيرة الشيباني. مجلة أفكار أونلاين، عن: .www.afkaronline.org**

(7)**زكريا موسوي صناعة إرهابي. عبد الصمد موسوي وفلورانس بوكيات، ط/1، 2003، عرض لكامبردج بوك ريفيوز، عن:** www.aljazeera.net

(8)**لقد وعى الارهابيون اهمية الاعلام الهائلة واصبح "هدفهم الاساسي هو صنع الاخبار وجذب الاهتمام نحو قضاياهم وتشكيل سياسات معارضيهم، وبهذه الطريقة يمكنهم ان يحققوا نجاحا ضخما". صناعة الخبر في كواليس الصحافة الامريكية. جون ماكسويل هاملتون، جورج كريمسكي، ترجمة: احمد محمود، دار الشروق، القاهرة، ط2/2002**

السرطانات والتشوهات الخلقية في الفلوجة

وعلاقتها بإستخدام أسلحة اليورانيوم والفوسفور الأبيض

د. كاظم المقدادي / أكاديمي وباحث بيئي

لم يعد سراً إستخدام الأمريكان وحلفائهم أسلحة اليورانيوم الفتاكة في حربي 1991 و2003 ضد العراق،وسلاح الفوسفور الأبيض عام 2004 على مدينة الفلوجة، فلعبت دوراً كبيراً في إنتشار السرطان والولادات الميتة والتشوهات الولادية والأجهاض والعقم وأمراض كثيرة غير قابلة للعلاج،بينما يتواصل موقف الصمت والتفرج وحتى اللامبالاة،تارة، والنفي والأنكار والتستر على جرائم المحتل،تارة أخرى، من قبل السلطات العراقية المعنية.. هذه المتابعة تسلط الضوء على طبيعة أسلحة اليورانيوم والفوسفور الأبيض وخصائصها، وتستعرض تداعيات إستخدامها في العراق، بالأستناد الى وقائع وتحقيقات ودراسات ميدانية ومعلومات مستمدة من مختلف المصادر..

سلاح اليورانيوم المنضب

خلال حربين مدمرتين إستخدمت القوات الأمريكية وحليفاتها أسلحة اليورانيوم المنضب Depleted uranium، وبكميات تجاوزت الـ 2200 طن. ومادة اليورانيوم المنضب هي نفايات نووية خطيرة كمنتوج ثانوي By-product لعملية تخصيب اليورانيوم Uranium enrichment للحصول على اليورانيوم المخصب اللازم كوقود للمفاعلات الذرية، ولأنتاج الأسلحة الذرية.

وقد كشف العلماء المزيد من الخصائص التي لم تكن معروفة عن هذه النفاية، ومنها أنها تبقى محتفظة بنظائر اليورانيوم المشعة Uranium Isotopes، مثل: U-235 و U- 234 و U-238 ولو بنسب أقل مما في اليورانيوم الطبيعي قبل التخصيب.ولليورانيوم المنضب عمر نصفي قرابة 4.5 مليار سنة. وعمر النصف Half-life هو الزمن اللازم للنظير لكي يفقد 50% من نشاطه الأشعاعي Radio-activity.

وعند ضرب قذيفته للهدف تنفجر وتحترق الى درجة 5000 درجة مئوية، ويتحول اليورانيوم الى مليارات من جزيئات أوكسيد اليورانيوم. وهذه لها خواص كيميائية وإشعاعية خطيرة، حيث ان اليورانيوم من العناصر الثقيلة شأنه شأن الزئبق والرصاص، وهو من المواد السمّية المسرطنة، وفي ذات الوقت هو مادة مشعة، وهذه الأشعاعات اذا ما تم التعرض لها بجرعات معينة تسبب السرطان. وهذه الخواص معروفة للعلماء منذ عدة سنوات(1)(2). وقد تبين أن الصناعة الحربية أضافت، أثناء تصنيع أسلحة اليورانيوم، نظائر مشعة أخرى أكثر خطورة، مثل النظير U-236 الذي لا يوجد طبيعياً، لزيادة فاعليتها التدميرية.

وثبت علمياً بأن أسلحة اليورانيوم المنضب تبعث عند إنفجارها أشعة ألفا وبيتا وغاما. وعند دخول اليورانيوم المنضب الى الجسم يصبح طرفاً ضمن مجموعة من التفاعلات نتيجة لتكوينه مركبات ذائبة مع الأوكسيدات، والهايدروكسيدات، والكاربونات، والبروتينات، وتتوافر جميعها بتراكيز عالية في الجسم. وتعد اوكسيدات اليورانيوم، الأكثر شيوعاً، كما انها الأهم في تأثيراتها الوظيفية وحال هضم اليورانيوم، فانه يظهر بسرعة في الدم اذ يتحد أولا مع خلايا الدم الحمراء.فضلا عن تكوينه مركب Uranyl –albumin complex غير الذائب في البلازما، والذي يكون في حالة توازن مع المركب: Ionic uranyl hydrogen carbonate (UO2 HCO3) +3. ونظراً لألفته العالية للأتحاد مع الفوسفات ومجاميع الهيدروكسيل والكاربوكسيل، فان مركبات اليورانيل تتحد مع البروتينات والنيوكليوتيدات، مكونة مركبات مستقرة.

وتؤثر المركبات المتكونة سلباً في وظائف الجسم، اذ تبدل وتقلب التفاعلات في المحلول المائي. وتحدث ازالة اليورانيوم من مجرى الدم بسرعة ليتراكم في الكليتين والهيكل العظمي. بينما يتوافر القليل منه في الكبد. ويعد الهيكل العظمي من المواقع الرئيسة لتراكم اليورانيوم حيث تحل أيونات اليورانيوم محل الكالسيوم في خلايا العظم. كما يتراكم في الأسنان والدماغ. وتكون ازالة تأثيره من الهيكل العظمي بطيئة، اذ ان عمر النصف لأزالة اليورانيوم من الهيكل العظمي هي 3000–5000 يومً (3).

ولعل الأخطر في الخواص الجديدة المكتشفة، أن أشعة ألفا التي يطلقها اليورانيوم المنضب هي أخطر بكثير من أشعة بيتا وغاما عندما تدخل جسم الأنسان، حيث تسبب سميتها الكيميائية والأشعاعية Chemical & radiological toxicity الفاعلة معاً وفي آن واحد، تدمير جهاز المناعة بكامله، وتتلف الحامض النووي **DNA** في الخلية وكامل المادة الوراثية، وتؤدي الى تحول الخلايا السليمة الى خلايا سرطانية وحصول طفرات في جينات الخلايا وبالتالي حصول تشوهات خلقية. وقد إكتشفت العالمة ألكساندرا ميللر من معهد أبحاث البيولوجيا الأشعاعية التابع للجيش الأمريكي في بتسدا بمريلاند خاصية فريدة لأشعة ألفا أسمتها Bystander effects التي ترجمناها" التأثيرات بالحيرة"، حيث تؤثر

الخلية المتعرضة للإشعاع على جارتها السليمة، وهذه تؤثر على جارتها، وهكذا دواليك. وهذا يعني ان كافة خلايا الجسم المعرض لها مهددة بالدمار لأن أشعاعية اليورانيوم المنضب تدوم لمليارات السنين – كما أسلفنا.

وقد سبب إستخدام ذخائر اليورانيوم المنضب موت وإصابة مئات الآلاف بالسرطان والتشوهات الخلقية وغيرها،ليس فقط وسط العسكريين، بل والمدنيين حيثما إستخدمت تلك الأسلحة – في العراق والبوسنة وكوسوفو وصربيا وأفغانستان والصومال ولبنان وفلسطين المحتلة. وقد ثبت علمياً بان اليورانيوم المنضب يهدد سلامة البيئة، مدمراً كافة عناصرها.

لكل هذا وغيره، يطالب العلماء وحماة البيئة والمدافعون عن حقوق الأنسان بمنع إستخدام أسلحة اليورانيوم وضمها الى قائمة الأسلحة المحرمة دولياً.

وقد طرح هذا المطلب على الجمعية العامة للأمم المتحدة عدة مرات، وفي كل مرة كانت الأدارة الأمريكية تتصدى له وتحبط إتخاذ قرار جماعي دولي..

سلاح الفوسفور الأبيض

أقر البنتاجون باستخدام ذخائر تحتوي على الفوسفور الابيض في هجوم بقيادة مشاة البحرية الامريكية في مدينة الفلوجة العراقية في تشرين الثاني 2004على مسلحين داخل مناطق حضرية وفي خنادق او مواقع مغطاة اخرى لاخراجهم منها تحت تأثير الدخان، ثم ضربهم بعد ذلك بقذائف مدفعية شديدة الانفجار(4).

والفوسفور الابيض White phos-phorus هو أحد الأشكال المتآصلة Allotrope للعنصر الكيماوي الفوسفور، وهو مادة نصف شفافة شبيهة بالشمع، وعديمة اللون. تميل إلى اللون الأصفر، وتتميز برائحة لاذعة شبيهة برائحة الثوم. ويتميز النوع المستعمل في الأغراض العسكرية بشدة نشاطه كيماوياً. من خواصه، أنه يتفاعل مع الأوكسجين بسرعة كبيرة ،فعندما يتعرض إلى الهواء، يشتعل ويتأكسد بشكل سريع ويتحول إلى خامس أوكسيد الفوسفور. ويولّد هذا التفاعل الكيماوي حرارة كبيرة إلى حد ان العنصر ينفجر، ليعطي لهباً أصفر اللون، وكذلك ينتج دخاناً كثيفاً أبيض، ويصبح الفوسفور مضيئاً أيضاً في الظلام، ويستمر هذا التفاعل الكيماوي حتى استهلاك كامل المادة أو حرمانها من الاوكسجين. ويبقى 15 في المئة من الفوسفور الأبيض في القسم المحترق من الجسم المصاب. وتعود تلك البقايا للاشتعال مجدداً في حال تعرضها للهواء.

تسبب أسلحة الفوسفور الأبيض حروقاً كيماوية مؤلمة، وتُميت الأنسجة وخلاياها في المنطقة المحروقة، ويصبح لونها ضارباً للأصفر. وتُصدر رائحة شبيهة بالثوم الفاسد.والفوسفور الأبيض مادة تذوب في الدهن بسهولة،ولذا فهي تنفذ في الجلد بسرعة، فور ملامستها اياه.وتنتقل عبر اتحادها السريع مع الدهون الى انسجة الجسم المختلفة.

وبذا، فانها تحرق جسم الإنسان ولحمه ولا يتبقى منه إلا العظام، كما أن استنشاق الفوسفور الأبيض لفترة قصيرة يسبب السعال ويهيج القصبة الهوائية

والرئة، أما استنشاقه لفترة طويلة فيسبب جروحا في الفم ويكسر عظمة الفك.

وعدا خطره الكبير على الأنسان فان الفوسفور الأبيض يشكل خطراً على البيئة أيضـاً، ففي حـال تلـوث منـطقـة مـا بالفوسفور الأبيض، فإنه يترسب في التربة أو في أعمـاق الأنهـار والبحـار وعلـى الكائنات البحرية مثل الأسماك، وهو ما يهدد سلامة البيئة والإنسان معاً.

ويذكر،ان للفوسفور الأبيض استخدامات عسكرية متعددة، ومنها: كعامل حارق، وكباعث لساتر دخاني، وكمركب كيماوي مضاد للأفراد قادر على احداث حروق شديدة. لكل هذا،فهو سلاح حارق محرم باتفاقية دولية،حيث تحرم اتفاقية جنيف عام 1980 استخدام الفوسفور الأبيض ضد السكان المدنيين أو حتى ضد الأعداء في المناطق التي يقطن بها مدنيون، وتعتبر استخدامه جريمة حرب(5).

مواقع ملوثة إشعاعياً ونتائج مروعة

وجدت دراسة عراقية حديثة بأن أكثر من 40 موقعا بمختلف أرجاء البلاد ملوثة بمستويات عالية من الإشعاعات والمواد السامة المعروفة بزيادة احتمال الإصابة بالسرطان. واستنتجت الدراسة التي شاركت في اعدادها وزارات البيئة والصحة والعلوم والتكنولوجيا ان ساحات الخردة المعدنية في بغداد والبصرة وحولهما تحتوي على مستوى عال من الاشعاع المؤين الذي يعتقد انه من مخلفات اليورانيوم المنضب الذي تحتوي عليه الذخائر التي استخدمت في حربي 1991 و2003. وان ربع جميع المواقع بالعراق التي تم تحديدها كانت في محيط وداخل المدن والبلدات التي سُجل فيها أعلى معدلات الإصابة بالعيوب الخلقية. وقد ارتفعت نسبة العيوب الخلقية الخاصة بالقلب وسط الأطفال الحديثي الولادة بالعراق لتبلغ 95 لكل ألف ولادة، أي 13 ضعف المعدل بالمملكة المتحدة(6).

وكانت وزارة البيئة قد حددت 315 موقعاً ملوثاً تلوثاً خطيراً، بينما قدر برنامج الأمم المتحدة للبيئة (يونيب) المواقع الملوثة الساخنة بالآلاف، وهي منتشرة في أرجاء العراق(7).

وأكد مختصون ارتفاع نسبة الاصابة بالامراض المستعصية والتشوهات الخلقية للاطفال الذين ولدوا بعد الاحتلال الاميركي للعراق. وأنّ سبب الارتفاع هو تعرض الامهات لإشعاعات ناتجة عن استخدام قوات الاحتلال الاميركي للفوسفور الابيض واسلحة محرمة دوليا عام 2004، بحيث بدات نتائجها في الظهور تدريجيا.وأوضح خضير خلف شلال – مدير عام صحة الانبار: هذه الاسلحة تؤثر على المرأة الحامل، وتؤدي الى تشوه الجنين. وأكد شاكر احمد – مدير قسم التخطيط في دائرة صحة الانبار: ان الحالات السرطانية في محافظة الانبار وفي مدينة الفلوجة في ارتفاع محسوس نتيجة الاشعاعات التي خلفها استعمال الاحتلال الامريكي للأسلحة الفتاكة(8).

وأكدت تحقيقات ومتابعات ودراسات علمية جديدة، نشرتها وسائل الاعلام خلال الأشهر المنصرمة، تزايد أعداد ومعدلات

الأصابات السرطانية والوفيات الناجمة عن السرطان في عموم العراق. وأفاد تقرير بريطاني بوجود مخاوف جديدة على مستقبل الحياة في العراق، مع زيادة تسجيل حالات ولادات أطفال حاملين لتشوهات خلقية أدت بالكثير منهم إلى الوفاة، في وقت تذهب التوقعات إلى أن هذا الواقع سيلازم العراقيين قرونا طويلة، بسبب الآثار الكبيرة لأسلحة الدمار الشامل، ومنها قذائف اليورانيوم المنضب والأسلحة الكيميائية(الفوسفور الأبيض)..

في الفلوجة

أظهرت تحقيقات ودراسة ميدانية أجنبية نتائج مروعة في الفلوجة،بما فيها زيادة عدد الاطفال الذين ولدوا مشوهين وممسوخين،مع صور حية تتقطع لها نياط القلوب لما يمكن ان تسفر عنه افعال الانسان الشرير.فقد كشفت تقرير لشبكة "سكاي نيوز" التلفزيونية البريطانية أن عدد الاطفال الذين يولدون مشوهين اخذ في التزايد هناك،أكد ذلك تحقيق أجرته قبل 15 شهراً، وقامت باعداد ملف عن حالات الاطفال المشوهين الذين ولدوا في المدينة خلال ثمانية أشهر.وأشارت إلى أن حالات التشوه عند الاطفال تشمل مشاكل عديدة من بينها تشوهات في البطن، وفي الوجه، وفي الجهاز العصبي المركزي، ونظراً لشدتها توفي الكثير منهم قبل بلوغهم سن الخامسة من العمر.وقالت أن سكان الفلوجة يريدون فتح تحقيق مستقل حول الاضرار التي سببها استخدام الاسلحة الكيميائية ومن بينها الفوسفور الأبيض في عام 2004.

وذكر أطباء عاملون في مستشفى الفلوجة العام، أنهم يتعاملون مع 4 أو 5 حالات أسبوعياً لأطفال حديثي الولادة يُعانون من تشوهات ولادية، مؤكدين أن هذه الحالات تزايدت في السنتين الأخيرتين. وأكد نائب رئيس مجموعة حقوق الإنسان في الفلوجة: "لدينا بحدود 200 حالة مشوهة مسجّلة في جمعيتنا، وقد بدأت أغلبية حالات الولادة المشوهة هذه بعد الحرب على العراق في عام 2003"(9).

وأفاد طبيب بأنه يمكن العودة الى سجلات وزارة الصحة الخاصة بمدينة الفلوجة للوقوف على عدد الوفيات، ومعرفة عدد الاجنة المتوفية قبل ان تولد وهي مصابة بالتشوهات الخلقية،اضافة الى حالات الاسقاطات(الأجهاض) غير المعروفة الاسباب، وأضاف: المئات من الامهات يفقدن الاجنة بعد مرحلة حملهن (في الشهر الثالث او الرابع)، وبدون معرفة السبب(10).

ووفقاً لتقرير نشرته "رويترز"، يسجل الأطباء في الفلوجة، بعد مرور خمس سنوات على قصف المدينة، عدداً غير طبيعي من الأطفال المصابين بأمراض خلقية في القلب، وتشوهات الأنبوب العصبي الذي يتسبب في نمو غير طبيعي للحبل الشوكي والمخ، ما يمكن أن يسبب الشلل والوفاة. وأفاد الدكتور عبد الستار كاظم – مدير مستشفى الفلوجة العام – بان الارتفاع الملحوظ في العيوب الخلقية للمواليد في هذا المستشفى دفع مجلسه إلى تشكيل لجنة خاصة للتحقيق في تلك الحالات وتسجيلها، وأكد طبيب اخصائي

بطب الأعصاب للأطفال إنه يرى 3 أو 4 حالات أسبوعيا لأطفال حديثي الولادة مصابين بعيوب في الأنبوب العصبي من الفلوجة وضواحيها، مشيراً الى أن حالات الإصابة بهذه الحالة المرضية الخطيرة في بريطانيا هي أقل من واحد لكل 1000 طفل، بينما بلغت هنا نحو14 لكل 1000 ونوه طبيب آخر بان 90 في المئة من الأطفال الذين لا نعالجهم يموتون خلال عامهم الأول(11).

وأفادت طبيبة اختصاصية بطب الأطفال تعمل في مستشفى الفلوجة بأنها سجلت زيادة مخيفة في المشاكل التي تعاني منها المرأة الحامل، بدءا بالاجهاضات الكثيرة اليومية، وزيادة في العقم، والتشوهات التي باتت من الحالات اليومية التي تتعامل معها، مؤكدة بأنها تستقبل بين 50- 60 حالة، اغلبها لنساء يعانين من مشاكل صحية، ولديها سجل لجميع الحالات، ووجدت ان الاجهاض لاسباب غير معروفة يأتي في المرتبة الأولى، بعده تأتي التشوهات الغريبة والمرعبة، ثم حالات العقم، وأكدت،بالأستناد الى معلومات دونتها عن كل حالة، ان جميع الحالات حصلت عقب عام 2004.

وأكد زميل للدكتورة بان الإحصائية التي ذكرتها تمثل جزء لا يتجاوز ثلث الموجود الفعلي من التشوهات الخلقية، وذلك لصعوبة متابعة جميع الحالات وخاصة ما هو موجود بين مراجعي العيادات الاستشارية، اضافة الى الحالات العديدة التي لا تصل للمستشفى، او الحالات التي يولد الوليد ميتاً ويدفن مباشرة بدون ان يسجل، او الذي يرفض ذووه اعطاء المعلومات عنه لتوثيقها. وهناك ايضا العديد من الحالات التي ترد الى العيادات الخاصة لاطباء الاطفال، واقسام الجراحة، والتي لا توثق بشكل كامل أيضاً ولاسباب مختلفة (12).

الهلع يخيم على الأمهات

بعد إستغاثة نساء البصرة الموجهة الى المنظمات الدولية المعنية لإنقاذ أطفالهن من التشوهات الولادية(13)، جاء دور نساء الفلوجة، اللواتي ينتابهن الشعور بالهلع والخوف من الحمل والولادة، وقد قررت الكثيرات منهن إيقاف الإنجاب رحمة بأنفسهن وبمواليدهن بسبب آثار الحرب الأميركية في العراق، وخصوصا معركة الفلوجة في تشرين الثاني 2004، التي يؤكد خبراء في الصحة والبيئة بأن الأسلحة المحرمة التي استعملت خلالها أهلكت الحرث والنسل(14). فأصبح أغلب مواليد الفلوجة بعد عام 2004 يولدون بتشوهات غريبة، وأغلبهم يموتون بعد فترة قصيرة من ولادتهم، ومن يعش منهم تزداد عنده نسبة الأمراض السرطانية ومنها سرطان الدم (اللوكيميا) – حسب ما جاء في رسالة بعث بها أطباء وبيئيون إلى الأمم المتحدة. وحسب الرسالة فإن شهرأيلول 2009 شهد 170 حالة ولادة جديدة، 24% منها لأطفال ماتوا خلال أسبوع، و75% ولدوا بتشوهات خلقية، وهي نتائج مرعبة – تضيف الرسالة – إذا ما قورنت بسجلات سابقة، وتنقل الرسالة أيضا عن مسؤول بإحدى المقابر في الفلوجة أنه يدفن ما بين 4 إلى 5 أطفال كل يوم، معظمهم مصابون بتشوهات

خلقية. بدورها أكدت الناشطة الحقوقية أسماء الحيدري أنه بعد 2004 أصبحت الولادات المشوهة تسجل بمعدل حالة أو أكثر في اليوم. وذكر مصدر طبي في الفلوجة أن شهادات وفيات الأطفال المشوهين لا تذكر سبب الوفاة ولا تصف حالة الطفل المتوفى، وبحسب رئيس لجنة الصحة والبيئة في مجلس محافظة الأنبار الدكتور طالب حماد فأن السبب الرئيس للولادات المشوهة هو إشعاعات اليورانيوم المنضب وسموم الفسفور الأبيض، مؤكدا أن هذا التأثير لا ينحصر في الفلوجة وحدها،وإنما وصل إلى عموم مناطق محافظة الأنبار(15). وذكرت صحيفة "الغارديان" البريطانية أن نسبة المواليد في مدينة الفلوجة المصابون بالأورام الخبيثة والعيوب الخلقية، التي تعزى إلى المواد الكيمياوية السامة للحرب، ارتفعت15 ضعفا، وهذا الارتفاع الاستثنائي في العيوب الخلقية لدى المواليد تبلور على مدى الأشهر الأخيرة بعد أن قام متخصصون يعملون في الصحة بالمدينة بجمع تفاصيل السجلات الطبية للمواليد الجدد، وأكد متخصصون في علم الأعصاب والولادة زيادة العيوب الخلقية الغريبة والمرعبة لدى المواليد الجدد، وهي غير مسبوقة، ولا يمكن تفسيرها الآن، ونقلت"الغارديان" عن الدكتور أيمن قيس قوله: كنت قبل عام 2003 وحتى بداية الحرب – أشهد حالات متقطعة من العيوب الخلقية لدى الأطفال، أما الآن فإن الزيادة المطردة فيها تبعث على الصدمة، فبعد أن كان يتم الإعلان في عام2008 عن حالتين كل أسبوعين، ارتفعت الأعداد اليوم إلى حالتين يوميا، معظمها في الرأس والعمود الفقري، وفي الأطراف السفلى. وأشارت الصحيفة إلى تسجيل حالات العيوب الخلفية في كل من البصرة والنجف، وهي مناطق شهدت عمليات عسكرية مكثفة حيث استُخدم فيها العتاد العسكري الحديث (16). واظهر تحقيق لـ BBC ان نسب الاسقاط في الفلوجة هي 13 مرة اكثر من المعدلات المسجلة في اوروبا(17).

وذكرت "الصنداي تايمس" أن الفلوجة كانت مسرحا لعمليات عسكرية في تشرين الثاني 2004 ضمن أكبر عمل عسكري بالمدن منذ حرب فيتنام.، وقد إستخدم الجنود الأميركيون الفسفور الأبيض للتخلص من مواقع "الأعداء"، لكنهم نفوا إستخدام تلك الأسلحة لأنهم يعرفون بأنها محظورة دوليا (18).

أحدث دراسة علمية أجنبية

وجدت أحدث وأشمل دراسة علمية أجريت في الفلوجة من قبل فريق من الباحثين من مؤسسة Green Audit البريطانية، بإشراف البروفسور كريس بوسبي Kris Busby من جامعة أولستر، والسكرتير العلمي للجنة الأوروبية لمخاطر الإشعاع European Committee on Radiation Risk (ECRR) نسباً عالية جداً، بلغت 30 ضعفا من التشوهات الخلقية للقلب، وأيضا تشوهات للعمود الفقري والنخاع الشوكي، وغيرها.

وعدا التشوهات الولادية كشفت الدراسة، التي شارك في إنجازها 11 باحثاً، وشملت711منزلا ونحو 4800 فرداً في الفلوجة خلال كانون الثاني وشباط

2010، طيفاً من الأمـراض السـرطانيـة، مسجلة إرتفـاع معدل الإصابة بسـرطان الدم (اللوكيميا) 38 ضعفا، وسـرطان الثدي 10 أضعـاف، إلـى جـانب الـزيـادة الكبيرة في أورام المخ لـدى الكبار.ومقـارنة بهيـروشيمـا،التـي قصفت بـالقنبلة الـذرية، والتي سجلت ارتفاع معدلات اللوكيميا 17 ضعفا، فـإن مـا يثير الـدهشـة في حـالـة الفلوجـة هو سـرعة الإصـابة بـالسـرطان بـالأضافـة الى انتشاره، وسجلت الـدراسة أيضـاً نسبـاً عـاليـة من الـوفيـات وسط الأطفال الرضع، وفروقـاً بين النسب حسب الجنس، تشـبه آثـار إسـتخـدام قنبلـة هيروشيما، إلا ان الآثـار في الفلوجة أسوأ (19).

وأوضـح البـرفسـور بـوسـبي: ان مـا حـصل في الفلـــوجه هـــو أســـوأ من هيـروشـيمـا، خـاصـة ونحـن نعلـم إنه لم تستخدم في الفلوجة قنبلة ذرية، وقد فـاقت نتـائج إستخدام الأسلحـة فيهـا مـا حدث لسكان هيـروشيمـا جراء اسـتخدام القنبلة النووية. والأمر الأخطر هو ما يهدد صحـة وحيـاة الأجيـال القـادمـة، حيث ان سـموم إشعاعـات الأسلحة التـي إستخدمت في الفلوجة تـدمر الأجنـة الذكور أكثر من الأنـاث. وعنـدمـا يحـدث مثل هـذا الضـرر الجيني، يبدو إنه يستمـر، ويبقى مـستمراً، وأضـاف:وجدنـا في الفلوجة نسبـا عـالية جـداً بلغت 30 ضعفـا مـن التشـوهـات الخلقيـة للقلب وأيضـا تشـوهـات للعمـود الفقـري والنخـاع الشـوكي ومـا إلـى ذلك. وهنـاك نسب عـاليـة من هـذه التشـوهـات وسط الذكور مقارنـة بالإنـاث، هذا يعني أن الأجيـال القادمـة هي أيضـا سوف تعـاني، ونسبـة الخصوبة فيهـا سوف تقل، والنسـاء لن يستطعن إنجاب الكثير من الأطفال، لأن الأجنة سـوف تموت داخل أرحـام أمهاتهم، وسوف يولد الأطفال بهذه التشوهات، وهذا أمر واقع لا محالة (20).

مطالبات بالتحقيق

حيـال الـواقع الكـارثي، وبعـد الاتصـال بعدد من الاطبـاء في الفلوجة، الـذين وثقوا ازديـاد حـالات الاصـابـات بـالتشـوه بين الاطفال، وولادة المزيـد من الاجنة المشوهة، بـادر عدد من المهتمين بـالشأن العراقي في بـريطـانيـا،في تشـرين الأول 2009 بـرفع مـذكـرة الـى رئيس الـدورة الـسـادسـة والاربعين للهيئـة العامة لـلامم المتحدة. جاء فيها بان نسـاء الفلوجـة بتن يتجنبن الحمل والانجـاب، خلافـا لكل النسـاء في العـالم، اللـواتـي يتطلعن شـوقـا الـى اليـوم الـذي يصبحن فيه امهات، خشية انجـاب اطفال مشـوهين، وتـدل الارقـام والاحصـائيات المذكورة في الـرسالـة بان مـخاوف نسـاء الفلوجـة ليست وهمـية بل تستند الى واقع مرعب بكل المقاييس، اذ ازداد عدد الاطفال الذين يـولدون بتشوهات خلـقية مروعة، كما ازدادت حالات السرطان المختلفة وبالتحديد اللـوكيمـيا بين الاطفـال. وقد تم تـوثيق هذه الحـالات في بـرنـامجين قـدمتهمـا شبكة "سكـاى نيـوز" التلفزيونية البـريطانية في حـزيـران 2008 وفي ايلـول 2009. ونقل التقـريـر شهـادة احـد جنـود فـرقـة المشـاة الأمـريكيـة الأولى، الـذى شـارك فـى هجوم الفلوجة، قائلا:"أعرف أن الفوسفور الأبيض قـد استخـدم بـالفعل"، وانه شـاهـد "جثثًـا محـتـرقـة، وأطفـالا محـتـرقـين ونـسـاء

محترقات.. الفوسفور الأبيض يقتل بلا تمييز". وطالبت المذكرة، التي وقعها الجراح البريطاني المعروف دافيد هالبن والمهندسة الكيمياوية العراقية ملاك حمدان والطبيب المختص كريس بيرنز كوكس والدكتور هيثم الشيباني المختص بعلوم البيئة والمعماري نيكولاس وود والدكتورة نوال السامرائي- وزيرة الدولة لشؤون المرأة العراقية سابقا، الجمعية العامة للامم المتحدة بما يلي:

1 ـ ان تعترف بوجود مشكلة حقيقية في عدد الولادات المشوهة وازدياد حالات السرطان بشكل غير مسبوق في العراق وخاصة في الفلوجة، والبصرة، وبغداد، والنجف.

2 ـ ان تعين لجنة محايدة تقوم بإجراء بحث كامل في مشكلة ازدياد عدد التشوهات الولادية والسرطان في العراق.

3 ـ الشروع ببرنامج لتنظيف العراق من المواد السامة التي استعملتها القوات المحتلة بما فيه اليورانيوم المنضب والفسفور الابيض.

4 ـ منع الاطفال والبالغين من دخول المناطق الموبوءة لتقليل التعرض لهذه المهالك.

5 ـ تقصي ما اذا كانت هنالك جرائم حرب، او جرائم ضد الانسانية قد حدثت وعليه الامتثال لميثاق الامم المتحدة ومعاهدات جنيف ولاهاي وممثلية روما لمحكمة الجرائم الدولية.

من جهته، دعا البروفسور آلاستير هاي - Alastair Hay أستاذ السموم البيئية Environmental toxicology في جامعة ليدز البريطانية، الولايات المتحدة إلى الكشف عن طبيعة الأسلحة الكيمياوية التي استخدمتها في هجومها على مدينة الفلوجة عام 2004، وذلك بسبب القلق الذي يستولي على أهالي المدينة والأطباء إزاء تشوهات المواليد، وقال: إن قلق الأطباء الشديد دفعهم إلى الطلب من الأمهات في المدينة عدم الإنجاب، وأشار إلى أن ذلك يعني أن المشكلة خطيرة جدا، وأشار إلى أن القوات الأميركية استخدمت الفوسفور الأبيض دون شك في 2004، وأضاف: ثمة إتهامات راجت بأنها استخدمت أيضا ذخائر من اليورانيوم المنضب، لذا يتعين عليها الكشف عما استخدمته من أسلحة(21).

إجراءات قضائية وتحقيقات

بدأت عائلات عراقية من مدينة الفلوجة باجراءات قضائية ضد وزارة الدفاع البريطانية حول دور الجيش البريطاني في إستخدام الأسلحة المحرمة وفي زيادة حالات ولادة الاطفال بتشوهات وعاهات شديدة. ومن جهتها بدأت وزارة الدفاع بالتحقيق في الاتهامات التي قدمتها عائلات الفلوجة حول تورطها في عملية الهجوم في خريف عام2004. وقالت صحيفة "الاندبندنت" ان زيادة الحالات تطرح اسئلة حول دور بريطانيا في العملية التي قادتها الولايات المتحدة وقامت فيها قوات المارينز بتدمير احياء ومعالم هامة في المدينة من اجل اخراج المسلحين، وهي العملية التي ادت الى مقتل المئات وعزلت المدينة عن بقية العراق.وقالت: هناك ادلة عن تزايد في حالات ولادة اطفال بتشوهات وعاهات. فيما تتهم عائلات الاطفال

الحكومة البريطانية بخرقها القانون الدولي وارتكاب جرائم حرب والفشل بالتدخل كي تمنع هذه الجرائم (22).

ونسبت صحيفة"الأندبندنت" إلى المحامي فيل شينر- الذي يقود المرافعة القانونية – القول بإن الحكومة البريطانية وعلى كافة المستويات كانت تدفن رأسها وبشكل متعمد في الرمال بشأن القضية.وأكد بان معدل التشوه الجنيني وزيادة حالات الاصابة باللوكيميا كانت موضوعا لمراسلات وتقارير عديدة، ويتحدث الاطباء عن زيادة كبيرة في حالات اسقاط الحمل، التي بلغت في الفلوجة 13 مرة اكثر من المعدلات المسجلة في اوروبا.

ورداً على المطالبات المذكورة، طلبت وزارة الدفاع البريطانية من الصليب الأحمر التحقيق في تشوهات مواليد العراق إثر الإجراءات القضائية التي بدأتها عائلات عراقية ضد الوزارة. وبينت رسالة كتبها وزير التنمية الدولية البريطاني غاريث توماس أن حكومته اتصلت بالهيئة الدولية للصليب الأحمر قبل أيلول 2009 لتقصي الحقائق، وقالت: هناك أدلة على تزايد الولادات المشوهة، حيث يتهم أهالي الأطفال الحكومة البريطانية بخرق القانون الدولي وارتكاب جرائم حرب وعدم التدخل لمنعها (23).

وعلى صعيد متصل، أعلن بدء منظمة الصحة العالمية والسلطات العراقية تحقيقاً بشأن الزيادة المثيرة للقلق في الولادات المشوهة في العراق، والتي يرى ألأطباء العراقيون أنها بسبب استخدام الأسلحة الكيمياوية في الهجوم على الفلوجة، بحسب ما افادت متحدثة باسم المنظمة.

وقالت فضيلة الشايب للصحافيين ان "تحقيقا بدأ في 6 محافظات عراقية بشان الانباء عن التشوهات الخلقية. وقالت ان "تقييما علميا اولياً تقوم به الحكومة العراقية بمساعدة منظمة الصحة العالمية منذ تموز 2010 ويتوقع ان يستغرق نحو 18 شهرا. وتغطي الدراسة محافظات السليمانية وديالى وبغداد وذي قار والبصرة ومحافظة الانبار التي تضم الفلوجة. وقالت المنظمة ان الدراسة ستوضح "حجم وتوزع واتجاهات التشوهات الخلقية لدى المواليد في العراق، وتضع اساسا للمقارنة مع الوضع اليوم والوضع في مختلف انحاء البلاد". وطبقا للمنظمة فان الدراسة تهدف رسميا الى توفير "معلومات اساسية، لوضع برنامج وقاية وطني، لتحسين صحة الام والطفل".

وكانت هيئة الاذاعة البريطانية BBC قد ذكرت في اذار2010 بان الاطباء لاحظوا وجود اعداد كبيرة ومتزايدة من التشوهات الخلقية في الفلوجة. واشارت انباء أخرى الى تشوهات خلقية حصلت لأطفال جنود خدموا في العراق، واحتمال صلتها باستخدام الأسلحة في الحروب المتتالية التي شهدها العراق، ومنها قذائف اليورانيوم المنضب (24).

وقد تشكلت لجنة في وزارة الصحة تضم ممثلين عن وزارات عراقية معنية لدراسة التشوهات الخلقية في الفلوجة، وهذه اللجنة مدعومة من منظمة الصحة العالمية، وقد تم تخصيص مبلغ من المال لهذا الغرض، هدفها بالدرجة الأساس الوقوف بشكل دقيق على اعداد التشوهات الخلقية في هذه المدينة نظراً لعدم وجود

تـوثيق دقيق لهـذه الحـالات لـدى وزارة الصحــة، وذلك من خلال الأتفـاق علـى اجراء استبيان ميداني في الفلوجة لتوثيق المعلومات.وعقد في اسطنبول، خلال أيام 27– 2010/9/29، مؤتمر(25) شارك فيه وفد عراقي برئاسة وكيل وزارة الصحة الدكتور خميس السعد. ومثل الوفد وزارات العلوم والتكنولوجيا، والبيئة، والصحة، بالتعاون مع منظمة الصحة العالمية، وتم تناول وضع خطة عمل لدراسة ارتفاع نسب التشوهات الخلقية في العراق، وأوضح الدكتور منجد عبد الباقي من دائرة بحوث وتكنولوجيا البيئة والمياه في وزارة العلوم طبيعة مشاركة وزارته: كان لمشاركة الوزارة اثر فعال في طرح أهمية التأثيرات البيئية على ارتفاع نسب التشوهات الخلقية وأهمية إن تكون الدراسة شمولية للحصول على استنتاجات علمية دقيقة لتشخيص الأسباب الرئيسية لهذا الارتفاع، وأضاف بأن لوزارة العلوم والتكنولوجيا فريق عمل ميداني يقوم بالاشتراك مع وزارتي البيئة والصحة بدراسة التلوث البيئي في الفلوجة.ويأتي هذا المشروع على اثر الحملة الإعلامية الواسعة التي أثارت موضوعة انتشار أمراض السرطان والتشوهات الخلقية بعد عام 1990(26).

موقف عراقي غير مسؤول

شهد العامان الأخيران **إصرار** وزارة البيئة العراقية على نفي وجود تلوث إشعاعي، وزيادة الأصابات السرطانية في العراق، وللعلاقة بينهما،بالضد من كل الوقائع والحقائق. وقد إنتقدتها وزارة الصحة على موثقها هذا، ودعت، بعد صمت طويل، إلى الاستعانة بفرق دولية للتخلص من التلوّث الإشعاعي، وعدم الاستهانة بنتائجه المميتة، وجاءت هذه المطالبة بعدما كشفت تقارير حديثة أعدّتها المستشفيات العراقية، عن تزايد نسب السرطانات في شكل غير مسبوق في البلاد نتيجة التلوّث الإشعاعي الذي تعاني منه الكثير من الأحياء المدنية والمناطق القروية في العراق. وبدا أن وزارة الصحة غير مقتنعة بالتحركات المحدودة لوزارة البيئة، إذ أكّدت على لسان الوزير صالح الحسناوي ان الإشعاعات الناشئة عن استعمال اليورانيوم المنضب في الحروب السابقة، تسببت بزيادة الإصابة بالأمراض السرطانية وحالات الإجهاض والتشوهات الخلقية للجنين قبل ولادته، منذ عام 1991 ولحدّ الآن، وزاد أن تحركات وزارة البيئة تسير ببطء في هذا المجال، داعياً إلى الاستعانة بفرق دولية لتخليص العراق من خطر التلوّث الإشعاعي(27).

المؤسف ان هذا الموقف المسؤول تغير فيما بعد كلياً، فنفت وزارة الصحة مؤخراً ارتفاع نسبة المصابين بالسرطان في الفلوجة عن المعدلات الاعتيادية المسجلة، وقالت المتحدثة باسم الوزارة حوراء عبد اللّه: "ان **التقارير الطبية** التي اشارت الى ارتفاع نسبة المصابين بمرض السرطان في الفلوجة بعد العام 2003 **غير صحيحة**"، مشيرة الى ان النسبة "**لم ترتفع ابدا لا في الفلوجة ولا في اية مدينة اخرى في العراق**" (التشديد من عندي–الكاتب). واشارت الى "ان وزارة الصحة اطلعت على التقارير الطبية التي

تحدثت عن ارتفاع نسبة المصابين بالسرطان في البلاد، وتبين من خلال الارقام المتوفرة ان نسبة المصابين بهذا المرض **هي نفس الارقام المسجلة في سجلات الوزارة قبل العام2003**"، مضيفة بالقول "**هذه التقارير تقف وراءها اسباب سياسية لا نعلم غاياتها**".. وفيما أعلنت بان الأرقام لم تتغير مقارنة بما قبل عام 2003، أعلن مدير اعلام مستشفى الفلوجة الدكتور احمد مخلف **ان نسبة الاصابة بالسرطان في المدينة بانخفاض** (28).. **ولا نعلم من هو الصادق**؟

والغريب ان وزارة الصحة إتخذت هذا الموقف ولم تنجز بعد اللجنة المشكلة فيها، وتضم ممثلي عدد من الوزارات، بالتعاون مع منظمة الصحة العالمية، التحقيق الذي بدأ في 6 محافظات عراقية، ويتوقع ان يستغرق 18 شهراً، وحتى **أنه لم يتم الأتفاق بعد** على مفردات الاستبيان الميداني في الفلوجة لتوثيق المعلومات، علماً بأنها **قررت،بعد هذا النفي**، شمول مستشفيات الولادة الأهلية بإعداد استمارات شهرية للاطفال المصابين بالتشوهات الخلقية، واصدرت اعماما الى جميع الدوائر الصحية في المحافظات يتضمن شمول المستشفيات الاهلية التي تحتوي على صالات ولادة بإعداد استمارات شهرية عن المواليد الجدد من الاطفال المصابين بالتشوهات الخلقية وارسالها الى مركز الوزارة بعد توحيدها في شعب الاحصاء في مراكز دوائر الصحة كافة(29).

فما هو تفسير هذا الموقف،الذي أقل ما يقال عنه أنه غير مسؤول؟ **ولمصلحة من** صدر في هذا الوقت بالذات ؟!!

ويذكر ان التقارير الأعلامية التي نشرت عقب نشر نتائج فريق البروفسور بوسبي أشارت – والعهدة عليها– الى ان السلطات العراقية، بالتعاون مع قوات الأحتلال الأمريكي، سعت الى منع الفريق من دخول الفلوجة، وبعد ان دخل وإتصل بالأسر، خاصة التي لديها مرضى أو متوفين بأمراض غريبة، راحت تبث الشائعات، بما فيها إتهام الفريق بالتجسس، وما الى ذلك، ودعا التلفزيون الرسمي الى عدم التعاون مع كل من يبحث عن أسباب التلوث والأمراض في الفلوجة، هذا بدلاً من تقديم التسهيلات والمساعدات لكل باحث يريد التعرف على الأمراض المنتشرة وأسبابها كي تتم معالجتها..

******

لقد أكدت عشرات الدراسات، ومئات التقارير، الاصابات والوفيات التي حدثت وتحدث في العراق جراء إستخدام الاسلحة الأمريكية في العراق، أوردنا نتائج العديد منها في التقرير الذي قدمته "**الحملة من أجل تنظيف البيئة العراقية من مخلفات الحرب وإنقاذ من بقي حياً**" مع أكثر من 5 آلاف توقيعاً لعلماء وخبراء وباحثين وأكاديمين وأطباء وبيئيين، وغيرهم، وأوصلناه الى الأمم المتحدة وحكومات العالم والى الجهات الرسمية العراقية المعنية.

وما أنفكت تتزايد الأصابات والوفيات الناجمة عن السرطان والتشوهات الولادية يوماً بعد آخر. وها هو النصف الأول من

عام2010 يسجل7 آلاف إصابة سرطانية – كما أعلن رسمياً، وكان العام 2009 قد سجل 14123 إصابة سرطانية(30). وأكثر من ذلك بكثير ما حصل من ولادات مشوهة، وإسقاطات، ولاإجراءات جدية لأيقاف الكارثة، ولا حتى إجراءات جدية وفاعلة للتخفيف من معاناة المرضى وعوائلهم.

ولم يعد سراً بإن **الطفولة العراقية** هي الضحية الرئيسية، وما زالت هي الشريحة الأكثر عرضة لتلك المواد المشعة والسامة كيمياوياً. وتشير التقارير الى ان عدد الأطفال المصابين المسجلين في العام 1998 كان 32 الف طفل، إزداد في العام **2008** الى135 الف.

ويشكل الأطفال المصابين بالسرطان أكثر من8% من المصابين بهذا المرض في العراق، مقارنة بالاطفال في الغرب الذين يمثلون أقل من1% (31). ولا يقتصر وجود هذه الاصابات على منطقة واحدة، وإنما شمل اغلب مدن العراق وضواحيها، لكن المناطق التي تعرضت للقصف الجوي، او تلك التي كانت عبارة عن ثكنات للجيش العراقي، او المناطق التي كانت تتواجد فيها منشاَه نووية، هي الاكثر عرضة. وقد طالت الأصابات السرطانية والحالات المرضية الغريبة الصغار والكبار، الأطفال والنساء والرجال، فأنتشرت بينهم سرطانات عديدة، مثل سرطان الرئة، وسرطان المثانة، وسرطان الدم، وسرطان الثدي، واورام الغدد اللمفاوية، وأورام الدماغ، وسرطان المعدة، وسرطان الكبد، وغيرها. أي ان العراقيين جميعا مهددين بالأمراض الخبيثة.

إن محنة اطفال العراق، ومستقبل الشعب العراقي، وما يتعرضون له من تشوهات خلقية رهيبة وإصابات سرطانية غريبة، ينبغي ان تتحول الى ناقوس خطر يذكر الجميع بتداعيات إستخدام الأسلحة المشعة والكيمياوية السامة، وصرخة لايقاظ ضمير المسؤولين الذين تجاهلوا هذه المحنة أو كانوا يتفرجون عليها، وماساة اطفال الفلوجة هي جزء من مأساة أطفال العراق، تلزم الجهات الرسمية المعنية ان تقوم بإجراءات جادة للوقوف على الأسباب الحقيقية لأنتشار الأمراض السرطانية والتشوهات الخلقية، ومنها إشعاعات أسلحة اليورانيوم والفوسفور الأبيض، بدلاً من تكرار مزاعم البنتاغون وأكاذيبه.

ومن العار التستر على جريمة إستخدام الأسلحة المحرمة ضد العراقيين. والشعب لن يغفر للمتسترين والمتواطئين!

الهوامش:

1-Filippova, LG; Nifatov. AP. & Liubchanski. ER.i. (1978). Some of the long –term squeal of giving rat's enriched uranium. Radiobiologia; 18(3):400-405.

2 -Moss, MA. (1985).Chronic low level uranium exposure via drinking water. Clinical investigations in Nova Scotia .Halifax, Dalhousie University M.Sc.thesis.

3- د. منجد النائب، أثر التلوث البيئي في زيادة الأصابة بالأمراض السرطانية في المناطق الجنوبية، مداخلة قدمها في مؤتمر اسطنبول،الذي إنعقد خلال أيام 27-29 أيلول 2010، وكرس لمشروع دراسة التشوهات الولادية في الفلوجة.

4- "رويترز"،2009/1/11
5- "الجزيرة.نت"، 2009/1/7
6 -aq littered with high levels of nuclear and dioxin contamination, study finds• Greater rates of cancer and birth defects near sites, Depleted uranium among poisons revealed in report, By Martin Chulov - Baghdad, The Guardian, UK, 22 January 2010.
7-UNEP,Assessment of Environmental "Hot Spots" in Iraq, First published in Switzerland in 2005 by the United Nations Environment Programme. ISBN 92-807-2650-1
8- "العالم الأخباري"،2010/5/23
9- "المتوسط اونلاين"، 2009/11/11
10" المدى"، 2009/3/17
11- "رويترز"، 2009/12/1
12- مركز دراسات الأستقلال، 2010/6/12
13- "الوسط"،العدد 2773، 2010/4/10
14- ("الجزيرة نت"،2009/10/29
15- "القدس العربي"، 2010/6/26
16- Fallujah's infants suffer from sharp rise in birth defects,By Joe Byrne,The Guardian,– UK,14 November 2009.
17- "القدس العربي"، 2010/6/26
18-Briefing: Iraqi child defects:Doctors in Fallujah have been reporting a rise in the number of children born with shocking abnormalities. Is the war to blame or is there another cause?, By:Gillian Passmore, The Sunday Times, 7 March 2010
19-Chris Busby, , Malak Hamdan and Entesar Ariabi ,Cancer, Infant Mortality and Birth Sex-Ratio in Fallujah, Iraq 2005–2009,The International Journal of Environmental Research and Public Health (IJERPH), 2010, 7(7), 2828-2837.
20–قناة " الجزيرة" الفضائية،برنامج" بلا حدود،مقدم الحلقة: أحمد منصور،ضيف الحلقة: البرفسور كريس باسبي ، تاريخ الحلقة: 2010/6/30
Alastair Hay: It is vital America discloses what weapons were deployed, The Indepen- 21 dent, UK, 4 May 2010.
22- "القدس العربي"، 2010/6/26
23-Army to be used for war crimes over its role in Fallujah attacks:Parents of children with birth defects say Britain knew of US chemical weapons use, By Robert Verkaik, Law Edito, The Independent, UK. May 6, 2010.
24.جنيف – فرانس برس"،2010/10/7
25-First Technical Consultation Meeting on the project:"Pilot Assessment of Congenital Birth Defects(CBD) in Iraq", 27-29 September 2010, Istanbul, Turkey
26- موقع:وزارة العلوم والتكنولوجيا، الأخبار،2010/10/5
27- "الحياة"، 2009/12/4
28- وكالة ؟أصوات العراق؟،2010/10/7
29- "الصباح"، 2010/10/28
30- بغداد- وكالات:"طريق الشعب"، 2008/8/26
31- حمزه الجناحي ، الطفولة العراقية،"الحوار المتمدن"، العدد: 2703، 2009/7/10

النظرية الخاصة للنسبية لآينشتين

ومرجعية الدولة المدنية والدولة الدينية

أ.د.عبد الكاظم ماجود، أكاديمي وباحث

الدكتور عبد الكاظم ماجود عون أستاذ الفيزياء في جامعة التحدي/ليبيا، حاصل على درجة الدكتوراه في فيزياء البصريات والليزر من جامعة مينسك عام 1981. عمل أستاذا في العديد من الجامعات الجزائرية والليبية. عاد الى العراق خلال الفترة 2005- 2006 حيث عمل أستاذا في الجامعة المستنصرية ولكن وبسبب الظروف الأمنية التي شهدتها البلاد خلال تلك الفترة، وخصوصا 2006، اضطر الدكتور ماجود الى العودة من جديد الى ليبيا حيث ما زال يعمل هناك. كتب العديد من الأبحاث إضافة الى تأليفه خمسة كتب منهجية في موضوع اختصاصه وهي: دراسة في النظرية الاهتزازية (الجزائر 1985)، تمرينات في الضوء الهندسي (الجزائر 1987)، مقدمة في ميكانيك الكم (الجزائر 1992)، البصريات (ليبيا 2002)، الليزر في النظرية والتطبيق (ليبيا 2002). ويقدم الدكتور عبد الكاظم في مقاله هذا مقاربة ملفتة حيث يحاول البحث في المشتركات بين فيزياء الكم والحياة الاجتماعية.

من هو (آينشتين) ؟ هو عالم الفيزياء العبقري وصاحب النظرية الخاصة للنسبية والنظرية العامة للنسبية، الألماني المولد والجنسية، الصبي والطالب المشاكس، المعترض على مدرسي الفيزياء والرياضيات دائما، الموظف في دائرة الاختراعات في سويسرا، والدكتور العالم البارز ورئيس جامعة زيورخ. إنه حجة العلم والعلماء في

عصره ومرجعية الفيزياء الحديثة، غير المؤمن تماما بنظرية الاحتمالات في ميكانيك الكم.

وُلد آينشتين في 14 مارس1879 في ألمانيا في مدينة صغيرة اسمها أولم، وبعد عام انتقلت عائلته الى مدينة ميونخ. والده هرمان والدته بولين كوخ من عشاق الموسيقى، وله أخت تصغره بعام.

لم يكن يعجبه نظام المدرسة وطريقة التعليم التي تحصر التلميذ في نطاق ضيق ولا تدع له مجالا للإبداع وإظهار إمكانياته. كان يحب الصمت والتفكير والتأمل، ولم يهو اللعب مع أقرانه. ذات مرة أهداه والده بوصلة صغيرة في عيد ميلاده العاشر فكان لها الأثر البالغ في نفسه وبإبرتها المغناطيسية وكيف تشير دائما الى الشمال والجنوب، مستخلصا منها بعد تأمل عميق أن الفضاء ليس خاويا، ولابد أن يكون فيه ما يحرك الأجسام ويجعلها تدور في نسق معين. تعلق آينشتين في شبابه بعلم الفيزياء والرياضيات وبرع فيهما، ولكن في البيت وليس في المدرسة. ووجد متعة في علم الهندسة وحل مسائلها. تعلم الموسيقى وهو في السادسة من عمره، وكان يعزف على آلة الكمان. كانت اكبر مشكلة يعاني منها هي اضطراره لدراسة اللغات والعلوم الإنسانية التي لا تطلق للفكر العنان. وكان كثيرا ما يحرج أساتذة الرياضيات لدرجة أن احد الأساتذة طرده من المدرسة قائلا له: وجودك في المدرسة يهدم احترام التلاميذ لي.

لم يكن آينشتين عالم فيزياء من طراز جديد حسب، بل وكان إنسانا بالدرجة الأولى. فقد كان صديقا للينين ولشارلي شابلن ولكل رجالات النضال من اجل الحرية والديمقراطية، وعدو لدود للنازية الهتلرية. هاجر الى أمريكا عندما اعتلى (هتلر) عرش الرايخ الثالث. كان محبا للسلام، ورافضا للحرب ولصناعة أدواتها.

فقد تألم كثيرا عندما علم أن العلماء الأمريكان وزملاءهم الألمان والهنغاريين المعادين لهتلر، بصدد صناعة القنبلة الذرية اهتداء بنظريته عن الطاقة والمادة ومعادلته الشهيرة عن الجسيمات التي تتحرك بسرع نسبية تقترب من سرعة الضوء :

حيث الطاقة الناتجة عن انفجار جسيم كتلته m صغيرة للغاية كالبروتون أو النيوترون أو الديتريوم (وجميعها جسيمات موجودة في نواة الذرة) تساوي حاصل ضرب الكتلة في مربع سرعة الضوء.

كانت محاضرات آينشتين عن نظرية النسبية في جميع الجامعات التي يدعى إليها ليست موجهة لعلماء وطلبة الفيزياء فحسب، بل كانت محاضرة عامة يحضرها جميع الناس باحتفالات هائلة. وهذا هو سر تقدم الإنسان الأوربي! ليس الوهم والخرافة وتغييب العقل، بل العلم والتجربة وإشغال العقل لجميع الناس، المتعلم والبسيط غير المتعلم. علينا التوجه الى هؤلاء، كل بمستوى وعيه وباللغة التي يفهمها، نبسط له المفاهيم تدريجيا ونحاكي عقله لتخليصه من الأوهام والزيف والمطلق، فكل شيء نسبي وقابل للحوار والجدل.

كانت الموسيقى سبيل آينشتين الوحيد للتنفيس عن ثورته العارمة. كان الكون بالنسبة له مسرحا ينتزع منه الفكرة والحكمة في 18 أبريل 1955 توقف قلب ودماغ هذا الفيزيائي العظيم الذي كشف الكثير من أسرار الكون والحياة.

ماهي نظرية النسبية؟

كانت الفيزياء في نهاية القرن التاسع عشر تقف على أعتاب مرحلة مفصلية من تطورها وقدرتها على حل المشاكل التي تصدى لها الفيزيائيون آنذاك رغم أن النظريات الفيزيائية كانت قد تطورت على مدى القرون الثلاثة التي سبقت نهاية القرن التاسع عشر، واستطاعت تفسير الكثير من الظواهر الطبيعية، فميكانيك نيوتن شرح بشكل رائع حركة الأجسام على الأرض وفي الفضاء، إضافة الى ذلك صياغته لأسس التعامل الناجح مع السوائل، الحركة الموحية، والصوت، شرحت النظرية الحركية سلوك الغازات ومواد أخرى، نظرية ماكسويل للكهرومغناطيسية لم تجلب سوية وتشرح الظواهر الكهربائية والمغناطيسية فحسب، بل وتوقعت وجود الموجات الكهرومغناطيسية، تلك التي تسلك كل طريق تماما مثل الضوء – ومن هنا أيضا فكرة أن الضوء هو موجات كهرومغناطيسية. وبدا العالم الطبيعي في عين الفيزياء معروف جيدا، لكن بعض الظواهر ظلت دون تفسير. وكان من غير الممكن إيجاد حلول لها وفق مفاهيم الفيزياء آنذاك، المعروفة بـ "الفيزياء الكلاسيكية أو التقليدية"، وكان لابد من أفكار جديدة ثورية في علم الفيزياء.

في بداية القرن العشرين حدثت ثورتان: الأولى ثورة النسبية والثانية ثورة ميكانيك الكم، والثورة هنا بمعنى ذلك التغيير المنطقي العلمي المبني على التجربة والمشاهدة لمجمل المفاهيم العلمية والقيم الاجتماعية التي يجدها الناس عاجزة عن إيجاد الحلول الصحيحة لمشاكلهم والنهوض بهم نحو الأفضل، وعلى هذا الأساس جاءت النظرية الخاصة للنسبية حلا لما عجزت عنه الفيزياء الكلاسيكية أن تجد حلا له، ليس في حقل العلوم الفيزيائية المجردة، بل تعدت ذلك الى الحياة العامة للناس وللطبيعة والثقافة.

النظرية الخاصة للنسبية لآينشتين أول ما تعاملت مع كيف نرى الحدث؟، خصوصا مع كيفية رؤية الأجسام والأحداث من أطر إسناد مرجعية مختلفة (أنظمة إحداثيات مرجعية)، الموضوع الذي دُرس من قبل غاليلو ونيوتن، عالما الفيزياء الكلاسيكية.

النظرية الخاصة للنسبية تعاملت مع الأحداث التي تشاهد وتقاس من ما يعرف بأطر الإسناد المرجعية العطالية(القصورية)، تلك التي يصح فيها قانون نيوتن الأول (الجسم الذي لم يخضع لمحصلة قوى، أما أن يبقى ساكنا أو يستمر بحركته بانطلاق ثابت في خط مستقيم). الأرض، مثلا، ليست تماما إطارا عطاليا. فالأطر الدوارة، أو بعبارة أخرى، المتسارعة، هي ليست أطرا عطالية.

الإطار المرجعي العطالي هو ذلك الإطار الذي يتحرك بسرعة ثابتة بالنسبة الى إطار مرجعي آخر هو نفسه إطارا عطاليا آخر، لان قوانين نيوتن تصح فيه. عندما نقول أننا نشاهد أو نعمل قياسات من إطار مرجعي معين، فذلك يعني أننا في سكون في ذلك الإطار المرجعي.

يختلف موقع الجسم وكذلك سرعته عندما يوصف في اطر مرجعية مختلفة. فمثلا، إذا تحرك شخص داخل سيارة بسرعة 2m/s (2متر/ثانية) وكانت السيارة تتحرك بسرعة 10 m/s بالنسبة للأرض، حينذاك ستكون سرعة الشخص بالنسبة للأرض تساوي مجموع سرعته بالنسبة

للسيارة + سرعة السيارة بالنسبة للأرض = 12متر/ثانية بالنسبة للأرض.

تسارع الجسم a (تغير سرعته في الزمن، أي أن t) هو نفسه في جميع الأطر المرجعية.

فمثلا، الشخص الذي يتحرك في السيارة قد يسرع حركته (أي يغير سرعته) من الصفر الى 2 متر/ثانية خلال زمن مقداره1 ثانية، لذلك فان تسارعه هو 2m/ = a وفي الإطار المرجعي للسيارة بالنسبة للأرض، فان تسارع الشخص هو نفسه في الإطارين المرجعيين، الإطار المرجعي للسيارة والإطار المرجعي للأرض.

ولأنه لا القوة F، ولا الكتلة *m* ولا التسارع a يتغيرون من إطار مرجعي الى آخر.

فان قانون نيوتن الثاني F = ma لن يتغير، معنى ذلك أن قانون نيوتن الثاني يفي بمبدأ النسبية، والشيء نفسه يمكن ملاحظته بالنسبة لقوانين الميكانيك الأخرى، ذلك يعني أن قوانين الميكانيك هي نفسها في جميع الأطر المرجعية العطالية، ما يعني ضمنا أن ليس ثمة إطار عطالي واحد هو إطار خاص ولا بأي معنى من المعاني. وهذا يعبر عنه بخلاصة مهمة تقول أن:

جميع الأطر المرجعية العطالية متكافئة لوصف الظواهر الميكانيكية، فليس ثمة إطار مرجعي عطالي واحد أفضل من الآخر. وهذه هي العدالة في الأرض وفي السماء وفي النظرية الخاصة للنسبية.

ماذا نستفيد من مفهوم تكافو الأطر المرجعية في النظرية النسبية؟

يمكن النظر الى كل إنسان بوصفه إطارا مرجعيا لا قصوريا تماما (بوصفه يمتلك القدرة على تغيير حالته)، مستقلا عن الأطر المرجعية العطالية الأخرى وغير تابع أو مقلد لأي اطار مرجعي آخر، الناس كالنجوم، كل نجمة لها إطارها المرجعي العطالي الخاص بها وتقاس علاقاتها بالنجوم الأخرى نسبة الى إطارها المرجعي العطالي هي، وهذا لايتناقض مع حقيقة كونها منتمية لمجرة ما، فليس ثمة نجمة مرجعية لنجمة أخرى. المرجع الوحيد لكل النجوم في المجرة المعينة هو مركز المجرة، وهو مركز ثقالي فحسب، تدور حوله كل النجوم، بقانون صارم، وعادل هو قانون المجرة.

كل نجمة في المجرة لها خط سيرها وسرعتها بالنسبة الى خطوط سير وسرع النجوم الأخرى. المواطن في بلد الديمقراطية والعدالة الاجتماعية نجمة مشعة للضوء، مجرته هي الدولة المدنية. إن المقصود بالدولة المدنية هنا هي الدولة المؤسساتية التي تحكمها المؤسسات ذات السلطات المستقلة، الدولة التي تحترم استقلالية الأطر المرجعية العطالية لمواطنيها. المرجعيه الوحيدة للمواطن هي مرجعية الدولة المدنية بقانونها العادل ودستورها الخالي من التمييز بين المواطنين، بهذا المعنى تتمتع الدولة هي الأخرى بإطارها المرجعي اللاقصوري تماما، الذي من خلاله يتم تنظيم وتحديث العلاقة بينها وبين الأطر المرجعية لمواطنيها، وعلى هذا الأساس، فان مرجعية المواطن للدولة هي مرجعية نسبية وليست مطلقة. كل الأشياء التي تربط المواطن بالدولة وبالآخرين تقاس بالنسبة الى إطاره المرجعي الشبه العطالي هو، الى ما يرسخ كيانه الإنساني ويحسن مستوى

عيشه ويعزز كرامته وينمي وعيه ويساعده على الابتعاد عن الجهل والخرافة. فالبعد أو القرب بين المواطن والدولة يقاس بقرب الدولة منه أو بعدها عنه وليس العكس، مرجعية المواطن للدولة المدنية تتمظهر في الخدمات التي تقدمها الدولة له، في إشراكه الفعلي في تقرير مصيره وفسح المجال الكافي له للتعبير عن نفسه وعن قدراته ومواهبه، وبقدر ما ترتقي الدولة في أداء مهماتها إزاء مواطنيها بقدر ما تتطور علاقتها النسبية بالمواطن وتتغير لغة المخاطبة بينهما، وهذا هو الشيء الطبيعي، وهنا يجب التمييز بين الدولة كمؤسسات خدمية ذات علاقة نسبية بالمواطن والوطن كانتماء وهوية رغم انه ليس مطلقا. أما المرجعية الدينية أو المذهبية أو القومية أو العشائرية للدولة أو للمواطن، فهي مرجعية مطلقة، يتخلى الإنسان فيها أو الدولة المدنية (طواعية أو قسرا) عن إطاره المرجعي المستقل ويفقد إرادته الحرة ويستبدل عقله المبدع، المبتكر بعقل مغيب، موهوم، وسلبي، لايناقش، لايعترض، لايشك. لان هذه المرجعيات تضع نفسها في إطار مرجعي مطلق وتفترض أن الدوران حول الكون أو حول الأرض إنما يتم من خلالها هي فقط، وفقط هي. الشك أو الاختلاف أو الاعتراض على أصل الفكرة، فكرة هذه المرجعيات غير وارد ومرفوض بالمطلق، ذلك لأنها مرجعيات مطلقة وليست نسبية لأنها لاينتخبها الناس ولايختاروها ولايناقشون صلاحها وفوائدها من عدمها. في الجانب الآخر، تخضع مرجعية الدولة المدنية لمعايير نسبية متغيرة بقدر ما تتغير وتتطور متطلبات المواطنين من الدولة ووفائها لهذه المتطلبات وفقا للعقد الاجتماعي المبرم بينهما من خلال الالتزامات التي يعرضها المتصدي لاستلام السلطة وفق مبدأ التبادل السلمي لها في برنامجه الانتخابي، القائم بالأساس على احترام رأي المواطن وإرادته الحرة المستقلة في حساب ومحاسبة سلطة الدولة التنفيذية وحتى إسقاطها عندما تصبح عاجزة عن تنفيذ ما التزمت به إزاء المواطن، وهذا هو جوهر نسبية العلاقة بين الدولة الديمقراطية والمواطن. نسبية الدولة ومرجعيتها المدنية تتمظهر في التبادل السلمي لسلطتها التنفيذية وقدرة المواطنين على إسقاط هذه السلطة عندما تنحرف عن المعيار النسبي بينها وبين المواطن الى المعيار المطلق المستند الى التفويض الالهي بدل التفويض الشعبي، وعندها يتحول المواطن الى رعية والدولة الى راع وتتحول لغة العلم ونسبية الأطر المرجعية الى لغة الوصاية والتبعية، وتتحول التجربة والبرهان المنظور الى الهرطقة والاعتداء الفاضح على العقل الإنساني. للدولة فقط وفقط الدولة حق مرجعية مواطنيها إليها لأنها إطار مرجعي نسبي منوب عن المواطنين أنفسهم وخادما لمصالحهم وأمنهم ومنظم لعلاقاتهم الاجتماعية وفق ثقافة الحوار وقبول الاختلاف و رفض العنف والعنف المضاد.

جميع المرجعيات نسبية: مرجعية الدولة لمواطنيها، مرجعية الأب لابنائه، مرجعية الزوجة لزوجها. والقوانين التي تنظم هذه المرجعيات يجب أن تكون قوانين نسبية، مدنية، قائمة على أساس التكافؤ في الحقوق والواجبات، بصرف النظر عن الجنس والدين والمذهب والقومية: يتمتع فيها

الطرفان كل بإطاره المرجعي النسبي بكامل الحقوق، وليس ثمة طرف بإطار مرجعي مطلق.

1 . فرضيات النظرية الخاصة للنسبية:

Postulates of Special Theory of Relativity

الفرضية الأولى: (مبدأ النسبية أو مبدأ تكافؤ الأنظمة القصورية -relativity principle) تمتلك قوانين الفيزياء نفس الشكل في جميع الأطر المرجعية القصورية.

الفرضية الثانية تتساوق مع الأولى .

الفرضية الثانية: (اتساق سرعة الضوء): ينتشر الضوء خلال الفضاء الخاوي بسرعة محدودة c لا تعتمد على سرعة المصدر أو المشاهد.

هاتان الفرضيتان تشكلان أساس **النظرية الخاصة للنسبية لأينشتين**. وتدعى بالخاصة تمييزا لها عن نظريته اللاحقة "**النظرية العامة للنسبية**" التي تتعامل **مع أطر مرجعية غير عطالية مسرعة**

(non inertial refence frames)

قد تبدو الفرضية الثانية صعبة القبول. فقبل كل شيء علينا أن نعتقد أن الضوء ينتقل خلال فضاء فارغ. بمعنى أن لا وجود لما يعرف بـ الأثير ether الذي كانوا يقولون به علماء الفيزياء الكلاسيكية. فضلا عن ذلك تخبرنا الفرضية الثانية أن سرعة الضوء في الفراغ هي دائما3، وليس مهما ماذا كانت سرعة المراقب (المشاهد) الراصد أو المصدر، وهكذا، فان الشخص الذي يتحرك نحو المصدر الضوئي أو بعيدا عنه يقيس نفس السرعة لذات الضوء كما لو أنه كان ساكنا بالنسبة للمصدر، وهذا يتعارض مع تجاربنا اليومية: فتوقعاتنا أن سرعة المشاهد يجب أن تضاف كما يحصل في حالة الصوت، من جهة أخرى، قد لا نستطيع توقع أن تكون تجاربنا اليومية مفيدة عندما نتعامل مع السرعة العالية للضوء الأكثر من ذلك، أن بطلان نتيجة تجربة مايكلسون – مورلي يتساوق تماما مع الفرضية الثانية (كان العلماء يتوقعون أن تثبت تجربة مايكلسون – مورلي أن سرعة الشعاع الضوئي الموازي للأثير، الذي كانوا يعتقدون بوجوده في الفضاء، أقل من سرعته عندما يكون عموديا على الأثير، لكن هذا لم تثبته التجربة، بل تبين أن الشعاع الضوئي يسير بنفس السرعة في جميع الاتجاهات في الفضاء، وهذا ما عجزت عن تفسيره الفيزياء الكلاسيكية وعلماؤها آنذاك، ما شكل أزمة لفيزيائيي ذلك العصر، ومن هنا جاءت النظرية الخاصة للنسبية لأينشتين حل لهذه الأزمة، قائم على أساس أن لا وجود لشيء اسمه الأثير وان الضوء يرتحل بنفس السرعة في جميع أطر الإسناد العطالية سواء على الأرض أو على أي كوكب أو نجمة أخرى. إن هذا المفهوم عن سرعة الضوء كونه واحدا في جميع اطر الإسناد المرجعية يشبه الى حد كبير مفاهيم: الحرية، الديمقراطية، حقوق الإنسان، العدالة الاجتماعية. فهي جميعها مفاهيم نسبية وليست مطلقة، تصح في جميع اطر الإسناد المرجعية (لكل شعوب الأرض، كل وفق منظومة قيمه الاجتماعية، ولا بديل عنها بأية مفاهيم مطلقة موهومة، مزيفة ومفصلة وفقا لمقاييس الحاكم أو الرجل اللاهوتي، بحجة

الخصوصية والدين والعادات. فجميعها حجج لا أساس لها من الصحة.)

بافتراض أن الأثير غير موجود، فان المكان المطلق لا وجود له، وليس ثمة إلا المكان النسبي والسرعة النسبية.

2. التزامن (Simultaneity):

النتيجة الهامة لنظرية النسبية هي أننا لا نستطع طويلا أن نعتبر الزمن كمية مطلقة، لا أحد يشك **أن الزمن يجري الى الأمام ولا يعود أبدا الى الوراء**. لكن الفاصل الزمني بين حدثين، سواء كان الحدثان متزامنين أم لا، يعتمد على الإطار المرجعي للمراقب أو الراصد. والمقصود بالحدث هنا، هو شيء ما يحدث عند مكان معين وعند زمن معين.

يقال أن الحدثين متزامنان إذا كانا قد حدثا عند نفس الزمن تماما. ولكن كيف لنا أن نعلم ما إذا كان الحدثان قد حدثا تماما عند نفس الزمن؟ لو حدثا عند نفس النقطة في الفضاء – كتفاحتين سقطتا على رأسنا عند نفس الزمن، حينها يصبح من السهل القول أن الحدثين متزامنان، لكن إذا وقع الحدثان عند مكانين منفصلين جدا، فمن الصعوبة بمكان أن نعرف فيما إذا كان الحدثان متزامنين أم لا، لأننا يجب أن نأخذ بالحسبان الزمن الذي يأخذه الضوء من موقعي الحدثين حتى يصل إلينا.

ولان الضوء يسير بانطلاق محدود، فان الشخص الذي يرى، يجب أن يرجع بحسابه الى الخلف ليحدد متى حدث الحدثان فعلا؟ فمثلا، لو شوهد حدثان عند نفس الزمن، وكان احدهما اخذ فعلا مكانا ابعد عن المراقب من الآخر، حينئذ يجب أن يكون الحدث الأكثر مسافة قد وقع مبكرا، وبالتالي، فان الحدثين غير متزامنين.

يمكن لنا أن نتصور الآن تجربة بسيطة الفكرة: نفرض أن مشاهدا يدعى O تموضع تماما عند منتصف المسافة بين نقطتي A و B حيث وقع حدثان، نفرض أن الحدثين هما برق يصدم كل من النقطتين A وB لحدثين وجيزين مثل البرق، سوف تنتقل فقط النبضات القصيرة للضوء من A الى B وتصل O.

المشاهد O يشاهد الحدثين عندما يصل نبضا الضوء النقطة O. إذا وصل نبضا الضوء النقطة Oعند نفس الزمن، عندئذ يجب أن يكون الحدثان متزامنين، وهذا لان نبضا الضوء يسيران بنفس السرعة (الفرضية الثانية)، ولان المسافةOA تساوي OB، والزمن اللازم للضوء لكي ينتقل من Aالى O ومن B الى O يجب أن يكون هو نفسه.

3. تباطؤ الزمن: Time dilation

حقيقة تزامن حدثين بالنسبة لمشاهد معين قد لا تكون كذلك بالنسبة لمشاهد آخر. قد يمر الزمن بصورة مختلفة في احد الأطر المرجعية عنه في إطار مرجعي آخر. وهذا هو في الواقع ما توقعته نظرية آينشتين للنسبية كفكرة التجربة التالية التي تخيلها آينشتين بنفسه (رغم أن آينشتين لا يملك أدوات مختبرية ولا عمره دخل في مختبر لكنه يجري تجاربه في دماغه لجميع أفكاره التي يطرحها وعلى العلماء الذين يستوعبون هذه الأفكار أن ينفذوا هذه التجارب. لم يحصل أبدا أن تجربة ما تخيلها آينشتين استحال تحقيقها إلا بمقدار عدم توفر أدواتها بعد.)

ليس من السهل تقبل مفهوم تمدد الزمن

وذلك لتعارضه مع تجاربنا الحياتية اليومية. ففي السرعات العادية يمكن إهمال أثر تمدد الزمن مالم تكن سرعة الساعات المتحركة قريبة بشكل ملموس من سرعة الضوء c فإذا كانت أصغر بكثير من c، فان المقدار يصبح أقل بكثير من1 ويصبح t. السرع التي نتعرض لها في حياتنا اليومية أصغر بكثير من سرعة الضوء ولهذا لا يمكن من خلالها ملاحظة تمدد الزمن. لكن ثمة تجارب أجريت لفحص تمدد الزمن واثبات توقعات آينشتين. ففي 1971، مثلا، وضعت ساعات ذرية في طائرات (جت) طارت حول العالم بسرعة 1000 كم/ساعة، وهي أقل بكثير من سرعة الضوء (300 ألف كم/ثانية)، كانت الساعات مضبوطة لحد النانو ثانية لكي تكشف أي تمدد للزمن، وقد أثبتت ذلك، وتأكدت صحة تباطؤ الزمن ضمن حدود الخطأ التجريبي. إثبات تباطؤ الزمن تم قبل ذلك بعقود من خلال مراقبة سلوك الجسيمات الصغيرة جدا كالميونات، التي تنتج في طبقات الجو العليا نتيجة لامتصاص الغلاف الجوي للأشعة الكونية، و لا تتجاوز كتلها، والتي لا تتطلب طاقة كبيرة لتسريعها الى سرع تقترب من سرعة الضوء.

وهي على العموم غير مستقرة وتتحول الى الكترونات بعد مرور 2.2 جزء من مليون من الثانية (أي بعد2.2us)وهي ساكنة. بينت التجارب الدقيقة أن الميونات التي تسير بسرع عالية عمرها المقاس أطول بكثير مما هو عليه وهي ساكنة، تماما كما تتوقعه فرضية تباطؤ الزمن. فمثلا، جسيم الميون الساكن الذي عمره 2.2us المقاس من قبل مراقب في المختبر إذا سُرّع الى سرعة 60% من سرعة الضوء C 0.60) (يصبح عمره 3.492 جزء بالمليون من الثانية، وهو اكبر من عمره وهو ساكن بـ 1.292 جزء من مليون من الثانية. وهذه زيادة ليست باليسيرة قياسا بعمر السكون. في السرع العادية اليومية هذه الزيادة ليست ذات بال. فمثلا، لو كنا نراقب الزمن في ساعة سيارة كانت تسير بسرعة 100كم /ساعة في ساعة يدنا التي ضبطت مع ساعة السيارة ونحن واقفون على الأرض، سنجد بعد مرور 10 ثواني من انطلاق السيارة وفقا لما سجله سائقها، أن ساعتنا تقرأ زمنا مقداره 4 /ألف بليون من الثانية. وهي زيادة صغيرة جدا رغم أنها دخلت في حسابات الفمتو ثانية المعاصرة (1فمتوثانية = 1/ألف بليون من الثانية).

إن الزمن الحقيقي لحدث ما هو الزمن الذي يقيسه مراقب ثابت بالنسبة للأرض.

4. السفر الفضائي Space Travel

لتمدد أو تباطؤ الزمن أهمية تأملية فائقة في السفر الفضائي. فطبقا للفيزياء الكلاسيكية (النيوتنية)، من غير الممكن تخيل الوصول الى نجمة تبعد عنا 100 سنة ضوئية (السنة الضوئية هي المسافة التي يستطيع الضوء قطعها في سنة واحدة (سرعة الضوء في الثانية الواحدة =300 الف كم في الثانية).

حتى لو أن سفينة فضائية استطاعت أن تسير بسرعة قريبة من سرعة الضوء، للزم لها أكثر من 100 سنة ضوئية لكي تصل النجمة، لكن ظاهرة تباطؤ الزمن تخبرنا أن الزمن المستغرق اقل من ذلك بالنسبة لرائد الفضاء.

ففي السفينة الفضائية التي تسير

بسرعة 0.999 من سرعة الضوء (V= 0.999 C) يكون الزمن الذي يسجله رائد الفضاء مساويا لـ4.5 سنة. وهكذا يسمح تباطؤ الزمن بمثل هذه الرحلة، لكن ضخامة المشاكل العملية لبلوغ هكذا سرعة يحول دون ذلك، ولا حتى في المستقبل المنظور.

لاحظ في هذا المثال، إن 100 سنة تمر على الأرض، يقابلها فقط 4.5 سنة تمر على رائد الفضاء في رحلته.

والسؤال هنا هو: هل أن ساعات السفينة الفضائية فقط هي التي تتباطأ بالنسبة لرائد الفضاء؟ والجواب كلا. ليس ساعات السفينة الفضائية هي فقط التي تتباطأ، بل جميع العمليات، بضمنها العمر وعمليات الحياة الأخرى، جميعها تجري ببطء أكثر بالنسبة لرائد الفضاء طبقا لمراقب على الأرض. سيمارس رائد الفضاء خلال هذه الـ 4.5 سنة نشاطا عاديا، ينام، يأكل، يقرأ، يمارس الرياضة، ويسمع الموسيقى، الى آخره، بينما يعاني الناس 100سنة من مصاعب الحياة العادية على الأرض. (أليس الأفضل للعراقيين أن يبحثوا عن سفينة فضائية تقلهم الى نجمة تبعد عن الأرض ليس 100سنة ضوئية فقط، بل ألف سنة ضوئية حتى يفسحوا المجال لوزير الكهرباء القادم في الحكومة الجديدة أن يأتي بالكهرباء، ولأمين بغداد ووزارة البلديات أن يأتوا بالماء لبيوت الفقراء في أحياء بغداد الشعبية كالحرية والشعلة والدولعي وحي السلام والثورة.

وهكذا بالنسبة للعمل والسكن وتبليط الشوارع، وتنشيط التعليم ودعم الثقافة والموسيقى وتوفير الأمن والأمان لكل العراقيين.

5. انكماش الطول Length contraction

في النظرية الخاصة للنسبية لآينشتين، ليس فقط الفواصل الزمنية هي التي تختلف في الأطر المرجعية العطالية المختلفة، بل والفواصل الفضائية كالأطوال والمسافات أيضا.

وهذه نتيجة عامة للنظرية الخاصة للنسبية تنطبق على أطوال الأجسام وعلى المسافات بين الأجسام أيضا، ونصها يمكن أن يكون كالتالي:

طول الجسم المقاس يمكن أن يكون أقصر عندما يكون الجسم متحركا بالنسبة للمشاهد منه عندما يكون ساكنا، وهذا يدعى بانكماش الطول.

6 . الزمكان (الفضاء- الزمان) الرباعي الأبعاد Four – Dimensional Space – Time

دعنا نحلم، دعنا نتخيل أن العراقيين عطفت عليهم الطبيعة وتولوا أمرهم بأيديهم مثل بقية سكان الأرض واشغلوا عقلهم الجمعي ومخزونهم الحضاري العظيم وحرروا إرادتهم في الحياة الكريمة المعززة دون هذا الذل والعوز والحرمان و وجهوا أنظارهم صوب القمم الذكية كاليابان أو الصين، وهم ليسوا أقل ذكاء من هؤلاء، وصنعوا قطارا كالقطار الياباني الذي يتحرك بقوة المجال الكهرومغناطيسي بسرعة عالية قد تصل في المستقبل الى 0.65 من سرعة الضوء (0.65 C).

لنفرض أن هؤلاء الصناع العراقيين الموهوبين صنعوا مثل هكذا قطار وأنابوا احدهم ليستقله ويتصرف كياباني يحترم الوقت، فيبدأ بتناول الفطور في السابعة

صباحا وينتهي منه في السابعة والربع، أي أن الوقت المسموح به للإفطار هو 15 دقيقة، التزم المندوب، كأي بروليتاري منضبط، ونفذ الاتفاق طبقا لساعته في القطار، بمعنى أن هناك حدثان، على المندوب أن ينجزهما! الأول، بدء الفطور والثاني، انتهاؤه، وقد أخذا مكانا عند نفس النقطة على القطار. لذلك، فان الزمن الحقيقي الفاصل بين هذين الحدثين هو 15 دقيقة على راكب القطار أن ينهي فطوره خلالها. لكن بالنسبة للمراقبين المودعين في المحطة كان زمن تناول زميلهم لفطوره، طبقا لساعاتهم، أطول، ليس 15 دقيقة، بل 20 دقيقة (كان هذا وفقا لظاهرة تباطؤ الزمن) وهذا ما أعتبروه خرقا للاتفاق. لكن عند قراءتهم لقانون تباطؤ الزمن (فقرة 3) وجدوا أن زميلهم على صواب، لأنه هو مراقب ثابت بالنسبة لساعة القطار، المتحرك بالنسبة للمراقبين الأرضيين. لم تنته اندهاشات زملاء المندوب راكب القطار عند هذا الحد، بل شاهدوا أن وجبة الفطور قُدمت لزميلهم على طاولة قطرها وفق قياساتهم الأرضية كان 15 cm، وهذا ماعجبوا له، متسائلين: كيف تكفي طاولة فطور بهذه المساحة، لكن الحقيقة كانت أن طاولة الفطور بقطر 20 cm وليس 15 cm، وان السر يكمن في ظاهرة انكماش الطول بالنسبة لهم كمراقبين ثابتين بالنسبة للطاولة المتحركة. هذا الإدراك للفعلين، تمدد الزمن و انكماش الطول، هو ميزان أحدهما للآخر. فعندما ننظر من الأرض الى جسم متحرك بسرعة عالية، فان ما يبدو أنه فقده في الحجم يكون قد اكتسبه في طول الزمن الذي استمره. هذا يعني أن الفضاء، أو الطول، يتحول الى أو يستبدل بالزمن (for time exchanged).

اعتبارات مثل هذه تقود الى فكرة **الزمكان (الفضاء – الزمان) الرباعي الأبعاد: الفضاء** يأخذ ثلاثة أبعاد و يأخذ **الزمن** البعد الرابع. وهما (الفضاء والزمن) مرتبطان بصورة جوهرية وصريحة. تماما كما لو أننا عصرنا بالون هواء، فإننا بذلك نجعل أحد أبعاده أكبر والآخر أصغر، لذلك عندما نفحص الأجسام والأحداث من أُطُر إسناد مرجعية مختلفة، فان مقدارا من الفضاء يتحول الى الزمن، والعكس صحيح.

رغم أن فكرة الأبعاد الأربعة قد تبدو غريبة (وهي مرتكز نظرية اينشتين النسبية، التي يدعونها أحيانا بـ نظرية البعد الرابع)، فهي تعود الى فكرة أن أي جسم أو حدث يعيّن أو يخصّص (specified) بأربع كميات – ثلاث منها لوصف أين هو في الفضاء؟ وواحدة لوصف أين هو في الزمن؟ المفهوم الحقيقي غير المألوف للزمكان الرباعي الأبعاد هو أن الفضاء والزمن يستطيعان أن يتمازجا أو يختلطا (Space and time can intermix) قليل من أحدهما يمكن أن يتحول الى قليل من الآخر عندما يتغير الإطار المرجعي. وقد بينت التجارب أن الفضاء والزمن ليس منفصلين تماما.

المصادر المستخدمة

1. Gian Coli , physics , Sixth Edition , Pearson Education, Inc , 2005
2. النظرية الخاصة للنسبية لآينشتين . موسكو . باللغة الروسية . 1981
3. HUGH H. YOUNG , University physics , Eight edition , Wesley Publishing , 1992

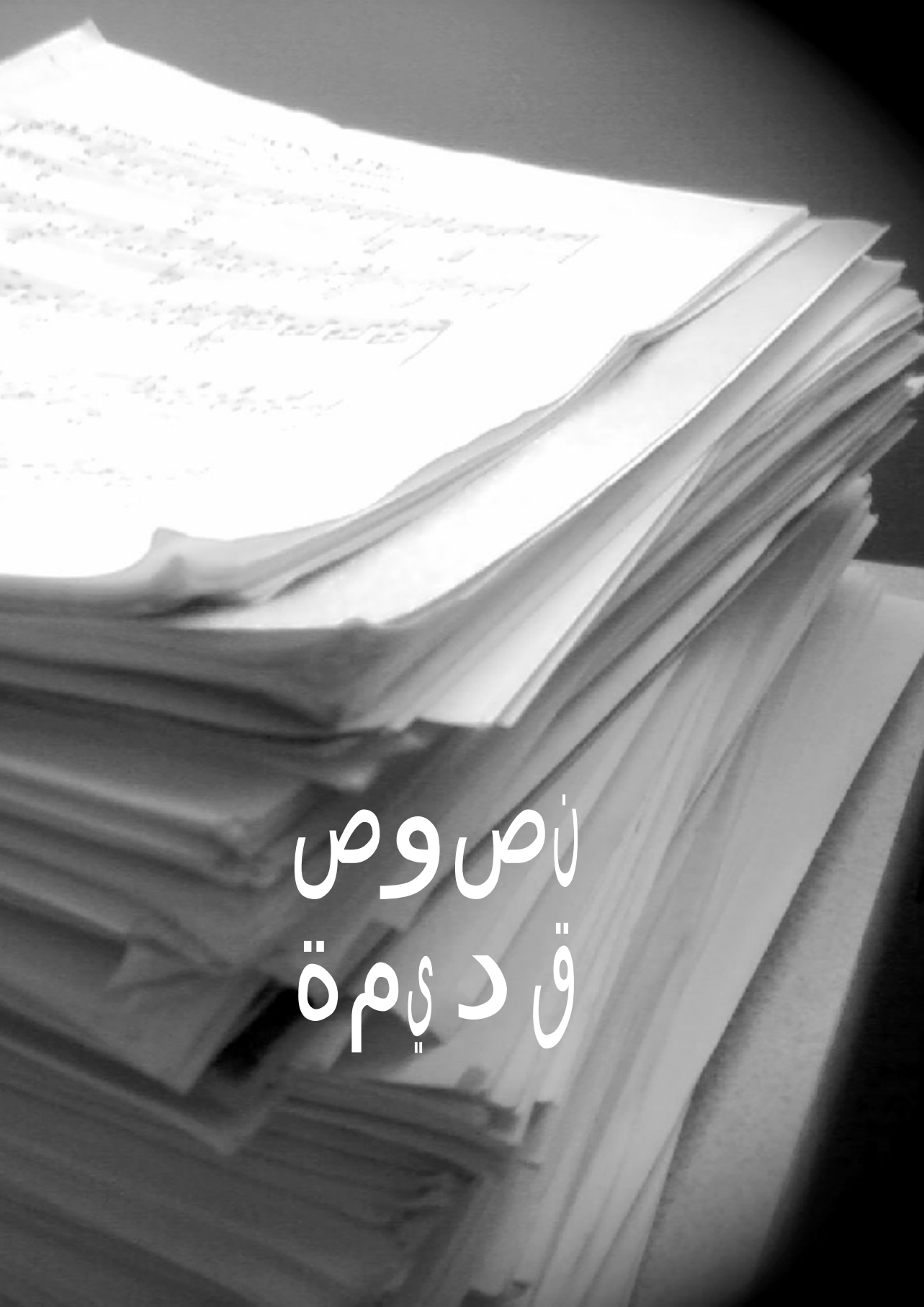

نصوص قديمة

الجيش من فرية الدفاع عن الوطن إلى هيأة اعمار الوطن

د.صـــــادق الـــبلادي

تجبرنا الأحداث والمتغيرات التي عشناها قطرياً وعربياً وإقليميا وعالمياً على ضرورة إعادة النظر في كل المسلمات والثوابت التي كانت تبدو رواسخ لا تزعزعها العواصف للأبد. كل الثوابت والمسلمات دونما استثناء فليس من ثبات ودوام إلا للتغير، سيرورة دائمة بين صيرورة وفناء(كل ما عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام). المنظومة الاشتراكية و"على رأسها الاتحاد السوفييتي العظيم" صارت هباءاً منثوراً، دكتاتورية البروليتاريا التي كانت جوهر الحركة الشيوعية جرى التخلي عنها، ولكن ليس غريباً تمسك بعض من تخلى عن الجوهر أن يظل متشبثاً ببعض توابعها الديمقراطية المركزية ففيها له ما ينفع، تنظيمياً، خائن للقضية العربية من كان يجازف في التفكير علنا في ضرر خطف الطائرات وسيلة في النضال ضد العدو الصهيوني، فضلاً عن تخوين من يعادي الصهيونية دون أن يعادي اليهود، بينما عملية التطبيع مع العدو الصهيوني جارية اليوم بتسارع ولا مفر منها اليوم. الجيش العراقي سيحارب لو وطأت قدم سوفييتية أرضا سعودية، هكذا نطق صدام يوما لكنه أوصل الجندي العراقي ليس فقط للفرار أمام الجندي الأمريكي القادم للعراق عبر الأرض السعودية بل ولتقبيل حذاء جندي أمريكي و "أقدامه تدوس في تراب تقدسون"❖. مدير استخبارات في نظام صدام تقبل به معارضة الخارج شخصية قيادية فيها.❖❖. الحرة كانت تموت ولا ترضع بثدييها واليوم تعيل أطفالها وعجزة أهل دارها ببيع شرفها وعفاف بناتها. هكذا هي الدنيا إن قُضي الأمر صار عاليها سافلها وسافلها عاليها. غير أن هناك بعض الأحكام فيما يخص الجيش لن تتغير. لا اعني احكام العسكريين وما يضفونه على صنفهم من هالات فهم مثل غيرهم يحودون النار (لقرصتهم)، بل تقديرات غير عسكريين تردد دون تمحيص مثلاً: الجيش جزء من الشعب، الجندي هو مواطن أولا/ مهمة الجيش الدفاع عن الوطن، ضرورة بناء جيش قوي للدفاع عن الوطن وكثير مثل هذا الهراء.!!!

الجيش مؤسسة قمعية لحفظ أمن الحكام

تأسس الجيش العراقي في ظل الانتداب البريطاني عام 1921 بفوج سُمي باسم فوج موسى الكاظم، ولعل ذلك تعويضا اسميا للشيعة او (قشمرة) لهم ربما لعدم وجود

ضباط شيعة في الفوج. ولا يعقل ان يكون الانكليز المحتلون قد أسسوا الجيش للقيام بمهمة وطنية، مهمة تحرير العراق من سلطة الاحتلال البريطاني القائم لاحقا بأسم الانتداب. كان الضباط الموجودون آنذاك هم من بقايا ضباط الثورة العربية الذين لم يبق لهم مكان في دوائر حكم الانتداب، والجنود متطوعون اكثرهم طلبا للرزق. ثم فرضت الخدمة الاجبارية زعما بضرورة مشاركة الجميع بفريضة الدفاع عن الوطن في الوقت الذي كان السبب الحقيقي هو عدم التمكن من توسيع الجيش ماليا عن طريق التطوع وحده، فالتطوع ليس كما يوهم اسمه خالصا لوجه اللّه وللوطن الـ (المفدى) وبلا عوض سوى وجه اللّه وحب الوطن، الذي جعلنا نتغنى به كأنه فرض منزل من السماء(حب الوطن فرض علي)، بل هو سبيل للخلاص من البطالة ولمساعدة العائلة في تدبير معيشتها. ولم تكن خزينة الدولة العراقية يوم ذاك قادرة على توسيع جيشها الا عن طريق اكراه الشباب بالقوة للخدمة في الجيش بعد ان لم تستطع توفير العدد اللازم عن طريق التضليل باسم خدمة الوطن.

ففي مفاوضات ياسين الهاشمي، رئيس الوزراء في اذار 1925 مع الجانب البريطاني اظهر رغبة الحكومة العراقية في تطبيق التجنيد الإجباري حبا بالتخلص من الازمات المالية والحصول على جيش كفوء متكامل. أشار في المذكرة التي اعدها بوصفة وزيرا للمالية في وزارة ناجي السويدي عام 1929 الى "ان الجيش في حالته الحاضرة عاجز عن القيام بمهمة درء الاعتداء الخارجي ونفقاته باهضة، فبناءا عليه يقتضي جعل الجيش على قاعدة التجنيد الاجباري".وعملت وزارة عبد المحسن السعدون الرابعة على سن قانون التجنيد الاجباري باسم مضلل طبعاً، (قانون الدفاع الوطني) وكان من اجل (الدفاع ضد التجاوز الخارجي وحفظ الامن الداخلي) كما ورد نصا في مشروع القانون.

حُشيت أدمغتنا منذ الصغر أن الجيش سياج الوطن الغالي، يذود عن حياضه ضد المعتدي الأجنبي الغاشم. الجيش العراقي له من العمر خمس وسبعون سنة، فضد أي معتد أجنبي اثيم قاتل دفاعا عن تربة الوطن؟ اول مرة كانت في أحداث مايس 1941 بالأصطدام مع قوات الانكليز في الحبانية والشعيبة مدة ثلاثين يوما فلم يصمد الجيش في القتال طويلا، وفر قادته إلى ايران لكنهم سُلِّموا لحكومة نوري السعيد فأَعدم القادة العسكريين انتقاما منهم لاشتراكهم في تلك الحركة. صار لحركة مايس موضوعياً دور وطني في النضال من اجل تحقيق استقلال العراق من السيطرة البريطانية، رغم انها قد تكون بدأت في إطار الصراع على السلطة التي احتكرتها مجموعة نوري السعيد وهو ضابط أيضا وكانت مجموعته قد أبعدت قبيل ذلك رشيد عالي الكيلاني الذي كان رئيسا لمجلس النواب فالتف حوله العقداء الاربعة.

وفي عام 1948 زجت حكومة العهد الملكي بالجيش العراقي في الحرب الفلسطينية الاولى ورغم النوايا الصادقة لضباط وجنود الجيش العراقي الا أن ايديهم كانت مغلولة، ومنهم تعلم الفلسطينيون المفردة العراقية (ماكو – ماكو أوامر). وفي معارك ايلول الاسود 1970 لم يتمرد الضباط العراقيون بل نفذوا الاوامر بالانسحاب، اذ كانت هذه المرة (أكو أوامر)،

لكنها اوامر بالانسحاب، وهكذا مثلما تضرر الفلسطينيون من ماكو اوامر عام 1948 تضرروا عام1968 من اكو أوامر. في الوقت الذي لم يقع على العراق حتى الثمانينيات اعتداء اجنبي ليثبت الجيش العراقي قدرته القتالية للذود عن حياض الوطن نجده قد ابلى (بلاء حسنا) في الدور الذي اعد له اساسا ألا وهو مهمة قمع الحركات الداخلية المعارضة للحكومات القائمة بعد أن عجزت قوات الشرطة عن ذلك. فكان الضرب المتكرر للحركة الكردية وللتمردات في الفرات الاوسط وضرب الاثوريين. ففي انتفاضة سوق الشيوخ تموز عام 1935 اضطرت الحكومة إلى اشراك الجيش فارسلت اربعة افواج من الجيش لاخمادها ورغم توجيه القوى الوطنية النداء إلى (الجنود الشجعان: لا تنصاعوا إلى خداع الحكومة و اوامرها و قادتها.. انهم يخدعونكم ويدفعونكم لمقاتلة اخوانكم وابناء وطنكم... التحقوا بصفوف الثورة) الا أن الفلاحين ذوي البزة العسكرية وقفوا ضد اخوتهم من فلاحي الفرات الاوسط، فبأمر من وزير الداخلية وباشراف رئيس اركان الجيش بكر صدقي (قام الجيش العراقي بحملة شعواء حرقت البيوت وقطعت الاشجار وابعدت رؤساء العشائر المشتركين وفرض الغرامات النقدية على الثوار وتجريدهم من السلاح.. والقى القبض على جميع الموظفين والاهلين الذين لهم علاقة بالثورة وسيقوا إلى المجلس العرفي العسكري) كما ورد في تاريخ الوزارات العراقية للأستاذ عبد الرزاق الحسني (ج 4، ص 225).

قد يكون فيما كتبه الأستاذ الحسني هنا اشارة خفية إلى تناقض هذا السلوك مع ما يفترض من سلوك جيش مسلم فهو قد يذكر هنا بوصية الخليفة الأول ابي بكر إلى جيش اسامة بن زيد: (لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلة ولا تقطعوا شجرة مثمرة).

وهكذا كان الجيش زمن الحكم الملكي أداة قمع المعارضة عندما يشتد ساعدها، مثلاً بعد وثبة كانون 1948 وبعد انتفاضتي تشرين1952 و 1956 إذ أعلنت الأحكام العرفية وراحت طواحين مجالسها العرفية العسكرية ترسل المناضلين إلى السجون أفواجا أفواجا، كما كان اغلبية رجال الحكم الملكي ضباطا في الجيش العثماني وفي جيش الملك فيصل خلعوا البزة العسكرية، لا ذهنية العسكر، ذهنية الخنوع لذي الرتبة الأعلى، زيادة خيط واحد فقط، باسم الضبط العسكري،والتسلطُن والتفرعُن على ذي الرتبة الأدنى، واحتقار المدني. كانت مقدرات العراق طيلة سنوات الحكم الملكي بيد العسكر من ضباط الجيش العصملي سابقاً. فنوري السعيد وجعفر العسكري وتحسين العسكري وجميل المدفعي وطه الهاشمي وياسين الهاشمي ومولود مخلص وعلي جودت الايوبي ضباط سابقون. يشير الدكتور عبد الاميرعلاوي في ندوة (العراق والمستقبل الديمقراطي) في ديوان الكوفة في لندن يوم 1995/4/29 إلى ما قاد اليه توسيع الجيش: "أن الجيش كان يتحين الفرص لفرض نفوذه بعد أن ازداد عدده ونما سلطانه فانتهز فرصة ثورة الاشوريين عام 1933 لقمعها بكل قسوة، وكان ذلك نقطة تحول في تاريخ العراق وتسلط الجيش على الحكم وغياب الدستور والاستهتار

بالقوانين وتزييف الديمقراطية "وعدد الدكتور علاوي المناسبات التي تدخل فيها الجيش في السياسة بعد ذلك في 34، 35 (الفرات الأوسط)، 36(انقلاب بكر صدقي) 41 (حركة رشيد عالي الكيلاني) دون أن يشير إلى استخدامه ضد الانتفاضات الوطنية الأخرى ابان الحكم الملكي.

وجمهورية14 تموز 1958 قامت بانقلاب عسكري ساندته جبهة الاتحاد الوطني ولكنها بقيت حتى الاطاحة بها يوم 8 شباط 63 دكتاتورية عسكرية فردية. وقام انقلاب شباط 63 أيضا بالاعتماد على قطعات من الجيش وشارك في التحضير له رئيس مجلس السيادة أيام قاسم، الفريق الأول نجيب الربيعي. وهكذا انتقل الحكم بانقلاب شباط 63 إلى ثلة عسكرية أخرى: عبد السلام وعبد الرحمن عارف والبكر وطاهر يحيى وناجي طالب . وفي17 تموز 68 قام آمر حرس القصر الجمهوري بخيانة سيده فسلم مفاتيح القصر لثلة أخرى من الانقلابيين العسكريين فتشكل (مجلس قيادة الثورة) من العساكر: احمد حسن البكر، صالح مهدي عماش، حردان التكريتي، حماد شهاب، سعدون غيدان، ومعروف ما قام به (الجيش العقائدي) البعثي ضد الحركة الكردية التي لم يشفع لها وقوفها لجانب الانقلاب ضد حكومة قاسم في البداية فشنت الحرب ضد الاكراد، واعطى صدام نصف شط العرب وأراضي عراقية إلى شاه ايران ليتخلى عن مساندة الحركة الكردية، وقصف مدينة حلبجة بالغازات السامة ونفذت جريمة الانفال وطالت الحرب ضد الجارة ايران تنازل خلالها صدام عن اراض عراقية للسعودية وسمح للأتراك استباحة الحدود العراقية متى شاؤوا، ودمرت البصرة وضربت النجف وكربلاء دون احترام لحرمة العتبات المقدسة، وجفت الاهوار، كل هذه الاعمال وغيرها قبل بها الجيش العراقي ونفذها، وماكان له الا التنفيذ، فهو قد اوجد ودرب وروض افراده من اجل تنفيذ الاوامر خير اداء، فرصاصة لا تميت ليست رصاصة. والشرف العسكري لا يكتمل الا بالقتل.

منذ تأسيس الدولة العراقية وحتى 14 تموز 1958 كان الحكم اساسا بيد عسكريين خلعوا الخاكي وجعلوا الجيش أداة ضغط لتداول السلطة فيما بينهم وأداة قمع ضد القوى الوطنية من اجل الاحتفاظ بسلطتهم باسم حماية الامن الداخلي. وبعد تموز 1958 قاد الدولة عسكريون وتدرجوا في سلك الجيش العراقي من عبد الكريم قاسم إلى العارفين فالبكر ثم تولاها رسميا الفريق الركن فيما بعد المهيب الركن (ابو المكرمات) و(ابو قادسية صدام)، (ابو ام المهالك) ومنذ القادسية وبدلة الخاكي تغطي شاشة التلفزيون والصفحات الأولى لصحف النظام حلم كل عسكري بحكم المهنة، وحلم كل مهووس بجنون العظمة: " تضخيم الجيش وتكثير العتاد وان تكون عدته وعدده يتناسبان وما للبلاد من ماضٍ عسكري وما لها من طموح إلى المجد.. وأن تسود البلاد بدلات الخاكي وتضيق بقرقعة السلاح.. تطمينا لرغائب الأمة" هذا كان طموح ياسين الهاشمي كما عبر عنه في مذكرة بتاريخ 13 تموز 1934 وما لم يتوفق الهاشمي في تحقيقه حققه " خير تحقيق" المهيب الثاني في دولة البعث التكريتية. ولكن بأي ثمن؟ ولأي هاوية أودى بالعراق تحقق هذا الحلم؟ اذا

كان ياسين الهاشمي حقق فرحته برؤية فتيان العراق يحملون رماح الكشافة، فصدام جعل جيش العراق يعتبر رابع جيش في العالم. المدفع العملاق كلف مليارين من الدولارات قبل أن يكتمل صنعه ولن يكتمل فقد رضخ صدام لتدميره وفق قرارات الأمم المتحدة، صواريخ الحسين والعباس، الأسلحة الجرثومية والكمياوية، القنبلة الذرية التي باتت قاب قوسين أو أدنى من التصنيع، مليون شخص يلبسون الخاكي الرسمي (هنيئا لمجهز الجيش بالملابس، كم هي أرباحه السنوية، وعدي أو شخص أخر يعلم كم دفع المجهز المسكين عمولة لتحط الصفقة عليه)، مئات المليارات المصروفة على شراء الأسلحة، وما حققته من الملايين عمولات ورشاوى(في ألمانيا، دولة القانون ،التي يزدهر فيها اقتصاد السوق الحر(قل اقتصاد السوق الحر ولا تقل الرأسمالية!) والتي احتلت عام 1994 المرتبة الثانية عالميا في تصدير الأسلحة، تخصم الرشاوى المدفوعة على شكل عمولات للمتنفذين في الدول المستوردة من ضريبة دخل الشركات المجهزة، أي تدعم بفلوس دافع الضريبة الألماني).

ليس نظرياً فحسب بل التاريخ الفعلي يبين ان الجيش العراقي كمؤسسة وبالرغم من توفر اعداد ليست بالقليلة في صفوفه ضباطا وجنودا يتمتعون بالروح الوطنية والإخلاص للشعب والاستعداد للتضحية في سبيل الوطن، يبقى أداة رئيسة لتنفيذ المهمة التي أسس من اجلها مهمة الحفاظ على النظام القائم وقمع الحركات الشعبية المعارضة للنظام (انظر المقابلة مع ثابت حبيب العاني في رسالة العراق عن قوة نفوذ الحزب الشيوعي في الجيش اثناء حكم قاسم ومع هذا صار الجيش نفسه اداة حكم قاسم وما لحقه من تصفيات جسدية للشيوعيين). عواقب مرض الايدز لا تعتمد على نوايا الفيروس ألشريفة كانت كي تعتاش فقط أو بنية سوء، نية إضعاف مناعة الإنسان لتهلكه. فعاقبة الايدز حتى ألان، مهما كانت نية الفيروس، هلاك المصاب به، وكذلك أن طابع الجيش لا يتحدد بنوايا وانحدار أفراده مهما خلصت وإنما يبقى موضوعيا أداة قمع لقوى الشعب ووسيلة لحسم الصراع على السلطة بين أفراد الفئة الحاكمة، وهدفا لقوى المعارضة لتحييده على الأقل من اجل الوصول لأخذ الدور في الجلوس على تخت الحكم من اجل اخذ النصيب في الاستحواذ على فضلة الإنتاج.بتعبير العالم الكبير علي جليل الوردي.

والرفيق المرحوم زكي خيري كان على كل الصواب في تشخيصه للجيش بأنه:

(تأسس وفقا لسياسة الاستعمار البريطاني وأهدافه في استعماله كقوة بوليسية لقمع حركة الشعب العراقي التحررية... وتغدق الأموال والامتيازات على الضباط فتحولت الفئة العليا منهم إلى برجوازية بيروقراطية من حيث نمط حياتها وأيديولوجيتها والتحمت مصالحها مع مصالح الدولة... وعمد النظام الملكي إلى ترسيخ الطائفية في الجيش العراقي فلم يفسح المجال للانتساب إلى كلية الأركان والرتب العليا إلا لعدد قليل من الشيعة فضلا عن ترسيخه التربية الشوفينية لاستعمال الجيش لقمع تطلعات الشعب الكردي في التمتع بحقوقه القومية المشروعة.. وجهد النظام الملكي في تحويل الجنود إلى أدوات

للطاعة العمياء بيد ضباطها لضرب تحركات الشعب وتطلعات جماهيره الكادحة..وتقاوم بوحشية تأثيرات الحركة الثورية على الجيش وتقمع أية بوادر للوعي الوطني والطبقي بالمحاكم العسكرية الصارمة والتوجيه الأيديولوجي المستمر الذي يعمل على تمويه جميع التناقضات الطبقية، والتأكيد على أن الجيش منقذ الوطن. أن كل الانقلابات المتوالية اعتمدت على نفس المؤسسة العسكرية دون أن تحدث فيها أي تغيير جذري بل عمدت تقويتها وتعزيز اتجاهها المعادي للشعب والجيش العراقي كمؤسسة كان ولا يزال أداة قمع بيد أعداء الشعب الكادح باستثناء فترات تفكك فيها الضبط العسكري الوظيفي التقليدي، بقي الجيش (عهد عبد الكريم قاسم) كجهاز امينا على تقاليده العسكرية الرجعية المعادية للشعب الكادح وللديمقراطية والشيوعية وبقي اداة صماء بيد كبار الضباط والطبقات الحاكمة رغم أن مزاج جماهير الجنود والكثير من ضباط الصف وفريق من صغار الضباط كان معاديا للرجعية، فالجيش العراقي القائم هو دعامة الانظمة الدكتاتورية والطبقات المالكة في العراق.) (دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي). ولعل شهادة الضابط المتقاعد محمد حسن الطريحي احد الذين خبروا المؤسسة العسكرية من داخلها ابلغ شهادة، فهو قد شارك في قمع حركات سوق الشيوخ عام 1935 وشارك في انقلاب بكر صدقي عام 1936 باعتباره من جماعة الاهالي واشترك في حركة رشيد عالي الكيلاني عام 1941 حيث احيل بعدها على التقاعد، لكنه بقي على صلة بجماعة الاهالي. فعن اشتراكه في ضرب الجيش لحركات العشائر (انتفاضة) سوق الشيوخ عام1935، يذكر انه لما علم أن اسمه ورد في قائمة بأسماء الضباط الذين ساهموا في قمع الحركة لمنحهم نوط الشجاعة ونوط الخدمة ذهب إلى الضابط المسؤول وقال له، كما جاء في مذكراته التي نشرتها مجلة الموسم الصادرة عن أكاديمية الكوفة في هولندا في إعدادها 14،15، 16: "طلبت شطب اسمي من القائمة وقلت إنني لم أقم بأي عمل من اعمال الشجاعة التي استحق عليها هذا النوط، كما انه لا يشرفني على صدري في قتال ابناء عمومتي وخؤولتي لأغراض سياسية محلية بحتة، ولو كان هذا النوط ممنوحاً لي في قتال أعداء الأمة والوطن وهم المستعمرون والطامعون في هذا البلد لكنت أتشرف به، وحتى نوط الخدمة لا اعتبره خدمة للوطن بل خدمة لحفنة من الساسة الذين اشتروا الوطن وباعوه".ص 213 عدد14.

ولكنه رغم موقفه الوطني الصادق ورغم كونه من جمعية الإصلاح الشعبي قام بتنفيذ الاوامر الصادرة اليه وصوب نيران مدافعه بدقة إلى أهدافها امتثالاً للضبط العسكري الذي هو لدى العسكري فوق كل شيء ساعة الساعة. ويكتب عن بكر صدقي قائد الانقلاب عام 1936، والذي عرفه عن كثب اذ كان ألطريحي من اعضاء جمعية الاصلاح الشعبي ومن جماعة الاهالي وطلب من وزارة الدفاع اجازة لمدة أربعة أشهر ليتفرغ للعمل السياسي بعد نجاح الانقلاب.

يكتب قائلاً: "والحقيقة أن بكر صدقي كان كل شيء فهو الحاكم الحقيقي للبلاد ويسير الامور على طريقته العسكرية كما يفعل الضباط عندما يستلمون السلطة، وقد عطل

الوزارة وشل عملها وصار دكتاتورا لا يطاق" (الموسم ص39 عدد15). ويؤكد في حديث له مع كامل الجادرجي يوم كان في السجن قبيل ثورة 14 تموز 1958 "اذا تولى الجيش الامر وانا لست من مؤيدي تدخل الجيش في السياسة لانه يصبح حزبا سياسيا مسلحاً ومعنى ذلك سيطرة الدكتاتورية العسكرية والقضاء النهائي على الديمقراطية" الموسم ص 71 عدد16.

هكذا كان الجيش وسيبقى يؤدي نفس المهمة حتى وان تغيرت الفئات الحاكمة، يقدم الامتيازات لفئة من الضباط و ينقذ اعدادا كثيرة من البطالة ويؤدي مقابل ذلك واجبه في الدفاع عن سلطة الفئة الحاكمة، لا الدفاع عن الوطن كما يوهمون الناس المستضعفين في الارض ويضللونهم فمن أين للمستضعف أو العامل وطن؟ لماذا لا يعرف المستضعفون والكادحون ولا يستوعبون قول الامام علي بن ابي طالب (الفقر في الوطن غربة)؟ وأنّى لهم ذلك ووسائل التضليل والإظلام المسماة وسائل التوجيه والإعلام، بيد الحاكمين يعمل لهم فيها مثقفون باعوا انفسهم ليشتروا متاع الدنيا. فالتضليل متواصل للمرء منذ التنويمة الاولى للطفل تهدهده الام الحنون وترضعه "حبّ الوطن" وان يموت في سبيل الحفاظ على ما استحوذ عليه القوم والمسرفون من كد وتعب الاخرين، إلى المدرسة ومناهجها . كنت مثل غيري اقرأ في المدرسة دون ادراك بعد ما علي حفظه.

مليكنا مليكنا نفديك بالأرواح

لم اكن قد رأيت الملك بعد فلم يكن هناك تلفزيون ولم تكن الصحافة متقدمة سنوات الحرب العالمية الثانية ولم تكن صور الملك وولي عهده الأمين معلقة على حيطان الصفوف، لكني كنت اصرخ ، لا انشد، مع الآخرين " نفديك بالأرواح" ماسألت احداً عما يجب أن يدفعني لحماية الملك بروحي التي كانت يومها تخاف من ظلام الطاق وترتعب من الجرذي وتخشى الجني والطنطل ولكنها تُحشى بالاستعداد لواجب حماية الملك بالروح. مثلما صارت عقول البعثيين تحشى فيما بعد بالاستعداد لبذل الروح والدم فداءا لأبي هيثم ومن بعده لصدام. الا تذكرون صراخهم يطوفون الأحياء وهم يصرخون مرعبين الناس بالصراخ:

بالروح بالدم نفديك ابو هيثم
بالروح بالدم نفديك يا صدام

هذا هو الوجه الحقيقي، الوجه غير المستور لفرية الدفاع عن الوطن التي تربى عليها الجيش. يشير الرفيق زكي خيري في الكتاب المشار اليه إلى أن مسألة تكوين جيش يدافع عن الاستقلال الوطني، أصبحت من النقاط الأساسية في النضال التحرري ضد الهيمنة الامبريالية والى سعي الضباط الأحرار لجعل الجيش أداة لحماية الشعب وحقوقه العادلة. حققت ثورة 14 تموز تحرير جيش العراق من التبعية الاستعمارية وتنوعت مصادر تسليحه و أوصله صدام للمرتبة الرابعة بين جيوش العالم وللمرتبة الثانية بين مستوردي الاسلحة ولربما المرتبة الاولى في العالم في نسبة النفقات العسكرية من اجمالي الدخل الوطني، الامر الذي صار مفخرة للقوميين العرب سواء منهم من ارتدى عباءة الاسلام او حمل شعارات اليمين او تلفع براية اليسار الحمراء فتناسوا دكتاتورية صدام وصدقوا كذبة أن تحرير القدس يمر عبر تحرير عبادان وان الكويت اشارة القضاء على اسرائيل، لكن الواقع بين أن

الجيش رغم المشاعر الوطنية لكثير من منتسبيه، لم يحقق كمؤسسة لا الدفاع عن الوطن ولا تحرير فلسطين ولم يصبح اداة لحماية الشعب وحقوقه العادلة، رغم تحرره من التبعية للأستعمار ورغم ضخامة تسلحه. ومع ذلك تسعى أطراف المعارضة بشتى فصائلها إلى طرح مهمة جعل الجيش في خدمة الشعب لا لخدمة أطماع الساسة. دخول جمل سم الخياط اسهل من دخول غني إلى الجنة، ومع هذا فدخول الاغنياء للجنة اسهل ألف مرة من خلق جيش يحمي الشعب ضد الطغاة والبغاة. وكثير من الاغنياء اشتروا صكوك الغفران. كثير من الساسة يدعون الناس للتخلي عن الحلم بطوبى والعمل من اجل مجتمع عادل، ولكنهم يمنون الناس بسراب الجيش المدافع عن الشعب. قد يدرك البعض منهم سراب ما يطلقون عليه دمقرطة الجيش لكنهم يفعلون ذلك لغرض في نفس يعقوب: حكم القادم والاستئثار بما يدره الانفاق العسكري من ارباح بشكل عمولات أو رشاوى أو مقاولات، يجوز لنا أن نحلم بامكانية ترويض فيروس الايدز ليقوي جهاز المناعة أن كان يجوز لنا أن نتمنى جيشا لا يساهم في القمع. أن حلم تحقيق الشيوعية اقرب للمنال من طوباوية تحويل الجيش لحماية الشعب. ولكن هذا لا يعني أن من الممكن الاطاحة بالنظام دون العمل لكسب منتسبي الجيش للتخلي عن النظام الايل للسقوط، ومن اجل حقن دماء الالاف من ابناء الشعب مدنيين ورجال جيش، لربما لا بد من التفكير حتى بعقد صفقة تضمن لصدام حياته ليخرج من العراق دون اغراقه بمزيد من الدماء، فضمان عدم اراقة دماء جديدة – وعدم التسبب في دمار آخر افضل بكثير من التفكير باطفاء شهوة الثأر والانتقام للدماء التي اغرقت تربة البلاد نتيجة سياسة صدام.

الجيش أداة إتلاف الثروة الوطنية

الانفاق العسكري تبديد مرعب ورهيب للثروة الوطنية، فقد بلغ ارقاما خيالية منذ كان الدينار وقبل أن يهوي إلى الحضيض. فقد بلغ الانفاق العسكري، كما جاء في مقالة لنضال الليثي في جريدة الحياة ليوم 7 أيلول 1995، في الاعوام 81، 82، 83 على التوالي 24.16 ،25، 3.25 بليون دولار، بليون وليس مليوناً ولا ملياراً، بينما كانت ايرادات النفط للأعوام الثلاثة المذكورة 4.10 ،8.7 ،10.1 بليون دولار فقط، الامر الذي يعني أن الانفاق العسكري تجاوز ايرادات النفط عدة اضعاف، واذ وصلت نسبة الانفاق العسكري إلى ايرادات النفط خلال الاعوام المذكورة ما يعادل 1.236 و 248.5 و 324.4 بالمائة. ولا بد أن تكون هذه الارقام دون الحقيقية فعلاً لما تحاط بها من سرية، خاصة سنوات الحرب. كما ونشرت الصحف مؤخراً عن صفقة لشراء 400 دبابة من روسيا بمبلغ قدر بين 2 إلى 3 مليارات دولار تتم بعد رفع الحصار. وصنع المدفع العملاق كلف وقبل أن يكمل إنتاجه ملياري دولار، وكما ذكر د. كاظم حبيب في رسالة خاصة " أن الأغراض العسكرية استنزفت خلال الفترة الواقعة بين 1976 – 1990 ما يزيد على 250 مليار دولار من ميزانية الدولة العراقية ، بما فيها إنتاج الأسلحة الكيمياوية والجرثومية والنووية، دع عنك مصادرته لما يقرب مليون إنسان من القوى

القادرة على العمل وأبعادها عن عملية الإنتاج".

وضخامة إتلاف الثروة الوطنية على الانفاق العسكري ليس حكراً على زمن صدام وحده بل في كل عهود الدولة العراقية ومنذ نشأتها، ففي تقرير لياسين الهاشمي عن الوضع الاقتصادي وضعه عام 1928 عندما كان وزيراً للمالية ذكر أن ما استورده العراق من الرز الهندي بلغ 529 ألف روبية ومن الطحين 227 الف روبية واعتبر خروج هذا المبلغ الجسيم خسارة لا مسوغ لها، لكنه لا يتحدث بنفس المنطق عن مصروفات الجيش، فهو يذكر أن مصروفات البسة الجيش وحدها بلغت 983 ألف روبية، ومصروفات ألبسة الشرطة 591 ألف روبية ومصروفات شرطة السجون 65 ألف روبية ورغم أن استيراد ملابس الخاكي وحدها تجاوزت ضعف المبلغ " الجسيم" الذي انفق على استيراد المواد الغذائية الاساسية للناس. يعلن الهاشمي: "أن المواد الأولية للأقمشة متوفرة في البلاد ، فتشجع طفيف من الحكومة يمكن بواسطته الحصول على ملابس الجيش من الاقمشة الوطنية، وبالتالي يمكن ادخار هذه المبالغ في البلاد". ومن ميزانية عام 1936 التي بلغت 780.4728 دينار خصص للجيش 2596720 دينار فيما بلغت ميزانية الري 976500 دينار ومخصصات الخدمات الاجتماعية والصحة 746000 دينار، إلى أن حصة الجيش تقارب 55%. وكثير من مشاريع مجلس الأعمار إبان العهد الملكي كان مخصصا لاغراض عسكرية، ويشير الطريحي في مذكراته عن اصدار عبد الكريم قاسم بعد ثورة تموز1958 لقانون اعيد بموجبه الضباط المحالون على التقاعد لأسباب وطنية إلى الجيش ومنحهم رتبتين وعين بعضهم في وظائف مدنية فصار الراتب التقاعدي لأحدهم نتيجة هذا القانون 220 دينارا بعد أن كان 18.5 دينارا. فتصور مدى الامتيازات الكبيرة التي تخصص للجيش! إذا كان الراتب التقاعدي أواخر الخمسينيات قد تجاوز المئتي دينار، فكم تبلغ ميزانية التقاعد العسكري اليوم والجيش قد تضخم سرطانياً، والفرقاء الأوائل والألوية والعمداء وغيرهم من ذوي النسور والنجوم صار لا حصر ولا عد لهم في جيش " الظافر" صدام الذي أغدق عليهم الرتب وطمرهم بالامتيازات ليشتري ذممهم ويتقي شرهم، وانى يتأتى له هذا وهو الخبير بـ: " اتق شر من أحسنت إليه" وهو الذي يشك بابنه وأخيه، فلم يكن امامه غير أن يقدم الضباط وجبات وجبات إلى الاعدام أو تدابير قتلهم بحوادث مفتعلة أو في أحسن الأحوال احالتهم على التقاعد. ولا بد أن عدد المتقاعدين العسكريين وخاصة بفضل سياسة "القائد الضرورة" يشكل جيشاً يفوق جيوش بعض الدول عددا ولربما من حيث النفقات ايضاً.

تبين مما تقدم أن الجيش اساسا، وكما اثبت تاريخ الجيش العراقي هذا ايضاً مؤسسة قمعية مهمتها – أو بغض النظر عن النوايا الشخصية الطيبة والخيرة من منتسبيه – هي القيام بحماية سلطة الحاكمين الذين ينهبون اموال البلاد بصورة " شرعية": الرواتب الضخمة والمخصصات والميزانيات الخاصة، السرية منها والعلنية، وبصورة غير شرعية: الاختلاسات والرشاوى و"الهدايا" وفرض الحصص والأتاوات على المقاولين، والقيام بعمليات غزو خارجية اشباعا لرغبة

الحاكمين وتحقيقا لاطماعهم. ومن اجل ضمان قيام الجيش بهذه المهمة يصرف عليه، تسليحاً ونفقات، مبالغ طائلة وفي الفترات التي لايؤدي فيها مهماته الفعلية في قتل الناس – وهي والحمد للّه الفترات الاطول في عمره – يتلهى افراده بألعاب باهضة الكلفة تسمى تمارين ومناورات وفرضيات، وغالباً ما تستبدل هذه اللعب من طيارات ومدافع ودبابات وكثير غيرها من المعدات العسكرية الأخرى قبل أن تؤدي وظيفتها الفعلية باسم تحديث التجهيزات العسكرية التي يتفنن تجار الاسلحة بالتسابق في تجديدها والاسراع في تجاوز "مرحلة الحداثة" و "مرحلة ما بعد الحداثة" و" مرحلة ما بعد بعد الحداثة" والمدللون الفاسدون يركضون وراء كل جديد حتى وان كانت ملابس الملك الجديدة، خاصة بعد أن يكتشفوا أن هذا يحقق أيضا ارباحاً ومكاسب مادية أضافية.

عراق بعد صدام والجيش

ايا كانت الحسابات والتقديرات والسيناريوهات فأن صدام زائل لا محالة، لكن ذكره مقروناً باللعنات سيبقى شاخصاً لفترة طويلة، على الاقل حتى ازالة آثار الدمار المادي الذي حل بالعراق نتيجة حكمه البشع، ويقدر الاقتصاديون أن العراق بحاجة إلى عدة عقود، إلى عشرات السنين، كي يعود باقتصاده إلى مستوى عام 1960.

تبلغ قيمة الخسائر التي لحقت الاقتصاد العراقي، حسب تقديرات الدكتور عباس النصراوي، أكثر من 600 مليار دولار، أي مايزيد ستين مرة على القيمة الحقيقية للناتج المحلي الاجمالي لعام 1993، وهذه تشمل قيمة ما دمرته حربا الخليج، وتعويضات الحربين، والديون الخارجية. ويجب أن تضاف أيضا نفقات لجان التفتيش للأمم المتحدة التي ستبقى لفترة طويلة تراقب تقيد العراق بتنفيذ القرار الخاص بتدمير أسلحة الدمار الشامل من نووية وجرثومية وكيمياوية. ويرى د.النصراوي "أن مستقبل العراق الاقتصادي سيكون قاتما حقاً خلال العقود القادمة ما لم يجر إرجاء أعادة جدولة تقليص أو شطب المطالب المالية الخارجية أي تعويضات الحرب والديون الأجنبية".

والأمر الأقرب لمنطق واقع السياسة يقول أن مصلحة دول الجوار وكذلك مصلحة أمريكا هي في إبقاء العراق ضعيفاً اقتصاديا وإطالة وضعه القاتم.

أن جسامة الجهود والمواد اللازمة لأعمار العراق وتسديد الاستحقاقات المفروضة عليه تتطلب وضع أوليات تؤمن توفير الحد الأدنى من الضرورات المعيشية والصحية والتربوية ومكافحة الفلتان الأمني وتزايد الجرائم، جرائم السلب والنهب والقتل والاختلاس المستشرية والمتزايدة باستمرار، حسب تقديرات الأمم المتحدة يتهدد الموت جوعا حياة مليون عراقي، وأكثر من 4 ملايين يعانون من سوء التغذية وتفتك الأمراض بعشرات بل مئات الألاف من الناس وتفشي أوبئة نتيجة الدمار الذي حل بالمؤسسات الصحية كان أمراً متوقعاً في كل حين، ومن غير الممكن أبدا ضمان توفير هذه الأوليات الأساسية اللازمة لحياة الناس مع استمرار إهدار الموارد على إدامة جيش في العراق، أن كل دولار واحد يصرف على أطلاقة واحدة هو سلب وجبة إرضاع من رضيع مشرف على الموت جوعاً، هو قتل متعمد، والموافقة على هذا الإهدار هو مشاركة في

القتل العمد، تعمير جزء صغير من منشأة عسكرية واحدة هو تأجيل تعمير غرفة عمليات في مستشفى، كسوة أمير لواء واحد تكفي أكساء عشرات أطفال الأهوار الذين تشردوا نتيجة تجفيف الأهوار أو أطفال كردستان الذين يتمتهم جريمة الأنفال، جزء طفيف من صفقة شراء الدبابات التي عقدها نظام صدام مع روسيا تكفي لإصلاح ما خربته الحرب من منشآت النفط التي بدونها لا يمكن للعراق أن ينهض ثانية. ولكن من غير المنطقي حرمان الجيش من مستلزمات وجوده من عدة وعتاد ورجال دون التفكير بمسألة وجوده أساسا، وما يكلف هذا من نفقات يحتاجها البلد اشد الحاجة لتدبير مستلزمات الحفاظ على الملايين من خطر الموت جوعاً أو مرضاً وتأمين حد ادنى لمستوى حياة تليق بالإنسان، بدون توفرها يصبح كل حديث عن حقوق الإنسان لغوا باطلا يستر به الحاكمون الجدد مواصلة نهب ثروات الشعب لمصلحتهم ومصلحة ذويهم وأنصارهم.

أن التوجه الجاد والفعلي لإعادة أعمار عراق ما بعد صدام يجب أن يكون بالضرورة على حساب الجيش فلا إهدار دولار واحد على شأن عسكري وطفل واحد من أطفال العراق يتهدده الموت جوعاً أو مرضا، ولأي سبب ينبغي أعادة تسليح الجيش والابقاء عليه؟ اكتب على اهل العراق الحرمان والهلاك من اجل حماية التيجان؟ وهذه هي مهمة الجيش الفعلية كما رأينا. أم كتب عليهم التصفيق لثياب الملك الجديدة المسماة الدفاع عن الوطن؟ هل ستر النسيان اختراق طائرة اسرائيلية أجواء العراق وقصفها المفاعل الذري؟ يجوز أن ما بقي في الذاكرة فقط ما ورد في البلاغ العسكري العراقي من أن طائراتنا الظافرة أجبرت العدو الصهيوني على الفرار، كأنه كان على الطائرة الاسرائيلية أن تبقى معلقة في سماء العراق بعد قصف المفاعل وليس أن تفعل ما تفعله طائراتنا الظافرة: العودة سالمة لقواعدها بعد انجاز مهمتها! ولم يستطع الجيش في حرب الخليج الأولى لا استعادة ما وهبه صدام للشاه من ارض العراق ومياهه، ولا الاحتفاظ بما اسماه الحقوق المضافة.

وفي حرب الخليج الثانية لم يستطع حماية العراق من التدمير الذي ارجع العراق قروناً الى الورا، وذلك رغم كل مئات المليارات من الدولارات التي صرفت عليه وجعلت عرب المرابد يتفاخرون به وكرابع جيش في العالم. ما كان نفع ذلك؟ يقول المثل العراقي(أن أبا العورة يبين عند العبور). وقد انكشفت، لكننا لا نريد أن نقر بما رأته أعيننا بل نريد تصديق ما ملئت به آذاننا من أوهام وأحلام عن الجيش.

في مقابلة الدكتور النصراوي مع الثقافة الجديدة المنشورة في العدد 260 أيلول 1994 يدعو إلى أن " الوضع الصحي والمعيشي والتربوي ينبغي أن تكون له الأولوية بعد الحرمان الطويل" ويدعو باستحياء وخجل بل ربما بنوع من الوجل، إذ أن فيما يدعو إليه مس بواحد من قدس الأقداس بواحد من الأغلاط التي صيرتها كثرة الترديد واحدة من الحقائق، انه يدعو إلى إمكان إهمال :" بعض المنشآت المهدمة مثل المنشآت العسكرية التي لا حاجة اليها في عراق مسالم" لكنه وربما لبعض هذا الوجل لا يتعمق أو لا يفصح عما يعينه مثل

هذا الرأي في آخر المطاف ألا وهو: حل الجيش، أن أسلحة الدمار الشامل ليس فقط لا يحتاجها عراق مسالم بل هي محرمة عليه، وسيخضع العراق لسنين طويلة للرقابة في هذا الخصوص، ما هي الأصناف من الجيش التي يحتاجها العراق لإعادة تعميره؟ أيحتاج لمجموعة من صواريخ الحسين والعباس؟ أيحتاج لقوة جوية محدد مجالها الجوي؟ أيحتاج إلى فرق الدبابات؟ أيحتاج إلى صنف المدفعية وقد دمر المدفع العملاق قبل أن يصل المرحلة التجريبية؟ أن كانت ثمة مؤسسات في الجيش يحتاجها العراق المكتوب عليه أن يكون مسالما فهي فقط تلك التي لها علاقة بالشؤون المدنية وتحقيق الأمن الداخلي ومراقبة التهريب. ولهذه حاجة للمنشآت الطبية العسكرية لتلحق بوزارة الصحة، وصنف الأمور الهندسية يلحق بهيأة للأعمار، ودوائر التجنيد تلحق بهيأة الأعمار، وتقوم بسوق "المجندين" للخدمة المدنية الإلزامية في هيأة الأعمار الوطني. وبهذا توفر وتكثف الجهود والقدرات من اجل الأعمار ولا تبذر الأموال على حديد يصدأ أو يصهر قبل أدائه مهمته أو يؤدي مهمته في قتل أبناء الوطن كما جرى في كردستان، وحلجبة شاهد يجب إلا ينسى، وكما جرى أثناء انتفاضة آذار/ شعبان 1991 وفيما بعد في الاهوار.

صعب طرح مثل هذا الرأي وركام القرون الخوالي كله يقيد تفكيرنا ويجبرنا على تصديق فرية ضرورة وجود جيش من اجل الوطن، وكذلك واقع "النظام العالمي الجديد" ذو القطب الواحد الذي يدين للعسكرية لا للحق. ورغم هذا لابد من الجهر بأن من غير الممكن إعادة تعمير العراق وإعادة بناء الجيش في آن واحد. وهل يمكن مسك رمانتين موقوتتين في يد مشلولة؟ أن تحقيق ضرورة حل الجيش العسكري وإقامة هيأة أعمار الوطن على أساس الخدمة المدنية الإلزامية تحتاج إلى توافر جهود كل الحريصين على مستقبل الوطن من مفكرين وسياسيين وعسكريين أيضا يضعون مصلحة العراق فوق المصلحة الشخصية.

أما مسألة حماية امن العراق من عدوان خارجي فينبغي العمل من اجل أن تكون ضمن نظام امن شرق أوسطي وخليجي ويتكفل مجلس الأمن الذي فرض القيود على عراق الغد ضمانه. أن العراق، بتقديرات الدكتور فاضل ألجلبي، سيستدين ليأكل، أفليس من الكفر والحرام ترك فرد جائع واحد يموت لتخصيص ما يكفي قوته يصرف على عتاد عسكري ليصدأ ويستبدل بأحدث منه بعد حين؟.

لنتذكر رائعة السياب" الأسلحة والأطفال" فهو لم يخصص الأسلحة الامبريالية والرجعية فقط، بل الأسلحة عموماً:

لمن المدافع والرصاص
وبأي قلب في غد
ستغوص أطراف الرماح
الأجلنا
إنا نطالب بالسلام

طاولة مستديرة

طاولة مستديرة لمناقشة " خارطة طريق لإعادة هيكلة الشركات المملوكة للدولة " ❖

في التاسع والعشرين من شهر تشرين الأول/أكتوبر 2010 وعلى قاعة جمعية المهندسين العراقية ببغداد انتظمت أعمال طاولة مستديرة ضمت عددا من المهتمين بالشأن الاقتصادي ومن ذوي الاختصاص والأكاديميين والباحثين للمساهمة في مناقشة " خارطة طريق لإعادة هيكلة الشركات المملوكة للدولة ". أعدت الخارطة المذكورة هيئة المستشارين في الأمانة العامة لمجلس الوزراء واقرها مجلس الوزراء في اجتماعه بجلسته الخامسة والثلاثين بقراره المرقم 314 في 2010/8/31 الذي وافق على المضي في " إصلاح وإعادة هيكلة الشركات العامة المملوكة للدولة ضمن الخارطة التي اتخذتها الهيئة العامة للمستشارين بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة والبنك الدولي ".

ولا شك أن الإقدام على خطوة إعادة الهيكلة بالنسبة لهذه الشركات و "إعادة الهيكلة " هنا تعبير مخفف عن مفهوم الخصخصة الذي حرصت الخارطة المذكورة على عدم ذكره أبدا) سيترتب عليها جملة من التداعيات على العاملين في هذه الشركات وعموم الاقتصاد الوطني ضمن إطار سياسات التكيف الهيكلي التي رسم أسسها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. وفي ضوء ذلك فان الهدف المركزي لهذه الطاولة المستديرة يتمثل في تدشين نقاش حول مدى ملائمة هذه الخارطة مع واقع الاقتصاد العراقي وحاجاته في الظروف الراهنة التي يمر بها وصولا الى بلورة رؤى واقعية تحدد المسارات الصحيحة لوجهة تطوره في المدى القصير والمتوسط على طريق بناء إستراتيجية تنموية مستدامة تتفاعل فيها القطاعات الحكومي والخاص والتعاوني والمختلط .

وتسهيلا للنقاش في الطاولة المستديرة التي أدارها الأستاذ إبراهيم المشهداني الباحث في الاقتصاد العراقي، فقد تم تعميم

ورقة عمل تضمنت ثلاثة محاور ندرجها هنا تعميما للفائدة:

المحور الأول: مناقشة تقييمية لخارطة الطريق

تمثل هذا المحور بطرح عدد من ملاحظات شديدة التكثيف تهدف رسم ملامح الاقتصاد العراقي في المستقبل. ومن بين هذه الملاحظات ما يلي:

– يبدو للمتابع أن خارطة الطريق قد أعدت من قبل مجموعة من المستشارين دون عرضها على الرأي العام ومنهم ممثلو نقابات العمال والأكاديميين والصحافة والمؤسسات البحثية والجامعات وبغياب البرلمان المخول بالنظر في القضايا ذات الطابع الاستراتيجي. وقد ورد في الخارطة قيام الهيئة بزيارة عدد من البلدان التي مرت بمراحل الانتقال من الاقتصاد المركزي الى اقتصاد السوق ولكن الخارطة لم تشر الى النجاحات التي حققتها تلك البلدان في هذه التجربة كما لم تشر الى أسماء تلك البلدان.

– اعترفت الخارطة أن بعض الشركات الـ 176 المرشحة للهيكلة قد حققت تطورا ملموسا خلال السنتين الأخيرتين بسبب دعم الدولة وتحسين أدائها. وهذا يعني أن الخصخصة ليست خيرا مطلقا لان الظرف الملموس يلزم الدولة أحيانا اتخاذ إجراءات عاجلة من اجل إنقاذ مؤسساتها من حالات الإفلاس عند تعرضها الى ظروف موضوعية خارجة عن إرادتها. وهكذا فعلت بريطانيا وفرنسا، كما كان آخرها عملية "التأميم" التي قامت بها الولايات المتحدة الأمريكية لإنقاذ احد ابرز بنوكها عندما اشهر إفلاسه في الأزمة المالية الأخيرة التي مرت بها أمريكا ولحقتها أوروبا وعدد من البلدان الأخرى.

– "خارطة الطريق" مدار البحث رسمت ثلاث مراحل للوصول الى هيكلة الشركات وأشارت بعبارات غير واضحة الى الاستفادة القصوى من الشركات المملوكة للدولة، بعد هيكلتها، في تحقيق الموارد المالية والنمو الاقتصادي لذلك فإنها تحمل الشيء ونقيضه وبالتالي تفقد الجانب العملي في تحليلها.

– شخصت هيئة المستشارين الخلفية التاريخية والظرفية التي مرت بها هذه الشركات، ويمكن للقارئ أن يستنتج أن إنجاح هذه الشركات لا يمر عبر الخصخصة بالضرورة وإنما عبر دعم الدولة لشركاتها التي عانت من الصعوبات بسبب الحروب والإهمال فضلا عن مظاهر السلب والنهب التي تعرضت لها بعد 2003/9/4 وأمام أنظار قوات الاحتلال .

– إن دعم القطاع الخاص في بلادنا لا يتأت عبر الخصخصة إنما من خلال دعم المصانع القائمة والمتوقفة حاليا من خلال منظومة من التدابير وفي مقدمتها مدها بقروض ميسرة وإعفائها من الضرائب وحماية منتجاتها من منافسة البضائع المستوردة بصورة عشوائية وإعفائها من الديون القديمة في زمن النظام السابق.

– يبدو للمتتبع أن خارطة الطريق قد وضعتها المؤسسات المالية الدولية وان بصماتها واضحة تماما.

– من الحلول التي وضعتها الخارطة لامتصاص البطالة، الناجمة عن الهيكلة، ترحيل المشكلة الى وزارة العمل والشؤون الاجتماعية أو من خلال تطوير الأعمال الجديدة خاصة الشركات المتوسطة" والمتناهية الصغر" وهذه الأخيرة غير مفهومة

على الأقل في الاقتصاد العراقي .

– أشار وزير الصناعة الأستاذ فوزي الحريري في تقريره الى أن 13 شركة من شركات القطاع العام أصبحت رابحة بفضل جهود وزارة الصناعة وإعادة تأهيلها، وفي العام القادم، 2011، ستكون هناك 15 شركة أخرى رابحة علما أن كل ما يحتاجه القطاع الصناعي لإعادة تأهيل منشآته الإنتاجية هو مبلغ 7.6 مليار دولار.

المحور الثاني

مناقشة الواقع الاقتصادي بعد تغيير النظام والإجراءات التي اتخذتها الحكومات المتعاقبة في معالجة التداعيات الناشئة عن ذلك النظام وكيفية التعامل مع التحديات الكبرى التي تواجه اقتصادا هشا محطم البنية في بلد يتمتع بموارد كبيرة متأتية من صادرات النفط القابلة للزيادة وفي مناخ امني متوتر وقابل للانفجار في أية لحظة بسبب المأزق في تشكيل الحكومة وتدافع القوى المتنفذة على مواقع النفوذ لضمان القبض على مستقبل العملية السياسية. فهل سيكون الحل من خلال تطبيق سياسات التكيف الهيكلي؟ وإذا ما أوكلت المهمة الى القوى الديمقراطية فماذا ستفعل لمواجهة هذه المشاكل ؟.

المحور الثالث

ما هي الرؤى العقلانية في أسلوب مواجهة التحديات الكبرى في المجال الاقتصادي بكل قطاعاته؟. إن الآراء التي سيطرحها ضيوف هذه الطاولة ستكون مساهمة في بناء إستراتيجية بديلة لإصلاح الاقتصاد العراقي.

******

وبعد انتهاء الأستاذ المشهداني من تقديم مداخلته فتح باب النقاش الذي شارك فيه العديد من المشاركين. وأدناه خلاصات لهذه المداخلات حسب تسلسل تقديمها.

الاستاذ هاشم ذنون رئيس اللجنة الإدارية لاتحاد الصناعات العراقي

كان الأستاذ الاطرقجي أول المتداخلين في هذه الطاولة، والذي أشار الى أن الخصخصة بدأت في الشهر السابع من عام 2003 حيث عرضت جميع المنشآت الحكومية وعددها 192 مشروعاً صناعياً يضم أكثر من 240 شركة ومؤسسة صناعية للخصخصة. وكان (مجلس الحكم) قد أصدر في حينه القرار 90 لعام 2003 مؤجلا موضوع الخصخصة الى إشعار آخر. ورغم أن هذا القرار ما زال نافذ المفعول قانونيا لحد الآن ولا يمكن إلغاؤه إلا بقانون، ولكن جرى الالتفاف عليه وخاصة من قبل وزارة الصناعة. فمثلا من بين الصناعات الناجحة كانت مشاريع الاسمنت، وقد اعتمدت مشاريع القطاع العام والخاص على الاسمنت العراقي، غير أن ما جرى هو عملية سياسية مائة في المائة وان الحكومة الحالية هي حكومة تصريف أعمال ولا تملك الصلاحية في اتخاذ قرارات ذات طبيعة إستراتيجية.

وقد ضرب الأستاذ هاشم مثلا عما جرى في المعسكر الاشتراكي عند تطبيق سياسات التكيف الهيكلي، وأشار الى أن حكومة يلتسن باعت شركة سيارات لادا بمبلغ 45 مليون دولار والذين اشتروا الشركة باعوا الأدوات الاحتياطية المخزونة هذا عدا الموجودات الأخرى من مكائن وأدوات وارض

وبناء وملحقاتها باعتبارها ملكا مباحا. وهناك مثال آخر وهو أن حكومة يلتسن باعت موجودات ميناء سيباستيبول بـ 15مليون دولار وقد بيعت من الموجودات باخرتين بـ 20 مليون دولار والباقي أصبح مباحا لتجار الحروب. واستطرد الأستاذ هاشم بالقول أن ستة من المافيا الصهيونية تربعوا على عروش الشركات النفطية هناك واستحوذوا على المليارات من الدولارات من الإرباح إلا أن حكومة بوتن تمكنت من استرجاع الشركات النفطية ووضع اثنان من هؤلاء في السجون أما الأربعة الآخرون فقد هربوا الى خارج البلاد. أما عن التجربة المصرية فقد أشار الاطرقجي الى أن ما جرى هناك كان أسوا مما حدث في الدول الاشتراكية حيث تم تحت شعار الخصخصة والتخلص من "الشركات الخاسرة والعمالة الفائضة "وبيع المشاريع الصناعية بأبخس الأثمان.

غير أن الحملة التي شنها الخيرون من المثقفين وأساتذة الجامعات والمتنورون في القطاع الخاص ونقابات العمال، الذين تصدوا لهذه الإجراءات وأوقفوا هذا المشروع الخاسر ومعالجة الأمور بشكل آخر حيث قامت الحكومة المصرية بشراء قسم من هذه المشاريع التي باعتها باسم الخصخصة.

الصناعي والخبير الاقتصادي باسم جميل أنطوان

أشار في مستهل حديثه الى عدم دقة المعلومات الواردة في ورقة العمل، وان وزارة الصناعة لم تتمكن من تقديم الحلول الناجحة للمشاريع الصناعية التي تعاني من النهب وتكديس العمال فيها.

وأضاف أن الإصلاح الاقتصادي مهم، إلا أن الإصلاح لا يعني الخصخصة على أن يتم في كل وزارة تشكيل هيئة لدراسة المشاريع وتقديم الحلول مع ضرورة مشاركة العاملين في المشاريع باسهم ووضع حد للاستيراد العشوائي وتطوير الإنتاج المحلي والاهتمام بتطوير المشاريع الصناعية في القطاع الخاص عبر منظومة من الإجراءات وحماية منتجاتها من استيراد البضائع المنافسة كجزء من حماية الإنتاج المحلي.

النقابي عدنان الصفار

أشار الى أن اقتصاد السوق ليس هو الحل ولا يجلب الخير للعراقيين. بيّن أن الورقة تطرقت الى العمال ونقاباتهم مؤكدا على مشاركة العمال في اتخاذ القرارات الإستراتيجية وتساءل:

هل تم إحياء المشاريع الصناعية خلال السنوات السبع الماضية؟ مشيرا الى وجود تخوف من العمل النقابي وقد استبعدت هيئة المستشارين بقراراتها الخبرات العمالية عبر تخييرهم بين الإحالة على التقاعد مبكرا أو اخذ تعويض أو التحول الى الرعاية الاجتماعية، وهذا غير مقبول.

وأضاف الصفار إن تجارب الخصخصة في كثير من بلدان العالم فاشلة وان القطاع الخاص ليس بالضرورة أن ينتعش على حساب القطاع العام، وتطرق الى أهمية تقوية التنظيم النقابي للحركة العمالية، منوها الى أن "خارطة الطريق" تحتاج الى مراجعة وإعادة مناقشتها من جديد.

الخبير الاقتصادي الدكتور ماجد الصوري

بدأ الدكتور ماجد مداخلته متسائلا: هل أن اقتصاد السوق يمنع دور الدولة؟

وأضاف أن اقتصاد السوق هو اقتصاد العرض والطلب ومن الضروري أن يكون للدولة دور في هذا النمط من الاقتصاد. لقد رُفع شعار الخصخصة من اجل الخصخصة بحيث اعتبرت هدفا وليست وسيلة من اجل إنعاش المشاريع، وتساءل: كيف نعالج مشاكل القطاع العام وهي مشاكل عامة؟ وأضاف: نرى مثلا هناك تدخل الدولة في المصارف وهو الذي أدى إلى تدهور هذه المصارف. هناك حلول كثيرة لمشاكل القطاع العام إحداها الإدارة وقد وضعت حلول خاطئة وفاشلة مشيرا الى التجربة الفاشلة لوزارة الصناعة ومنحها لرواتب موظفيها دون أن يمارسوا العمل والإنتاج. ويضيف الدكتور الصوري أن لدى الدولة إمكانية لإعادة هيكلة القطاع العام، وإذا رأت الدولة أن هناك عمالة غير فاعلة فإنها يمكن فرزها والعمل على تطوير المشاريع.

وأكد الدكتور الصوري على أن كثيرا من الأصوات الليبرالية تدعو الى خصخصة مؤسسات القطاع العام وهذا غير صحيح، إنما يجب دراسة كل مشروع على حدة مشيرا الى نمو فئات برساميل كبيرة جدا والتي ستسيطر على المشاريع. وأضاف أن كان هناك صراعا بين اقتصاد السوق والاقتصاد الموجه والاقتصاد المركزي وتساءل: ما هو اقتصاد السوق الذي يعنينا في العراق؟ هل هو كما موجود في الولايات المتحدة الأمريكية أم البرازيل أم الصين؟ وأكمل الدكتور ماجد حديثة مؤكدا على أننا لا نقف ضد الخصخصة إذا كانت ناجحة ومن الضروري إعادة هيكلة القطاع العام وبعد ذلك التفكير بالخصخصة ووضع فلسفة متكاملة بهذا المجال، مؤكدا على ضرورة تقوية الطبقة العاملة.

الخبير النفطي الدكتور حمزة الجواهري

انطلق الأستاذ الجواهري من أن المشكلة في العراق هي مشكلة أنظمة وقوانين وقيم وهناك علاقة بين العمل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. أما الفساد فهو موجود سواء في العراق أم في أوروبا ولكن بدرجات مختلفة، حيث لا نجد أن حجمه في أمريكا واليابان بقدر ماهو موجود في العراق. وارجع السبب في ذلك الى الأنظمة، إذ لا تتوفر في العراق أنظمة تنظم العمل. فعلى سبيل المثال في صناعة النفط نحتاج الى مئات الخدمات وهي غير موجودة. في الغرب الفساد اقل منا بسبب أنظمة للعمل فنحن نريد من إنسان يحبو أن يكون عملاقا. وتطرق الدكتور حمزة الى تجربته في مجال النفط وكيف أن حجم العمل يتطلب وجود العديد من الخدمات وهي غير متوفرة حيث لا يمكن توفير بيئة خدمية للقطاع النفطي.

وأضاف: في العراق يكلف إنتاج النفط ثلاثة أضعاف كلفة الإنتاج في الخليج، وبناء عليه من الضروري خلق بيئة خدمية متطورة في البلاد وتطوير شركات القطاع العام وإدخال التكنولوجيا الحديثة مع وجود منافس لنشاطها.

فمثلا شركة الحفر العراقية لم تستطع الوقوف على إقدامها في الوقت الذي لا يوجد لها منافس من العراقيين حيث أن المنافسة تسهم في عملية التطوير وتوفير البيئة الخدمية.

المهندس أدور جبري

أشار في مداخلته الى أن الخصخصة هي العلاج النهائي لأي مشروع فاشل، لكن الحقيقة أن هناك العديد من المشاريع

الناجحة فلماذا تتم خصخصتها؟ وهناك الكثير من دول العالم قد فشلت فيها الخصخصة مثل مصر إذ أدت الى المزيد من البطالة والفقر. أما في ما يتعلق بالمنتج العراقي، فأكد الأستاذ جبري انه ليس له أي دعم من الحكومة، إلى جانب العراقيل الاستثنائية. وكحوافز للعاملين يرى المهندس أدور جبري ضرورة توزيع نسبة من الأرباح في المشاريع. وبدلا من تخصيص المبالغ الطائلة لاستيراد السيارات من الممكن إقامة العديد من المشاريع .

النقابي هادي علي الأمين العام لاتحاد نقابات العمال في العراق

أشار الأستاذ هادي علي الى أهمية عقد مثل هذه الفعاليات لمناقشة الاقتصاد العراقي والتحديات التي تواجهه في المرحلة الحالية، مؤكدا عدم وجود سياسة اقتصادية واضحة المعالم. فاقتصادنا، كما يؤكد الأستاذ هادي، قد ابتعد كثيرا عن المعايير الوطنية والعربية ولو عدنا الى النظام المباد لوجدنا انه قد اهتم بعسكرة الاقتصاد ونحن دولة بترولية غنية. ورغم ذلك فخلال السنوات السبع الماضية لم توظف موارد النفط لبناء قاعدة اقتصادية متنوعة في مواردها صاحبها إهمال واضح للإنسان العراقي الكادح عدا عن الاهتمام به لوجهة طائفية، مؤيدا ما تطرق إليه الدكتور ماجد الصوري من أن اقتصاد السوق لا يعني إلغاء قطاع الدولة. وندعو كاتحاد عام لعمال العراق، الى إعادة الحياة لقطاع الدولة مذكرا بقرار صدام حسين بتحجيم دور الطبقة العاملة من خلال قراره بتحويل العمال الى موظفين، أما اليوم فقد تم شل حركة النقابات والمنظمات المهنية من خلال قرار تجميد أرصدتها المالية منوها الى أن الهيئة الاستشارية قد عملت بالظلام لتمرير (خارطة الطريق) التي وافق عليها مجلس الوزراء وعلينا – كعمال – أن تكون لنا مساهمة وعمل حي في كل مواقع الإنتاج.

الأستاذ سعدون الربيعي

تحدث الأستاذ الربيعي عن عدم تمكن الدولة خلال السنوات السبع الماضية من وضع الحلول لمعالجة وتطوير الشركات والمشاريع العملاقة وان خصخصة الشركات والمشاريع ستؤدي الى تسريح الكثير من العمال ومن المدراء العامين. وفيما يتعلق بموضوع الخصخصة فهناك من يؤيدها وهناك من يرفضها وطرف ثالث يؤيد الحلول المتوازنة. وهذا الموضوع تم مناقشته ولكن الإسراع في اتخاذ القرار غير صحيح حيث انه ينبغي التريث حاليا. فمثلا الشركات المعروضة للخصخصة هي 176 شركة فمن يتحمل مسؤولية فشلها؟ هل هم العمال ؟ هناك الكثير من المشاريع العملاقة كشركة الصوف الصخري والزيوت النباتية والإطارات والصناعات البتروكيمياوية وصناعة الزجاج وكثير غيرها . فالخصخصة تعني تسريح كثير من العاملين وحتى المدراء العامين.

والحل المطلوب، حسب الأستاذ الربيعي، أن يصار الى التدرج كأن يتم تحويل الشركات المطلوب خصخصتها الى شركات مختلطة. في السابق كان العمال يمثلون في إدارة الشركات ولكن بعد سقوط النظام الغي هذا التمثيل، وقد الحق الضرر بمصالح الكثيرين فقد ألغيت نقابة عمال النفط ومكاتبها ونقابة عمال الكهرباء. وأضاف أن

دعم القطاع الخاص لا يأتي عبر الخصخصة فهناك شركات عامة حققت نجاحا، فعلى سبيل المثال حققت شركات التأمين ولغاية موازنة 2009 مبالغ كبيرة وضفت في تنشيط المشاريع التنموية ولكن هناك شركات قطاع خاص وجدت كشركات منافسة للشركات الحكومية لهذا فان وجود المنافسة بين شركات القطاع الخاص والقطاع العام أمر مشجع فسيدفع بالشركات الى تطوير مواردها. وهنا نتساءل: هل أن الخصخصة هي مطلب وطني ملح؟ يجيب الأستاذ الربيعي قائلا: في نظري الجواب كلا. وهناك وجهات نظر طرحها الإخوة الذين سبقوني في الحديث وهي انه إذا ما تم إصلاح الاقتصاد الوطني على طريقة صندوق النقد الدولي فسيؤدي ذلك الى تسريح الكثير من العمال والموظفين فان حصل هذا واقر بموجب القرارات الحكومية، فلا بد من تأسيس بدائل حماية اجتماعية. وقد اقترح المتحدث تأسيس إدارة اقتصادية تكون بعيدة بقراراتها عن العشوائية والفردية والحزبية الضيقة، داعيا الى تسخير الموارد النفطية لدعم القطاعات الخدمية والصناعية والزراعية والسياحية وقطاعات التعليم والصحة والإسكان. وفي حال إقرار خصخصة بعض الشركات من الضروري تحويلها الى مشاريع مختلطة لخطة تحدد مسبقا مع ضرورة منح الموظفين والمنتسبين أسهم مجانية عند تشكيل مجالس الإدارة وإشراك ممثلين عن العمال في هذه المجالس.

الدكتور حسان عاكف عضو المكتب السياسي
للحزب الشيوعي العراقي

في بداية حديثه أشار الدكتور حسان عاكف الى انه أصبح من الواضح للجميع بان توجه البلد بعد عام 2003على صعيد السياسة الاقتصادية هو توجه رأسمالي، وهذا التوجه مرتبط بالواقع الموضوعي للعراق ومفهوم من قبل كل القوى السياسية بما فيها القوى اليسارية الماركسية. وأضاف أن الموقف من القطاع الخاص موقف ايجابي فليس هناك طرف أو جهة لا تطرح مسالة دعم القطاع الخاص وخاصة المحلي ليأخذ دوره في العملية الاقتصادية والاستثمار، وهذه المطالبة من القوى السياسية في البلد. وأعرب د.حسان عن اتفاقه مع ما طرحه أكثر من متحدث بان دعم القطاع الخاص لا يستلزم التوجه الى بيع القطاع العام وتصفيته، كما أن الوثائق الأساسية للدولة متمثلة بالدستور وخطط التنمية والإستراتيجية وبرامج الحكومة ووثيقة العهد الدولي تؤكد على هذا التوجه، وتذهب ابعد من دعمها للقطاع الخاص وتؤكد على الدور الريادي للقطاع الخاص، وفي هذا مبالغة في ظروف العراق. نعم لدعم القطاع الخاص من قبل الدولة ولكن في بلد ريعي مثل العراق أن يكون القطاع الخاص محوراً للتنمية الاستثمارية والبشرية فان الأمر فيه مبالغة ومحاولة لفرض قناعات سياسية لا يقبلها واقع العراق. أما فيما يتعلق بـ "خارطة الطريق" المطروحة أضيف وبصراحة ضمن الأجواء السائدة في البلد وتعدد مراكز القوى وتخبط في الاستراتيجيات فإننا نرى في الخارطة المذكورة جوانب هلامية غير واضحة إلا فيما يتعلق بالخصخصة، كما أن إعادة الهيكلة لا تعني الخصخصة إلا في جوانب معينة. الخارطة المطروحة فيها عموميات بعض الشيء، ومن الملاحظات الأخرى أن هذه

الخارطة صادرة من هيئة المستشارين وليس كما هو حال اللجنة الاقتصادية والتي يفترض أنها معنية برسم السياسات الإستراتيجية الاقتصادية في العراق وليس هيئة المستشارين وليس كما هو حال اللجنة الاقتصادية العليا. عند التحضيرات لبلورة موقف العراق بشأن الاتفاقية العراقية الأمريكية تم تشكيل لجان منها لجنة الاقتصاد والطاقة وعقدت أكثر من اجتماع ومثل الجانب العراقي كافة الوزراء المعنيين يقابلهم الخبراء الأمريكان، وكان برنامجها ومحور عملها إعادة تأهيل ودعم القطاع العام ودعم القطاع الخاص إضافة الى خلق شراكة بين القطاعين العام والخاص.

وأضاف الدكتور حسان عاكف في مداخلته بان الورقة المقدمة للنقاش ذهبت ابعد من هذا الذي تحدثت عنه في أعلاه وهو أكثر واقعية وأكثر انسجاما مع تطور البلد مما تطرحه الخريطة، واعتبارها إعادة الهيكلة هي الحل. واتفق مع ما طرحه الدكتور ماجد الصوري بضرورة إعطاء فرصة للقطاع العام بعد تقديم الدعم المطلوب ومنح مؤسساته فسحة زمنية ومن ثم نتوجه للخصخصة سواء الشركات الصغيرة أو الفاشلة. أما الشركات ذات الطابع الاستراتيجي فلا يمكن خصخصتها ذلك انه إذا ما دعمت ستكون شركات ناجحة ويمكن أن تستوعب أعدادا كبيرة من الأيدي العاملة والفنيين والمهندسين. وربما هناك مجموعة ثالثة من الشركات تحتاج الى مزيد من الوقت لترتيب أوضاعها وبعدها يصدر القرار، فأما أن تستمر أو يتم تخصيصها. كما أن دعم القطاع الخاص ليس له بوابة واحدة ولا يمكن بيع القطاع العام برخص التراب، وأضاف أن في العراق من المواقف المختلفة حتى داخل الطبقة الواحدة ليست على انسجام تام بشأن هذه القضايا. فالطبقة تضم شرائح وفئات مختلفة بعضها يستفيد من الخصخصة المتعجلة والبعض الآخر يستفيد من الخصخصة المتأنية والصنف الثالث يتضرر. وداخل الكتل السياسية إذا تابعنا مجلس النواب والوزراء وما يترشح منها نرى مسؤولين من كتلة واحدة تبرز الاختلافات بينهم إذا ما طرحت هذه القضايا. والملاحظة الأخيرة، الى جانب الدعوة من قبل الجميع بمن فيهم من اعد الخارطة المذكورة وقاموا بالاتصال بجهات أجنبية وبلدان جربت الخصخصة نقول: لدينا تجربة القطاع الزراعي في نهاية الثمانينات، فقد كانت هناك مشاريع عملاقة صرفت عليها خلال العقود الثلاثة مليارات الدولارات ثم تم خصخصتها وبيعت برخص التراب للقطاع الخاص لذلك أدعو لدراسة التجربة فهل خلقت فرص عمل وهل نهضت بالاقتصاد بعد الخصخصة؟

المهندس حكمت الفرحان الاستشاري والخبير في شؤون المياه

ابتدأ الأستاذ الفرحان حديثه بالإشارة الى أن الاقتصاد العراقي وطيلة تاريخ العراق يخطط له ويدار مركزيا من قبل الدولة، وهو الاقتصاد المهيمن يصاحبه قطاع خاص ضعيف. وأكد على انه لابد من اخذ هذه الحقيقة بالاعتبار شئنا أم أبينا وان أية محاولة لتقليد الاقتصاد الأمريكي والقوى الفاعلة والمقررة فيه سيؤدي بالنتيجة الى إلحاق اشد الضرر بالاقتصاد العراقي، ويعرضه الى سلسلة من الأزمات والاستمرار

في زيادة معدلات التضخم وارتفاع أعداد العاطلين عن العمل. كما أن تحويل الدولة الى حارس للمستثمرين الأجانب من خلال زيادة عديد القوات المسلحة سيرتب على الدولة تكاليف باهضة وعلى حساب تصفية الشركات الإنتاجية الحكومية يقابلها استقدام العمالة الأجنبية. وشدّد الأستاذ حكمت الفرحان على أن العراق يمتلك خبرات جيدة وكفاءات في مجال الدراسات والتصاميم والري واستصلاح الأراضي ومشاريع الإسكان والطرق والجسور واستخراج النفط والكبريت والفوسفات وتشغيل وصيانة الطاقة الكهربائية. إن كل تلك العوامل تشجع على إعادة تأهيل الشركات الحكومية ضمن إستراتيجية تنموية مستدامة، وفي نفس الوقت توظيف هذه الخبرات في مجال تطوير القطاع الوطني الخاص التي تستطيع عند إعادة الحياة إليها أن تستوعب أكثر من نصف مليون من الأيدي العاملة العاطلة.

إن الحكومة، في حالة الإصرار على السير في طريق اقتصاد السوق، مطالبة باتخاذ سلسلة من الإجراءات ومن أهمها تقديم الدعم للقطاع الخاص بما يؤمن أخذ دوره الأساس في الاقتصاد الوطني، وتنشيط دور الدولة في الرقابة والسيطرة النوعية على البضائع المستوردة وفرض الرسوم الجمركية كما تفعل معظم دول العالم ودعم الدولة وإبقاء قطاع التعليم والصحة والخدمات الأساسية بإدارة الدولة.

الدكتور محسن القزويني، أستاذ جامعي

أشار الدكتور القزويني الى تجربة " العلاج بالصدمة "مبينا أن المؤسسات الدولية سبق أن "نصحت "الدول الاشتراكية السابقة باعتماد هذه الوصفة، وقد انقلبت هذه "النصيحة" الى تدمير اقتصاديات تلك البلدان وخلق طبقة برجوازية طفيلية نهابة وأنتجت بطالة مريعة وبيعت مصانع تلك البلدان بابخس الأثمان. وهنا لابد من الإشارة – حسب الدكتور محسن القزويني – الى ما يجري في الوزارات العراقية من محاصصات خلقت حالة من الفساد الإداري والمالي، وتساءل: هل تعرف المؤسسات الدولية بذلك وما هي "نصائحها" في معالجة هذه الآفة المستشرية؟ وأشار الى وجود الكثير من المشاكل في القطاع العام تستلزم التوقف عندها بطريقة عملية، وتطرق الى فشل الدولة في تطوير الهواتف الأرضية معتمدة على الهواتف النقالة التي شهدت الكثير من الاعتلالات.

الأستاذ حسن ألشمري، صناعي

توقف الأستاذ الشمري في مداخلته عند الصناعات الصغيرة والمتوسطة والمتناهية الصغر، مشيرا الى أن كل دول العالم تعتمد الآن هذه الأنظمة الثلاثة. فحتى أمريكا في أزمتها الراهنة عملت على إنشاء مراكز أبحاث خاصة لدراسة الصناعات الصغيرة والمتوسطة لكونها تقضي على البطالة حتما وكل المشاكل الاقتصادية في المجتمع. وأشار الى أن جمهورية مصر العربية تعمل على هذا النمط، فهناك 30 ألف موظف يعتمدون الاقتراض لعمل المصانع الصغيرة، مضيفا أن العراق كبلد ريعي يحتاج هذه الصناعات لفترة زمنية قصيرة، مؤكدا أن الواقع الحالي لشركات القطاع العام تعيش على ارث كبير وتنهب من الميزانية العمومية العراقية.

وتحدث عن تجربته الخاصة مع القطاع العام منذ عام 1996 عندما كان النظام السابق يحسب الدولار بـ 300 فلس في حينه كان سعره يبلغ 3000 دينار بالسوق المحلية فكيف ننهض بالقطاع العام والقطاع الخاص يأخذ الدولار بـ 300 فلس؟ وأشار الى أن القطاع العام سالب الصيت وان معامل العراق هي معامل تجميعية فليست هناك مصانع حقيقية. فالصناعات الحقيقية عندنا هي الصناعات الاستخراجية ويجب إقامة المشاريع العملاقة من قبل الدولة والقطاع الخاص. وأشار الى معمل الحديد والصلب في الجنوب ومعمل للالومنيوم في النجف الذي نصب في عام 1968 ولكنه ولغاية عام 2003 لم يشغل. بعد عام 2003 كشف القطاع العام على حقيقته ففيه كوادر علمية هائلة ولكنها تعامل كالعامل البسيط وهذا خطا كبير. وبعد عام 2003 تصاعد الفساد المالي والإداري. أما فيما يتعلق بمنشآت ديالى فإنها رابحة في مجال صناعة المحولات الكهربائية غير أنها لم تتطور مقارنة بالعالم وتصاميمها قديمة، فهل يمكن دعم هذه المنشآت ماديا؟ الجواب كلا. وتطرق الأستاذ الشمري الى الترهل الوظيفي في مؤسسات القطاع العام وضرب مثلا معمل الصوف الصخري الذي كان عدد منتسبيه 17موظفا أما الآن فيبلغ العدد 105 موظفين فكيف ينافس هذا المعمل معمل الصوف الأردني مثلا. وبحسب رأي الأستاذ الشمري فان القطاع العام يتميز برداءة الإنتاج ولا يستطيع المنافسة لان تكاليفه عالية، ولو أن ما صرف على القطاع العام خلال السنوات الثلاث الأخيرة على القطاع الخاص لكان عندنا مئات المعامل الجيدة، ودعا الى استيراد السلع ذات المواصفات العالية وطرح بعض الحلول ومنها بيع البنى التحتية للمنشات حيث تبلغ قيمتها الدفترية صفر وتعويض الموظف بإعطائه راتباً لمدة سنة، ليتسنى له إقامة مشروع. ولابد في هذه الحال من تقييد الاستيراد وتفعيل السيطرة النوعية. وهناك كفاءات كثيرة ومن الممكن جمع 5–6 وتقديم القروض لهم لإقامة مشروع بعد دراسة جدوى، فإذا نجحت هذه المشاريع فالدولة هي الرابحة وستوفر ميزانيتها. ويعتقد الأستاذ حسن الشمري أن هذه الفكرة ستؤدي الى نهوض العراق نهوضا ممتازا، واختتم حديثه بالقول أن هناك فسادا كبيرا في شركات وزارة التجارة وهذا واقع حال سببه القطاع العام وتمنى أن يصل صوته الى مجلس الوزراء .

الدكتور عامر حسن فياض،
أستاذ جامعي وعميد كلية العلوم السياسية/ جامعة بغداد

في مستهل مداخلته أشار الدكتور عامر حسن فياض الى محاورة جرت بين كونفشيوس وأحد تلامذته عندما سأله: ما هي أركان الحكم الصالح؟ أجابه كونفشيوس بأنها تتمثل في ثلاثة أركان وهي: قيمة القوة والغذاء والحاجة وتلبية الحاجة والثقة بين الحاكم والمحكوم.

ويسال التلميذ: إذا اضطررنا أن نتخلى عن واحدة من اثنتين؟ أجاب كونفشيوس: نتخلى عن الغذاء. وهذا يوصلنا – حسب الدكتور عامر – الى موضوع المحاسبة والثقة بين الحاكم والمحكوم. وأضاف انه سمع ملاحظات كثيرة تتعلق بالشأن السياسي نفسه، فبالنسبة لانعدام الأمن

وعدم الاستقرار هل يمكننا وضع خرائط لسياسة اقتصادية في البلد؟ هذا المفتاح أن كان ناقصا لا يجعلنا نؤجل الخارطة ثم نتحدث عن الخصخصة أم بين طياتها فهناك اجتهادات فالورقة تتحدث عن إصلاح اقتصادي وهيكلة الاقتصاد والذي له قدر اتخاذ موقف الحزب الشيوعي العراقي فهو يعترض بموقفه على مضامين هذه الورقة، لابد من مراجعتها بشكل أو بآخر، حيث تتعامل هذه الدعوة مع خارطة الطريق وكأنها هي نهاية المطاف. وأضاف الدكتور فياض أن خرائط الطريق لا تخوف وهناك خرائط لا تنفذ مثل خارطة الأرض مقابل السلام، فلنناقشها ونعدلها وضرورة رسم سياسة حمائية للسياسة الوطنية. وأشار الى وجود حقائق فالبنك الدولي والشركات الكبرى كيف نتعامل معها؟ نحن لدينا حضارة وخبرة وخبراء ولكن أين هم؟ إنهم بلندن وعواصم أخرى ونتحدث بمسائل ما عادت حقائق. نقطة عملية تحدث بها الدكتور ماجد الصوري وهي أن أمامنا مشاريع فكيف نتعامل مع كل مشروع على حدة؟

إن الخرائط غير مخيفة ويترتب عليها قرارات وتشريعات فهل هناك تشريعات كاملة لتنفيذ هذه السياسة التي نضعها؟ وأشار د. عامر الى ما قاله الأستاذ هاشم ذنون الذي تحدث عن قرار مجلس الحكم، فمن الضروري وضع تشريعات لتنفيذ السياسات الاقتصادية، وأضاف: توجد كارثة كبيرة في التشريعات وهي عدم اعتماد التحكيم فهناك قاعدة " العقد شريعة المتعاقدين " فالمستثمر الأجنبي لا يتجرأ على المجيء الى العراق بسبب القوانين. فعند حدوث أي خلل في تنفيذ العقد بينه وبين الطرف العراقي فلابد من مراجعة المحكمة للتحكيم بين الطرفين ولكن القوانين العراقية لا يوجد فيها ما ينص على قبول قرارات المحاكم الأجنبية بل فقط ما تتخذه محاكمنا.

الدكتورة عائدة فوزي، أستاذة جامعية

أشارت د. عائدة فوزي في بداية حديثها الى تنوع مداخلات المشاركين بشان خريطة الطريق لإعادة هيكلة المؤسسات الحكومية وهذا يدلل على كبر المشكلة وعمقها. وبينت د.عائدة أن المسالة الاقتصادية لا تقتصر على الظروف الموضوعية والذاتية الخاصة بالعراق بل نحن ضمن حركة عالمية. لنبدأ من اللجنة الاقتصادية لمجلس الوزراء ففيها مثلا عناصر بعيدة عن مجال الاقتصاد. وتوقفت د. عائدة فوزي عند موقف الحزب الشيوعي العراقي، وأشارت الى انه ينظر الى المسالة من خلال تأكيده على انه لا القطاع العام خير مطلق ولا القطاع الخاص شر مطلق والعكس صحيح. وأشارت الى الجدل القائم حول لمن الأولوية في الاقتصاد العراقي: هل القطاع العام أم القطاع الخاص؟ فالمسالة ما زالت غير واضحة لعامة الناس، والبلد لا توجد فيه زراعة تلبي حاجة البلد ولا صناعة ولا بنى تحتية. وعلى مقتضى ذلك هل يمكن القول أن اقتصاد السوق يمكن أن يكون بديلا عن التخطيط المركزي ؟ وهل التخطيط المركزي هو الحل ؟ واختتمت الدكتورة عائد فوزي حديثها بالقول انه لا يمكن أن يحل القطاعان العام والخاص احدهما محل الآخر فكلاهما يكملان بعضهما وكلاهما يحتاجان تدخل الدولة. ومن المعروف أن كل القطاعات تسهم بنسبة معينة في تكوين الدخل القومي

بيد أن هناك اختلالا فما يزال القطاع النفطي هو المهيمن. وبحسب الدكتورة عائدة فان الأمر يحتاج الى تفعيل دور مجلس النواب لوضع التشريعات الضرورية لتطوير الاقتصاد بقطاعيه العام والخاص إضافة الى إقامة مراكز بحثية وأخرى استشارية للإسهام في تطوير الاقتصاد، وخلصت الى القول أن العراق لا يحتاج الى نصائح المؤسسات الدولية وإنما بحاجة الى لجنة اقتصادية كفوءة قادرة على بناء إستراتيجية صحيحة.

الدكتور صباح السوداني،
معاون مدير عام
في وزارة العلوم والتكنولوجيا

تطرق د. صباح السوداني الى هيكلية الاقتصاد والتجارب الاقتصادية الجديدة ويرى أن الحديث انصب على قطاع واحد ولم يتم التركيز على المواضيع الإستراتيجية المهمة والمفروض تحديد المواضيع مدار النقاش، فنحن في مشكلة وفراغ فهل نذهب الى التفاصيل التي تبعدنا عن المسالة الأساسية؟.

وأضاف د.صباح الى أن القطاع النفطي يمثل المرتبة الأولى ثم الصحة والتعليم فهل من الممكن خصخصة هذه القطاعات؟، وينبغي التركيز على القطاعات التي تستوجب التشريعات وليس القطاعات المنتهى منها.

الدكتور صالح ياسر،
باحث اقتصادي ورئيس تحرير
مجلة الثقافة الجديدة

قام الدكتور صالح ياسر بالتعقيب على ما طرحه المشاركون في الندوة مشيراً إلى الملاحظات القيمة التي أثيرت، وأكد على أن "خارطة الطريق" قدمت خطاباً محددا يحتاج الى مقاربة نقدية لأنه يستند على عدة ركائز هي بمثابة "الاسمنت المسلح" لتلك الخارطة، مشددا على أن النقاش النظري بشأنها مطلوب جداً لكشف مضمون الخطاب الذي قدمته وأهدافه ومراميه الأساسية.

المشكلة الفعلية تكمن في بلورة منهجية واضحة بشأن إعادة تأهيل القطاع العام وهذا ما ينبغي التوقف عنده. وانطلق الدكتور ياسر في حديثه مؤكدا على أن هناك صراعاً محتدماً حول شكل ومحتوى الدولة، مشيراً إلى ضرورة تأسيس دولة عصرية ديمقراطية تمثل نفيا لدولة الاستبداد السابقة التي أنتجت آليات النهب وسوء الإدارة والبيروقراطية والقوى الطفيلية التي تعتاش عليها.

وبالمقابل، أكد على ضرورة التمييز بين مفهوم السوق ومفهوم الخصخصة مشيرا الى أنهما مفهومان مختلفان وليس متطابقين. فالخصخصة كما هو معروف ترتبط بنقل الملكية في حين أن اقتصاد السوق هو نهج إعادة توزيع المواد عن طريق آليات المنافسة والسوق الحقيقية. كما أشار الى انه لا الخصخصة ولا القطاع العام يمثلان خيارات اقتصادية صرفة، بل هما يعبران عن خيارات سياسية كبرى وخطيرة في آن واحد، تدور في جوهرها حول محتوى الدولة العراقية الجديدة، وشكلها، والوجهة التي تتخذها: أما تحت حراب صندوق النقد الدولي ونصائح "منظريه"، أو من خلال الإرادة العراقية الوطنية والديمقراطية، أي أنهما يقعان ضمن معركة البدائل التي تتصارع في هذه اللحظات المتوترة

والمفتوحة. تلك هي المسألة الحقيقية، فمهما نافح صقور الليبرالية الجديدة ونسور صندوق النقد الدولي ومستشاريهم الجالسين في غرف مكيفة، فإن الأمر يدور حول البدائل الحقيقية لحل المشاكل الحقيقية التي توجه بلادنا ومجتمعنا، بعيدا عن أوهام إيديولوجيا التكييف الهيكلي. المعركة الدائرة اليوم هي معركة بدائل والمطلوب الجمع بين دور السوق ودور الدولة بما يحقق تنمية اجتماعية عادلة يمكن من بناء اقتصاد وطني مستقل على أن لا يكون معزولاً عن العالم بل متفاعلا معه.

أما الركيزة الثانية التي ترتكز عليها "خارطة الطريق " – بحسب الدكتور صالح ياسر – فهي إعادة الهيكلة والتي تؤكد على هيكلة الشركات التابعة للدولة بالتعاون مع عدد من المؤسسات والشركات الدولية. إن مثل هذا الأمر والتفاوض مع هذه المؤسسات – في ظل انعدام توازن القوى بين الطرفين – سيؤدي إلى فرض شروط تلك المؤسسات علينا.

وبيّن أن الركيزة الثالثة للخارطة المذكورة هو رهانها على العوامل الخارجية وليس على العوامل الداخلية. فهي تؤكد على الجانب الإقليمي من خلال إشارتها الى "إعادة دمج العراق في الاقتصاد الإقليمي كأولوية "، وتساءل عن المنافع التي يمكن أن يجنيها الاقتصاد العراقي في حال اندماجه مع اقتصادات معظم بناها الاقتصادية متماثلة: ريعية أو أحادية الجانب وتحكمها نظم سياسية متباينة؟ وبالتالي كيف سيجري التخصص وما هي الصناعات التي يتخصص بها كل بلد؟

وأكد على أن الاندماج مع دول الإقليم دون تحديد ملموس له، هو مجرد معنى افتراضي فقط ولن يتحقق على المديّن القصير والمتوسط طالما بقيت تلك الاقتصادات تتمتع بذات السمات.

وبالمقابل تحدث د. ياسر عند الركيزة الرابعة للخارطة المذكورة والتي تتمثل بافتتانها – أي الخارطة – بالتجارب العالمية دون تحديد ملموس لها ولنتائجها الفعلية. ففي لغة إيديولوجية ماكرة تحاشى مهندسو " الخارطة " الإشارة الى أي دول يقصدون وما هو مدى " أفضل الممارسات" أو "النتائج الايجابية " كما ورد في " الخارطة " والتي تحقق في هذه التجارب بالملموس؟ فلو توقفنا مثلا أمام التجربة الروسية أو تجارب بعض بلدان أمريكا اللاتينية وبعض البلدان العربية وفي مقدمتها التجربة المصرية لوجدنا أنها كانت تجارب فاشلة فيما يتعلق بالخصخصة. وبيّن أن المعلم المميز المشترك في هذه التجارب هو الاستقطاب الاجتماعي الواضح، حيث تركزت الثروة في جانب والفقر في جانب آخر من المجتمع. وأشار د.ياسر الى انه من الطبيعي أن يتحدث الخطاب السائد عن هذه النتائج المرافقة لهذا التحول وكأنها "تضحيات ضرورية ولكنها مؤقتة فقط"! فقد ادعى أنها "تضحيات ضرورية من أجل إعادة بناء هياكل فعالة ستتيح تنمية مستقلة"! بيد أن التجربة التأريخية تشير الى أن الخضوع الأحادي الجانب لمنطق الربحية يضع المجتمعات في حلقات انكماشية لن تجد لها حلاً من تلقاء نفسها، بل من خلال صدمة خارجية تهز منطق سيادة الربحية وتضع حداً له.

وتوقف د. ياسر أيضا عند تجربة بلدان جنوب شرق آسيا التي يسعى البعض الى

إعلاء قوى السوق الى مرتبة القوة الدافعة الوحيدة للنمو الاقتصادي الذي تم في هذه البلدان، مشيرا الى أن قراءة أكثر دقة وموضوعية لهذه التجربة ستقود الى نتيجة مغايرة تماما. فقد كان تدخل الدولة هناك قد شكل القوة الرئيسية للنمو الاقتصادي من الستينات حتى التسعينات من القرن الماضي. وأكد المتحدث على أهمية دراسة تجارب هذه الدول، واستنتج بان الفكرة التي تراهن عليها "خارطة الطريق" والمفضية نتيجتها الى تحويل الدولة العراقية من مالكة الى دولة تمارس دور الخفير هي فكرة غير واقعية وتفندها تجارب العديد من البلدان التي بنت تجاربها على "الطريقة الرأسمالية".

وتحدث عن آليات السوق وعن الأزمة العالمية لعام 2008 حيث قامت الدولة بحماية المؤسسات الرأسمالية وليس المواطنون أي تمت عملية متناقضة تمثلت بـ "تشريك الخسائر وخصخصة المكاسب".

ومن جهة أخرى توقف المتحدث عند أهمية الإصلاح الاقتصادي وضروراته ولكنه استدرك قائلا بضرورة الملموسية عند تناول هذه القضية، فبلادنا لا تحتاج إصلاحا بالمعنى العام، بل إصلاحا ينطلق من الحاجات الفعلية الملموسة للاقتصاد العراقي، أي ليس ذلك النابع من وصفة المؤسسات المالية والنقدية الدولية، بل إننا نحتاج الى الإصلاح الهادف الى تغيير البنية الأحادية للاقتصاد العراقي والحد من التخلف والتبعية. وبيّن ان هناك استخداما سيئا للعوائد النفطية، مؤكداً على أن تغيير البنية الأحادية الجانب للاقتصاد العراقي ينبغي أن تنطلق من إعادة النظر بدور القطاع النفطي بتحويله من مصدر للتكاثر المالي الى أن يكون قطبا للنمو والتنمية تقام حوله صناعات أمامية وخلفية، مشيرا إلى ضرورة تحديث التكنولوجيا وتحقيق العدالة الاجتماعية وتفعيل الطاقات في المجتمع.

وبالمقابل أكد د. ياسر على تفعيل التعددية الاقتصادية باعتبارها خيارا استراتيجيا وليس مجرد مناورة تكتيكية من طرف البعض، لان الأمر يتعلق بفئات اجتماعية لها مصالح حقيقية في تحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية متوازنة. وفي ختام تدخله أكد الدكتور صالح ياسر على ضرورة توفر إجماع مجتمعي حول الإصلاح الاقتصادي المنشود، وان تشترك فيه مختلف القوى ومنظمات المجتمع المدني والأحزاب السياسية.

أما في ما يتعلق بالقطاع النفطي فينبغي وجود رقابة مجتمعية وينبغي أن يكون التصرف بالعوائد النفطية بيد السلطة التشريعية وليس التنفيذية.

الأستاذ رائد فهمي
وزير العلوم والتكنولوجيا

وكان آخر المتحدثين الأستاذ رائد فهمي الذي أشار الى عدم وجود وصفة جاهزة لتطبيقها بنجاح موضحا الى أن المنتج في البلدان الرأسمالية خاضع لضوابط. كما تحدث عن التجربة الصينية وقيام بعض التجار من العراق باستيراد البضائع الرديئة في ظل غياب السيطرة النوعية، مبينا أن الصين تصدر أنواعاً مختلفة من البضائع وان العيب فينا حيث نستورد الرديء بدلا من الجيد. كما تطرق الأستاذ فهمي الى ضرورة الانطلاق من الإمكانيات المتاحة مشيرا الى أن البنك الدولي اعترض في عام 2003على

توجه الاقتصاد العراقي الى الخصخصة المطلقة، وكان هذا هو نفس موقفنا، وبيّن أن الدولة توفر الخدمة للمستفيد، وواجب الدولة مثلا تقديم خدمة التعليم والصحة للمواطنين.

أما بالنسبة للزبون فان تقديم الخدمة له ستكون للقادر على الدفع. ثم عرج على توجه الدولة نحو التقشف في موازنتها القادمة لعام 2011 والتي سيكون فيها عجز بحدود 20 مليار دولار، وأوضح أن الفساد الإداري وليس الفساد ظاهرة خاصة بالقطاع العام مبينا أن المجتمع مسؤول عن وضع حد أدنى من الأمان للمواطنين. وجرى تبادل النقاش عن المحاصصات والتنازلات التي تحصل بين القوى لتمرير بعض القرارات. وتحدث عن التجربة الكورية الجنوبية في تطوير اقتصادها وتوجه الدولة لتطوير القطاعات الاقتصادية فيها وكيف تم ذلك بالملموس.

واختتم أعمال الندوة، التي دامت أربع ساعات، الأستاذ إبراهيم المشهداني الذي شكر الضيوف الكرام على ما قدموه من مساهمات جدية ساهمت في إثراء النقاش، داعيا الى مواصلة عقد المزيد من هذه الندوات بهدف المساهمة في بناء اقتصاد عراقي سليم ومعافى.

* نظمت الطاولة المستديرة محلية المثقفين في الحزب الشيوعي العراقي والتي قامت بإعداد هذه الخلاصة عن اعمال الطاولة وخصّت مجلة (الثقافة الجديدة) بنشرها.

ترجمة نصوص

سبل للخروج من الأزمة .. الخلفيات الاقتصادية والبدائل لمديونية الدولة

سارة فاغن كنخت
ترجمة: رشيد غويلب
" عن الالمانية"

ولدت الدكتورة (سارة فاغن كنخت) عام 1969 في مدينة (بنا) في المانيا الديمقراطية السابقة ونالت الدكتوراه عام1996 وعملت كأكاديمية، وعضو قيادة حزب الاشتراكية الديمقراطية (حزب اليسار لاحقاً) منذ عام 1991، وهي احد نواب رئيس حزب اليسار ومتحدثة كتلته البرلمانية للشؤون الاقتصادية وعضو سابق في البرلمان الاوربي. لها العديد من الكتب والابحاث، كان آخرها كتاب "اكاذيب العقل: الانهيار المالي والاقتصاد العالمي".

ان الإفلاس الوشيك لليونان جعل مشكلة مديونية الدولة تحتل موقع الصدارة في اهتمام الرأي العام. وتدفع اسبانيا والبرتغال وغيرها من دول منطقة اليورو، منذ بعض الوقت وبشكل ملحوظ، فوائد مرتفعة على سنداتها لتغطية المخاطر المزعومة بعدم القدرة على التسديد مستقبلا.

ويجري التفكير في المحافل الدولية بوضع قواعد جديدة توفر للدولة إمكانية إعلان إفلاسها. وعلى الرغم من إن ألمانيا لا تواجه، حتى الآن، أية مشاكل في بيع سنداتها في الأسواق العالمية بفوائد منخفضة، لكن ديونها الجديدة وصلت هذا العام ما يقرب المائة مليار يورو، وهو ارتفاع تاريخي لم تشهده البلاد من قبل. ولا يغير تخصيص الجزء الأكبر من هذه الديون للميزانية الإضافية من الأمر شيئاً، فالكثير من البلديات تعيش بموازنة طوارئ وتقوم بإغلاق المسابح والمسارح والمدارس، في حين تلتزم بقدسية دفع الفوائد المترتبة على ديونها. والسؤال الملح هو: إلى متى يمكن الاستمرار على هذه الشاكلة؟ وهل تستطيع

الدولة زيادة ديونها إلى ما لا نهاية؟ وإذا كانت الإجابة بالنفي، أين هي الحدود؟ وماذا يحدث إذا تم الوصول إليها؟

التشكيك بالحد من الديون

ما هو موقفك من مديونية الدولة؟ ليس هناك سبب يدعوك للرفض المطلق، ففي حالة الانكماش الاقتصادي يكون التوسع في الانفاق المخصص لتمويل الاستثمارات العامة أو الخدمات الاجتماعية بواسطة القروض ذات معنى ووسيلة فعالة على المدى القصير لزيادة الطلب الكلي ولمواجهة الانكماش الاقتصادي ايضا. وسيكون من غير المعقول توجيه النقد للشركات التي تمارس الاستثمار معتمدة على الاستدانة، وليس من الصحيح نعت لجوء المؤسسات العامة للاقتراض بشكل عام "بالإدارة الاقتصادية السيئة".

في الواقع، كان الرفض المطلق دوماً سمة مميزة لليبرالية الجديدة لفرض قيود على الإنفاق العام، ولممارسة هدم المكتسبات الاجتماعية وخفض الأجور من ناحية وممارسة الادخار لتخريب الخدمات العامة وفرض القيود على الاستثمار العام وإطلاق يد الخصخصة: لفسح المجال للرأسمال للهيمنة على مجالات واسعة من الحياة الاجتماعية، من جهة أخرى.

وعلى هذا تقوم سياسة "فرملة الديون" التي يعتمدها تحالف الكبار، ما دام اليسار يشارك في الحكومة على مستوى الولايات فقط ولا يستطيع التأثير بشكل أساسي في واردات الاتحاد. مما تقدم يجب العمل، بكل السبل الممكنة، لتقويض هذه السياسة، فبدون ذلك يصبح من المستحيل اعتماد سياسة اجتماعية مسؤولة في ظل الظروف السائدة اليوم. ان تشويه صورة مديونية المؤسسات والهيئات العامة بشكل مطلق والخضوع لمقصلة تكثيف وضبط الموازنة هراء ومثل غير مشرف، ولكن هذا لا يعني اعتبار أي توسع في الدين العام مرتبطاً باعتماد سياسة تقدمية.

إن خفض الضرائب لذوي الدخل المرتفع على حساب مراكمة مديونية الدولة يؤثر سلباً على الاقتصاد ويؤد إلى زيادة الثروة وزيادة الضغط في اتجاه خفض الإنفاق العام مستقبلا. وهذا بالضبط ما نعيشه الآن في المانيا. فزيادة السمنة للأغنياء والاحتكارات، من خلال تخفيضات ضريبية على مدى سنوات عديدة لم تؤدي الى زيادة الطلب في السوق الداخلية، لا لغرض الاستهلاك ولا حتى لغرض الاستثمار، بل أدت إلى تقلص كبير في الواردات العامة. ومع ذلك يجري اليوم تبرير حزمة إجراءات الادخار الحكومي بمحاولة عدم خنق الاستهلاك.

الدور الحاسم لعملية التوزيع.

لا يمكن، بالمقابل، القبول بمعادلة يشكل طرفها الأول التوسع في الطلب في حين يعني طرفها الثاني زيادة المديونية. فبإمكان الدولة اعتماد سياسة تؤدي إلى زيادة الطلب دون الحاجة لمزيد من الديون، وذلك من خلال إعادة التوزيع من الأعلى الى الاسفل. فالذي يتقاضى 1000 يورو شهريا سيعمل على توظيف أي يورو إضافي يتلقاه، للتقليل من ضنك العيش. أما الذي يتقاضى مليون يورو سنويا فسوف لا يشعر بتأثير أي 1000 يورو تضاف على دخله السنوي

لقدرته على الحصول على أي شيء يرغبه، ولدأبه على ادخار الفائض عن حاجته دوماً. من الثابت تقريبا، وهذا ما تؤكده التجربة في جميع الانظمة الاقتصادية ولمختلف العصور، ان هناك حقيقة تقول: كلما ازداد الدخل الشخصي، كلما ارتفعت قيمة الجزء المدخر منه. ولهذا كلما ازدادت نسبة الادخار الشخصي في مجتمع ما، تعمق عدم المساواة فيه، ما لم يسمح نظام التسليف فيه للذين يعانون من الركود وانخفاض الاجر تحسين حالتهم من خلال تزايد المديونية، وهذا ما سنأتي عليه لاحقا.

بصفة عامة وعلى اية حال، عندما تتركز الزيادة على النهايات العليا (اعطاء الاولوية في زيادة الواردات لذوي الدخل العالي اصلا) فان القليل من هذا الدخل سيصرف لتقوية الطلب على الاحتياجات اليومية ضمن الدورة الاقتصادية، كشراء المواد الغذائية او لتغطية نفقات الاحتياجات الشخصية. و لهذا السبب يركز مشروع ضريبة الدخل لحزب اليسار، على سبيل المثال، على زيادة الطلب على المواد الاستهلاكية في السوق الداخلية. وعلى الرغم من بقاء اجمالي الإيرادات الحكومية في نفس المستوى تقريبا، فان تأثير التوسع في الطلب سيأتي وببساطة من خلال تخفيف الضغط على الدخول التي يكون معدل استهلاكها عاليا (دخلها السنوي اقل من ستين إلف يورو)، بينما يجري زيادة الضغط على تلك التي يكون معدل استهلاكها منخفضاً (دخلها السنوي أكثر من ستين الف يورو). وسيكون تأثير زيادة الطلب على المواد الاستهلاكية اكبر عندما يتم رفع الضرائب على الارباح والفوائد الى 70% على ان تخصص المبالغ المستحصلة لتمويل الزيادة في معدلات الرواتب التقاعدية و المساعدات الاجتماعية. ولهذا فان الذي يقرر في النهاية رفع مستوى الطلب في الدورة الاقتصادية هو كيفية توزيع الواردات وليس زيادة المديونية العامة.

من أين تاتي الديون؟

منذ منتصف السبعينيات تصاعدت ديون البلدان الصناعية بشكل مطرد.

فان العجز الابتدائي للبلدان الصناعية في الفترة (1997 – 1975) بإستثناء عامين فقط كان سلبيا بإستمرار. اما في الفترة اللاحقة فيمكن ملاحظة حالة من التذبذب الدوري، صعودا ونزولا، للدين العام، مع ان الاتجاه العام يؤشر الى زيادة في المجموع الكلي للديون.

في الحقيقة اكتسبت مديونية الدولة منذ بداية الثمانينيات وظيفة اقتصادية لا تمت بصلة قوية للسياسة الاقتصادية الكينزية. فعبء الديون الرهيبة التي تحملتها الموازنة العامة هي على وجه التحديد نتيجة للتحول نحو الليبرالية الجديدة، واقصاء افكار الكينزية والاستعاضة عنها بايديولوجية السوق المتطرفة القائمة على إضعاف دور الدولة. كان الهدف المركزي لليبرالية الجديدة التي أُعتمدت في معظم البلدان هو رفع معدل الارباح، والتي تعني بالتعبير الحديث زيادة الارباح على الأسهم في الشركات العملاقة. وكانت وسائل تحقيق هذا الغرض متشابهة في جميع انحاء العالم، والتي تمثلت برفع القيود عن سوق العمل، إضعاف النقابات، تخفيض شديد للضرائب على الشركات والعقارات وإضعاف وتفكيك نظم الضمان الاجتماعي. وقد انجز ذلك، في

البلدان المختلفة، عبر عملية طويلة وبوتائر متفاوتة. ولكن نتائج هذه السياسة كانت واحدة، في جميع هذه البلدان، ويمكن حصرها بما يلي:

– فك ارتباط الاجور من التصاعد في الانتاجية؛

– الخدمات الاجتماعية اصبحت اكثر سوءاً؛

– تقلصت عائدات الدولة.

وأدى ذلك بالنتيجة الى تقلص شامل للقدرة الشرائية الذي يشكل عنصرا مركزيا في تطور الطلب بشكل عام. ولكن بدون تصريف كافٍ للمنتجات، لا يمكن للرأسمال تحقيق تصاعد في الارباح، وفي الوقت نفسه يقدم على تخفيض التكاليف للشركات بشكل سخي. ولذا كان على نموذج الليبرالية الجديدة في البداية حل مشكلة اساسية. فمن جهة، يتوجب عليه تقوية الطلب في الاسواق، ومن جهة اخرى، عدم تناول هذه الزيادة في فقرة التكاليف ضمن الموازنة السنوية لهذه الشركات. ولم يخطر ببال الليبراليين الجدد توظيف الاموال المستحصلة من الضرائب لرفع الاجور او لتطوير الخدمات الاجتماعية، ولكنهم يركزون على تمويل نفقات الدولة بواسطة رفع المديونية.

مشكلة الدين العام تتمثل في بقائها توسيعية – تؤدي الى زيادة الطلب في السوق ما دام العجز الابتدائي سلبياً –، أي عندما تتجاوز الديون الجديدة مدفوعات الفائدة.

ان توزيع الثروة (حسب الارقام الصادرة عن بنك ميريل لينش، يستحوذ 1% من سكان البلدان الصناعية على نصف الثروة النقدية) يخصص الجزء الاكبر من المبالغ المستحصلة من الفوائد لتراكم الثروات مجددا وليس كقوة شرائية تدخل اسواق تصريف المنتجات. بالضد من ذلك، يتم دفع الجزء الاكبر من الضرائب من قبل الطبقة الوسطى. ومع نمو الضرائب غير المباشرة يجبر ذوو الدخل المحدود على الدفع ايضا.

وهنا ايضا يتم تسديد جزء من الارباح فقط بواسطة العائدات الضريبية مما يؤدي الى نقص اضافي في الطلب الاقتصادي بشكل عام. وتعني سلبية العجز الابتدائي الدائمة تمويل الفوائد وكذلك مبالغ الاسترداد (الاقساط) باستمرار، بواسطة ديون جديدة. وهذا يعني زيادة المديونية باستمرار، الأمر الذي يؤثر سلباً على الطلب.

لايمكن المحافظة على الحالة التي أشرنا اليها الى أجل غير مسمى. ويطلق الاقتصاد السياسي على هذا الشكل من التمويل " تمويل بونزي"، الذي يعني في الجوهر ممارسة المضاربة التي تعتمد على النمو الهائل للديون وتؤدي في النهاية بكل بساطة الى الانهيار.

كلما ارتفع المجموع العام للديون، مع بقاء النسبة المئوية للارباح ثابتة، ارتفعت معه قيمة الديون الجديدة، التي يجب اقتراضها لخدمة الفوائد فقط، وتزداد الحاجة الى ديون جديدة، اذا اريد بالاضافة الى ذلك الحفاظ على مستوى الطلب في السوق.

ويؤدي انخفاض الارباح الى انفراج في الوضع الاقتصادي، ولكن ما دام تحديد نسبة الارباح يتم من خلال البنوك الخاصه وليس من قبل المؤسسات العامة، ستبقى

الدولة عديمة التأثير على هذا الاجراء الحاسم.

الديون بدلاً من الاجور

عندما بدأ في منتصف التسعينيات ان حيز تحرك الدولة للحفاظ على استقرار الطلب قد استنفد، بسبب تنامي عبء المديونية عليها، اعطيت الاولوية، خصوصا في الولايات المتحدة الامريكية، لاستراتيجية اخرى تقوم على رفع مديونية الأسر والافراد، تمشياً مع الاتجاه صوب خصخصة تجسّد في الاساس نوعاً من الليبرالية الجديدة لاتتحمل فيها الدولة مسؤولية ديون جديدة لتحقيق مزيد من الطلب للاقتصاد، بل يتحمل المستهلكون مباشرة تنامي جبل من الديون لتمويل مستوى معين من الاستهلاك لايمكن تغطيته بالاعتماد على الرواتب والاجور التي يتقاضونها.

وهنا تكمن حقيقة الازدهار في التسليف العقاري الذي شهدته الولايات المتحدة، الذي خصصت في حقيقة الامر اجزاء صغيرة منه لبناء او شراء منازل جديدة. في اغلب الحالات، جرى رهن البنايات لقاء مبالغ كبيرة في ضوء التصاعد المتوقع لقيمتها الافتراضية، وجرى توظيف هذه المبالغ اما لإعادة تمويل ديون قديمة (تسديد فوائد متراكمة) او انفقت مباشرة للاستهلاك. لولا هذه الآلية ما كان بإمكان السوق الداخلية في الولايات المتحدة، لسنوات عديدة، ان تكون بوضع افضل من مثيلتها الالمانية.

فمتوسط اجرة ساعة العمل في قطاع الصناعات التحويلية في الولايات المتحدة يصل اليوم الى 16.57 دولاراً، واذا ما اخذنا بنظر الاعتبار عامل التضخم سنجد أن مستوى قيمة الاجر يساوي ما كان قائماً في نهاية الستينيات.

لم تكن خدعة إبدال الأجور بالديون ميزة امريكية بالرغم من الافراط في استخدامها هناك. فلقد شهدت بريطانيا وايرلندا واسبانيا، وبدرجة اقل العديد من بلدان الاتحاد الاوربي، شهدت في العشر او العشرين سنة الاخيرة ظاهرة اعتماد مديونية الأسر والافراد كدعامة اساسية في تحريك السوق الداخلية والاستهلاك الشخصي. كما يعود الجزء الاكبر من النمو الاقتصادي في دول اوربا الشرقية لهذه الآلية. فلولا "محرك النمو" هذا لوصلت الليبرالية الجديدة الى آخر مدياتها منذ سنين عديدة، ولكانت الازمة الاقتصادية العالمية الراهنة قد بدأت في عهد سابق ايضاً.

هناك عنصر آخر للدين الخاص يجري في الغالب تجاهله، ألا وهو عدم اقتصار مضاعفة الديون للعوائل متوسطة الحال من ريغا الى شيكاغو، بل شمل ذلك ايضا الكثير من المؤسسات التجارية، ليس بهدف الاستثمار وانما لشراء مقتنيات باهضة الثمن وزيادة الارباح ولتمويل برامج اعادة شراء الاسهم (المضاربة بالاسهم). ويبقى الهم الاول في جميع الحالات هو زيادة نسبة ارباح المساهمين.

ويتم شراء الشركات من قبل شركات الاسهم الخاصة او ما يطلق عليه "شركات– العدالة– الخاصة" Private-Equity-Gesellschaften، وهو نمط معروف يجري بموجبه إثقال الشركات بديون ضخمة ثم يأتي "الجراد" (المضاربون الكبار) ليقوموا بشرائها وتفكيكها وبيعها مجدداً وتقاسم الواردات بإعتبارها ارباحاً خاصة.

ومارست كبريات الشركات المساهمة هذا النمط من التمويل خلال الخمسة عشر سنة الماضية على نطاق واسع، اذ يجري رفع اسعار الاسهم من خلال تمويل اعادة شراء الاسهم ورفع الفوائد. وبهذا يجني المدراء الماليون الملايين من النسب العالية المترتبة على بيع الاسهم، بالاضافة الى الرواتب الخيالية التي يتقاضونها، مما يؤدي الى مراكمة ثروة الفئة العليا من الاغنياء وترفهم الاستهلاكي، على الاقل جزئيا، من خلال الديون التي لايتحمل عبئها هؤلاء، بل تبقى محفوظة في الموازنات المالية العامة للشركات (ما لم يحدث لهذه الشركات ما حدث لأكبر شركتين لصناعة السيارات في الولايات المتحدة الامريكية، التي ارادت اعلان افلاسها وتم في النهاية انقاذها من قبل الدولة).

كانت حصيلة العمليات التي تم ذكرها ارتفاع ديون الشركات والمستهلكين في الولايات المتحدة الامريكية منذ عام 1999 الى 12904 مليار دولار، أسرع بكثير من الناتج المحلي الاسمي. وهذا يدلل بوضوح ان هذه السلف لم تستثمر بشكل منتج، بل ابتلعت الى حد كبير بطريقة سيئة. وفقاً لذلك فان نسبة ديون القطاع الخاص غير المالي الى الناتج المحلي الاجمالي (باستثناء الضمان التقاعدي) في الولايات المتحدة، نمت من127% الى 170%.

وفي اوربا، كانت النسبة مشابهة الى حد بعيد. لقد وصلت ديون المستهلكين والشركات غير المالية، منذ عام 1999، في منطقة اليورو الى 8066 مليار، وبهذا ارتفعت نسبتها من 114%الى 170% من الناتج المحلي الاجمالي، بوتيرة اسرع من مديونية الدولة التي لم تصل بعد الى 1000% من الناتج الاجمالي المحلي، رغم انها تقترب من ذلك بسرعة عالية.

ينطبق ذلك على المستهلكين ايضاً لان السلف تؤدي الى التوسع في الطلب الاستهلاكي ما دامت الديون الجديدة تتجاوز مدفوعات الفوائد. وهذا يعني ان على المستهلكين ان يمولوا مدفوعات وارباح سلفهم السابقة دائماً بسلف جديدة اكبر من سابقاتها. وهذا في الواقع هو ما كان يجري العمل به، بشكل خاص، في الولايات المتحدة لسنوات عديدة. وفي وقت ما سنصل هنا (في اوربا) الى الحد ذاته. فبالاضافة الى ركود الاجور، فان مدفوعات الفوائد والسلف، في اللحظة الراهنة، تفتك بالدخل المخصص لغرض الاستهلاك.

من يسدد الفواتير؟

أدت ثلاثة عقود من الليبرالية الجديدة الى تضخم الثروة المالية، بشكل غير متساو، وأسرع من الناتج الاقتصادي، من خلال الاستمراربالتوزيع التصاعدي (من الاسفل الى الاعلى)، وبهذا انتجت فقاعة كبيرة من الثروة المالية. وقد كان ذلك ممكنا فقط لأن فقاعة كبيرة من الديون بدأت تنمو ايضا، وهي التي أدت الى استخدام هذه الثروة لتحفيز الطلب الاقتصادي. وتحملت الدولة في البداية بشكل أساس فقاعة الديون هذه، ولكن منذ منتصف التسعينيات بدأ المستهلكون، وكذلك الشركات، يتحملون هذا العبء. وكما هو واضح، فان الاستثمار في مجال سندات الشركات وسندات التسليف، أي الاستثمارات المالية البحتة، قد تصاعد بشكل حاد بموازاة نمو مباشر للدين

الخاص في الجهة الاخرى. وبشكل غير مباشر يشمل نفس السياق الودائع المصرفية العادية عندما تقوم البنوك بشراء سندات الشركات او سندات الرهن العقاري.

هناك قناعة راسخة بأن الجزء الاكبر من هذا الدين الخاص هي "ديون ميتة"، بمعنى آخر انها غير قابلة للتسديد ابداً، ليس لأن آثارها الاقتصادية يمكن ان تكون مدمرة، عندما تقدم الأسر المثقلة بالديون على التخفيض الحاد لاستهلاكها، في جميع انحاء العالم ولعدة عقود، لكي تتمكن من تسديد ديونها المفرطة و الفوائد المترتبة عليها، بل لأن القسم الاعظم منهم لا يكون بالأساس قادراً على ذلك. وينطبق هذا على ديون الرهن العقاري في الولايات المتحدة الامريكية، فضلا عن اصحاب الممتلكات والمنازل غالية الثمن والتي جرى شراؤها بواسطة القروض في ايرلندا، والأسر المثقلة بالديون (باليورو) في اوربا الشرقية. ويصح القول ايضا على نسبة كبيرة من الشركات المثقلة بالديون، خصوصا تلك التي تعمل في بيئة اقتصادية تعاني من الركود او الكساد. يجب في نهاية المطاف شطب هذه السلف، التي تكون في الغالب على شكل سندات او اوراق مالية تعود ملكية جزء صغير منها مباشرة الى الأسر، اما جزؤها الاكبر فتعود ملكيته الى البنوك وشركات التأمين ومؤسسات "الخدمة المالية" المرتبطة بها. ولكن شطب السلف يصبح ممكنا اذا تم شطب ما يساوي قيمتها من الممتلكات التي تم شراؤها من خلال الحصول على السلف او تلك التي استخدمت كضمانة للحصول على سلف جديدة. ولو كانت هذه السندات والاوراق المالية فاقدة القيمة ملكية شخصية لبدأ الأمر تافها. ورغم ان افلاس صناديق التحوط (Hedge Funds) والمستثمرين الماليين المستقلين الكبار قد يهز النظام المالي، الاّ ان عواقب ذلك يمكن تطويقها. وبصرف النظر عن تأثير الخصخصة على الضمان التقاعدي لملايين من البشر، فعندما توظف اكبر صناديق الضمان التقاعدي في الولايات المتحدة لتأمين سندات القروض، يؤدي ذلك الى خفض الرواتب التقاعدية. وبالتأكيد فان الذين ينزفون بسبب جنون الديون في العقود الاخيرة هم ليسوا المسؤولين عن وجودها واستمرارها. ولكن الامر يصبح معقدا حقاً عندما تقدم البنوك وشركات التأمين الكبيرة في حالة تعرضها للافلاس على استخدام الممتلكات الشخصية، لأن ذلك يعني ان المساهمين في هذه البنوك والضامنين لها سيفقدون أرصدتهم ايضاً. وفي هذه الحالة فان الاغلبية المتضررة هي المسؤولة حقا عما حدث. ولكن المشكلة تكمن هنا في كيفية الحفاظ على الودائع العادية وكيف يمكن الحد من اتساع رقعة الحرائق. وبالمناسبة يمكن التذكير، وكما هو معروف، بأن القرارات السياسية هي التي حالت دون افلاس الكثير من البنوك اذا ما استثنينا عن ذلك حالة بنك "ليمان براذر".

فقاعة الديون تتراكم

منذ بداية الازمة حالت الدول دون تفجر فقاعة الديون (وتفجر فقاعة الثروة معها)، من خلال تحويلها للجزء الاكبر من الديون الخاصة الميتة الى جزء من مديونية الدولة. ففي اوربا، وفي الفترة بين 2007 واوائل 2010 ، خصص بليون يورو لانقاذ البنوك

المهددة بالافلاس. ويعني هذا في الحقيقة تحويل (بليون) يورو من ديون القطاع الخاص الميتة الى خزينة الدولة، وليس مهما اذا قامت الدولة بشراء الاوراق المالية وتحملت مخاطرها مباشرة، كما هو الحال في البرنامج السيء الذي جرى تبنيه في ايرلندا، او تأميم جبل النفايات السامة، كما هو الحال مع بنك Hypo Real Estate، او ابقاء البنوك على قيد الحياة من خلال تقديم المساعدات المالية والسلف، وفتح المجال امامها لاطفاء جزء من اوراقها المالية السامة. ففي كلا الحالتين يحدث الشيء نفسه، اذ يجري تحويل الدين الخاص الى دين عام وبهذا تبقى الثروة الخاصة بمنأى عن المساس بها.

بهذه الطريقة، لا تصبح فقاعة الديون والثروة أقل حجما، انما يجري فقط تحول في طريقة الاحتفاظ بها. ومن الواضح جداً انه لا يمكن ان تسير الامور على ما يرام لمدة أطول، اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار ان الاستثمار الخاص في سندات التسليف وسندات الشركات على النطاق العالمي وصلت الى 43 مليار دولار، أي انها وصلت الى عشرين ضعفا (مع عدم حساب استثمارات البنوك في الاوراق المالية)، في حين وصل النمو في الناتج الاجمالي العالمي الى ربع هذا المبلغ. وبهذا يمكن تخمين مستويات حجم الشطب الضروري، وبالتالي نطاق التخفيضات في الثروة، التي سيتحملها، في النهاية، ويجب ان يتحملها شخص ما.

وجدت الدول الصناعية نفسها، مع بداية الازمة، امام مهمة مزدوجة، اذ كان عليها القيام بمحاولة لإعادة التوازن الى الطلب الاقتصادي الذي تعثر الى حد كبير منذ توقف امكانية نمو الديون الخاصة، معتمدة توظيف الانفاق العام من جهة، وتحمل اعباء ديون الماضي الميتة من جهة اخرى، لكي تنقذ القطاع المالي من الانهيار. وقد ادى هذا الوضع الى تصاعد كبير في مديونية الدولة.

وتصاعدت مديونية بلدان الاتحاد الاوربي خلال الفترة من عام 2007 الى عام 2009، بنسبة 20%. وبهذا ارتفعت قيمتها من 1.4 بليون يورو الى8.7 بليون يورو، رافعة نسبة الديون الى مجموع الناتج الاجمالي المحلي من 59% الى74%. وقد وصلت النسبة الآن في منطقة اليورو الى 90% ، وهذه مجرد البداية، لأن هناك مليارات من "القمامة الثقيلة" مخزونة في سراديب البنوك.

سبل للخروج من الأزمة

أصبح واضحا الآن، في اوربا على الاقل، خلو أجندة الدولة من الاستمرار في سياسة إعادة التوازن الى الطلب الاقتصادي من خلال التوسع في الانفاق العام. فبرامج الادخار الحالية تعني طريقاً "آمناً" لدخول ازمة اقتصادية قادمة تحمل في طياتها مخاطر انكماش اقتصادي مرتفع. ولكن في حالة الانكماش تصبح الديون التي تحتفظ بقيمتها الاسمية باهضة جدا، وترتفع الفائدة الحقيقية بالرغم من بقاء قيمتها الاسمية منخفضة. وليس من المستبعد، بل اصبح الامر واقعا في العديد من بلدان منطقة اليورو، وبغض النظر عن سعر الفائدة المحدد من قبل البنك المركزي الاوربي، أن ترفع اسواق رأس المال اسعار

الفائدة بسبب العجز المتزايد الذي تعاني منه هذه البلدان. وسيؤدي هذا الى التسريع في النمو الاضافي للديون. ولكن حتى لو توقعنا عدم استمرار عمليات انقاذ البنوك وتحويل الديون الخاصة الميتة الى خزينة الدولة، فان الوضع المالي للاخيرة سيكون متفجراً.

لنفترض ان بإمكان جميع بلدان منطقة اليورو الوصول حالاً الى ميزانية اولية متوازنة (رغم عدم معقولية ذلك اقتصاديا ولا يمكن تحقيقه على الاطلاق)، فان نسبة الدين العام ستنتفخ سنوياً من خلال الفرق بين سعر الفائدة الحقيقي ومعدل النمو. ومع افتراض ان النمو والتضخم يساوي صفراً حالياً سترتفع مديونية الدولة سنويا بمقدار 4% من الناتج المحلي الاجمالي. واذا ما ارتفعت قيمة الفوائد في اسواق رأس المال او اذا تعرض الاقتصاد لحالة ركود اوانكماش جديدة فان ذلك سيكون اكثر وضوحاً. وهنا يجب التذكير بأنه ليس بمقدور أي بلد الوصول في ظل حالة الانكماش الاقتصادي الى ميزانية اولية متوازنة مهما كان حجم مساعي سياسة الادخار المجنونة، وبصرف النظر عن حقيقة بسيطة مفادها: كلما ازداد الوضع الاقتصادي سوءاً، ازداد وجود مشاكل جديدة وحادة في البنوك وشركات التأمين، والتي تشكل عبئا اضافيا جديدا للدولة. وتوشك السندات الحكومية الاسبانية الى التعرض للضغط، بالمقام الاول، بسبب المشاكل التي تعاني منها البنوك الاسبانية لامتلاكها ديوناً ميتة في ميزانيتها تقدر بمبالغ هائلة ورثتها من فقاعة العقارات السابقة. وبطبيعة الحال تكون المتاجرة بالسندات الاسبانية خاضعة للمساومة على الاسعار، مما يجبر الدولة على دعم بنوكها في الحالات الطارئة.

لا يحتاج المرء الى القدرة على التنبؤ لكي يرى في وقت مبكر ويستنتج ان مسألة مديونية الدولة لا يمكن الاستمرار بها على هذه الشاكلة. فثلاثة عقود من الليبرالية الجديدة، وما رافقها من اعتماد للتوزيع التصاعدي (من الاسفل الى الاعلى)، أدت الى انتاج فقاعة من الديون والثروة بشكل لم يسبق له مثيل. ومهمة المستقبل الحاسمة تتمثل في افراغ فقاعة الديون والثروة، بشكل منظم، من الهواء الذي سبب انتفاخها. وان يستهدف ذلك الثروات التي تضخمت مستفيدة من الفقاعة الاقتصادية التي نمت بشكل هائل خلال العقود الثلاثة الاخيرة، من خلال أرباح الأسهم والارباح المركبة والمضاربة. ونمت الثروة المالية الخاصة، على سبيل المثال في المانيا، منذ بداية الألفية من 3.6 الى 4.6 بليون يورو. لقد ذهب هذا البليون الاضافي، بشكل حصري، لحساب أغنى عشرة آلاف شخص، اي لحساب المليونيرية والملياردرية، في حين انكمشت مدخرات الغالبية العظمى من السكان، وهذا البليون يقدم مثالاً لما أعنيه بتعبير فقاعة الثروة.

في نهاية المطاف ستنفجر فقاعة الديون. ولكن السؤال هو: كيف ومن سيتحمل عبئها، وما هي تاثيراتها الاقتصادية؟

1-الامكانية الاولى: الاستمرار حتى الانهيار

هناك خيار وارد (لكنه مدمر) متداول اليوم، مفاده اعتماد برامج ووصفات ادخار مجنونة في محاولة للسيطرة على العجز الذي تعاني منه هذه الدول، والذي سيعيش الاقتصاد

على خلفيته ازمة جديدة تزداد حدة نتيجة لانكماش اقتصادي جديد. وسيسبب ذلك، كما هو مرجح، هزة جديدة للمؤسسات المالية، والتي سيتوجب انقاذها مجددا بأموال الدولة.

بعض بلدان منطقة اليورو التي تعاني من هذه المشكلة، والتي يزداد عجزها بسرعة، تجري معاقبتها من قبل اسواق رأس المال بزيادة مستمرة لأسعار الفوائد المفروضة عليها. وقريباً سيصبح من الصعب عليها اعادة التمويل بشروط معقولة، وهنا سيتم اللجوء ربما الى آلية الانقاذ الاوربية. وفي هذه الحالة سيتم تحويل الديون من البلدان الاضعف الى البلدان الاقوى بعد ان كانت تحول من القطاع الخاص الى الدولة. ولكن العمل بهذه الوسيلة لايمكن الاستمرار به، خصوصا عندما تدخل بعض البلدان في مشاكل جدية كاسبانيا التي تبلغ ديونها 700 مليار، او ايطاليا التي تصل ديونها الواجب تسديدها الى 2 بليون تقريبا. عندها سنجد البلد الاول الذي يعلن امتناعه عن الدفع وعن المشاركة في عملية اعادة هيكلة الديون.

وبالتالي ستصل الفوائد التي تعيش ظروفاً متشابهة مستوى متفجراً يجعل هذه البلدان، وفي وقت قريب، غير قادرة على التسديد. وفي النهاية، سيحدث انهيار للبنوك مصحوب بالتزاحم على بنوك معينة. عندها سنقف على بوابة انهيار العملة ومعها النظام المالي لليورو بأكمله. وبهذا سيكون الأغنياء من الخاسرين ايضا، الاّ ان الطبقة الوسطى ستكون المتضرر الاكبر، كما هو الحال دائما عندما يتم اللجوء الى اصلاح النظام النقدي. واخيرا، نحن امام سيناريو لا يمكن حصر تأثيراته السياسية، وهو ما لا يجب ان يتمناه أحد من اليسار.

2-هل يمكننا تجاوز الديون؟

ماهو البديل اذن؟ في المدى القصير، وفي ظروف الازمة، يجب المطالبة بعدم اعتماد الادخار في الانفاق العام، بل ويجب العمل على زيادة العجز المالي لتمويل الاستثمار العام وخلق الامكانيات لتحسين الخدمات الاجتماعية.

اما في المدى المتوسط، فمن الواضح ايضا انه يجب ان لا تجري معادلة الانهيار في الطلب الاقتصادي الكلي، نتيجة لانعدام الاستهلاك الخاص الممول بواسطة الديون (انهيارالطلب يعني بالنسبة لالمانيا فقدان ما يقابله من الصادرات)، مرة اخرى من خلال عجز ضخم في الميزانية العامة.

البديل هو فقط تحقيق الطلب الاقتصادي المتوازن الضروري من خلال الوصول الى توزيع جذري للدخل. وهذا يعني وضع حد أدنى للاجور وتقوية دور النقابات واعادة تنظيم سوق العمل يحقق تغيراً في التوزيع الاولي للدخل وتغيراً اساسياً في النظام الضريبي، والتوسع في دولة الرفاه الاجتماعي، وزيادة الرواتب التقاعدية لتغير التوزيع الثانوي للدخل.

ان تطبيق هذا التصور في المانيا سيساعد على تقليل الاختلالات الاقتصادية الخارجية. اما السؤال المتعلق بديون الدولة والديون الخاصة القديمة فانه سيبقى مفتوحا دائما.

فعند تقييم فقاعة الديون على المرء ان لا يتوقع امكانية وجود ديون ايجابية حتى لو تعافى الاقتصاد من الديون الخاصة الميتة. فالكثير من مالكي العقارات الامريكية

لايمكنهم الاستفادة من عقاراتهم وفق قيمتها العليا حتى لو انتعش الاقتصاد ثانية. وكذلك بالنسبة لفقاعة العقارات الاسبانية التي انفجرت بلا عودة، وليس من مصلحة أحد احياؤها بشكل مصطنع. وبهذا تخزن، وبلا تغير، البلايين من الديون السامة (موثقة او غير موثقة، معلنة او مخفية) في الموازنات العامة للبنوك. وستحتفظ هذه الديون بحضورها المقلق حتى في حالة الانتعاش الاقتصادي، وستكون خطراً دائماً لعمليات الاقتراض. ولذا ستكون هذه المشكلة، تحت كل الظروف، مصاحبة لنا (حتى لو تم تبني سياسة اقتصادية معقولة).

تبلغ حصة ديون الدولة، في منطقة اليورو،90% من الناتج الاجمالي المحلي. ووفقاً لجميع الحسابات، من المتوقع ان تصل النسبة الى اكثر من 100%. وهناك قاعدة ثابتة تؤكد ان بإمكان الدول الخلاص من ديونها عندما يكون سعر الفائدة الحقيقي 2% اقل من نموها الاقتصادي. وتدفع حاليا جمهورية المانيا الاتحادية في المتوسط 3.6% كفوائد على السندات الخاصة بها، فاذا ارتفعت الاسعار بنسبة 1% يجب ان يقترب النمو الاقتصادي من 5% لكي تتمكن الخلاص من ديونها. وحتى اذا وصل التضخم 2%، فان النمو الواجب تحقيقه يقترب من 4%، هذا اذا افترضنا بقاء اسعار الفوائد مستقرة مع ارتفاع معدلات التضخم او تحقيق نمو اقتصادي، في حين ان القليل يؤشر الى تحقيق نمو كهذا في المستقبل القريب. ولذلك لا يمكننا ان نأمل في التحررمن جبل الديون في ظل الاوضاع التي نعيشها اليوم.

الامكانية المتبقية تعتمد الموضوعة التي تقول: "لتنمو الديون فهي لا تثير القلق"، وهي تشير الى اليابان التي تعيش رغم ان جبل ديونها قد وصل200% نسبة الى الناتج الاجمالي المحلي. لايمكن اعتبار الحالة اليابانية نموذجاً يحتذى به، فتنامي الديون يعني ارتفاع مدفوعات الفوائد المصحوب بالحد من امكانية قدرة الدولة على التصرف. كما يعني ذلك مزيدا من الارتباط بتقلبات السوق المالية. وحتى المانيا سوف لن تكون قادرة، بدون رفع اسعار الفوائد، في مرحلة ما، على طرح سنداتها في السوق. ربما يصبح هذا لاحقا ممكنا اذا توفر توازن سياسي يجعل احداث تغيير سياسي جذري في البلاد ممكناً. بمعنى آخر، عندما يتاح لليسار المشاركة الاساسية في تحديد كيفية تعامل الدولة مع ديونها القديمة.

3-هل يمكن لزيادة الضرائب خفض الديون القديمة؟

الامكانية الثالثة مبنية على فكرة إزالة مديونية الدولة بواسطة فرض ضرائب اعلى. ولكن المشكلة في هذا الحل تكمن في تغير النظام الضريبي والذي عليه القيام بمهمة اولية تتمثل في زيادة الطلب الاقتصادي الكلي معتمدا التوزيع التنازلي (من الاعلى نحو الاسفل).

يمكن زيادة الضرائب على الدخول العالية جدا والممتلكات، لكي توظف في تسديد الديون، ولكنها لا تفي بالغرض. من الممكن طبعا فرض ضريبة قاسية على الثراء الفاحش لتسريب بعض من هواء فقاعة الثروة الهائلة وتوفير امكانية لحذف جزء من الديون.

ولكن على المرء ان يمتلك الوضوح عن أي مستوى للمديونية يجري الحديث. فديون

الدولة الالمانية قد ارتفعت، في الفترة من1998 الى 2010، بما يقارب البليون يورو، وهذا بسبب الموجودات (الديون) السامة في أدراج مكاتب بنك Hypo) (Real Estate والتي لا تمثل نهاية الأمر طبعا. وقد اشرت الى ان هذا البليون يشكل ارباحاً تدخل حسابات الثروة المالية للفئة العليا من الالمان.

ولغرض المقارنة فان ضريبة المليونير (5%) التي يطالب بها حزب اليسار ستجلب80 مليار يورو في العام، والتي تأتي في معظمها من الارباح المتحققة من استثمار الثروة، وينتج جزء صغير منها فقط (إن وجد) عن اعادة توزيع الثروة الاصلية. والجزء الاكبر من هذه الثمانين مليار يجري تخصيصه عادة للانفاق على الاستثمار والتوظيف العام ودعم التصنيع..الخ.

ولذلك على من يقول بخفض مديونية الدولة من خلال فرض الضرائب، ان يحدد ماهية هذه الضرائب. بالاضافة الى ذلك، يجب ان يكون المرء على بينة من المبالغ الهائلة المفقودة نتيجة للتهرب من دفع الضرائب. هناك امكانية واحدة تبدو لي ممكنة: ضريبة تفرض لمرة واحدة لإمتصاص جزء من ثروة أغنى عشرة آلاف ثري، وتوظف المبالغ المستحصلة لتسديد جزء من مديونية الدولة. ولكن هذا في الواقع ليس سوى جراحة تشبه عملية إعادة جدولة الديون.وتختلف في هذه الحالة عنها فقط بتحمل الاثرياء المحليين بالتحديد عملية التمويل، في حين ان إعادة جدولة سندات الدولة الالمانية مرتبطة بنسبة 50% منها بالمستثمرين الاجانب (اما اذا نفذت هذه التدابير في جميع انحاء منطقة اليورو، فان الفروقات ستكون اقل نسبيا).

4-التضخم وسيلة لخفض قيمة الديون

الامكانية الرابعة امكانية تاريخية تم تجريبها عدة مرات، وهي التضخم الذي من شأنه حقا ان يخفض من قيمة فقاعة الثروة والديون على حد سواء. ولكن بالرغم من ذلك، فانه خيار يجب ان لايسعى اليه أي يساري لأن التضخم، كما هو الحال في انهيار الاسواق المالية، يصيب الطبقة الوسطى قبل غيرها من الفئات الاجتماعية والتي ستفقد بموجبه مدخراتها البسيطة، في حين ان الاثرياء الحقيقيين يودعون ثرواتهم في العادة بين الاموال والاسهم والمصانع والعقارات في الغالب، بالاضافة الى الذهب والممتلكات الثقيلة.

ولهذا يستطيعون جيداً تحمل حتى فقدان الذهب لقيمته، في حين يفقد المستهلك البسيط بسهولة مدخراته التي جمعها بمشقة.

ان التضخم مدمر عادة للمتقاعدين وللذين يعيشون من المعونات الاجتماعية، ولذا فان هذا السيناريو سيصيب مرة اخرى الاكثرية غير المسؤولة عن السياسة الاقتصادية الخاطئة في العقود الاخيرة. يضاف الى ذلك، ان التضخم يخفض قيمة فقاعة الثروة والديون في حال بقاء اسعار الفوائد منخفضة.

اما اذا ارتفعت الفوائد بسرعة فائقة، فان اعادة تمويل الديون القديمة يصبح باهض الثمن، رغم انخفاضها بفعل التضخم. وهنا يخسر اولئك الذين ادخروا نقودهم بموجب عقود طويلة الامد، اما الذين يمارسون المضاربة القصيرة المدى فبإمكانهم الخروج

من الأزمة سالمين.

5-فصل مديونية الدولة عن الاسواق المالية

الامكانية الخامسة هي فصل التمويل العام عن الاسواق المالية، وتمويل العجز في الميزانية العامة من خلال اسعار منخفضة للفوائد وبقروض مباشرة بدون فوائد من البنك المركزي الاوربي وبشروط خاصة لدفع الاقساط والفوائد. وهذا يعني، عمليا، ان اموال البنك المركزي الاوربي تطرح للتداول المباشر وتوظف للانفاق العام بدلا من السلف المستحصلة من البنوك الخاصة.

وسيتيح ذلك للتمويل العام خفض الديون الجديدة بشكل حاد من خلال الفوائد المنخفضة او الملغاة، وعلى الاقل سيكون مهما ايضا الحساب المسبق للانفاق العام واستقلاله عن اسواق رأس المال وتجاوزالفوائد التي تفرضها (ما حدث في اليونان اوضح تأثير المضاربة في الاسواق المالية). ومن الممكن تحقيق هذا التغيير، في المدى القصير، من خلال تغيير الاتفاقات الاوربية والنظام الاساسي للبنك المركزي الاوربي. تجري المجادلة في العادة، في النقاش الاقتصادي، ضد تمويل البنك المركزي لمديونية الدولة، ويقال ان ذلك يرفع معدلات التضخم. ووراء هذا القول يقف الافتراض الضمني بأن البنوك الخاصة تتفحص بدقة قدرة المستلفين على التسديد، في حين يتهم البنك المركزي كمؤسسة عامة بالتصرف بلا مسؤولية ازاء تزايد المديونية. لا يمكن اخذ هذه الحجة بجدية عند النظر الى الاندفاع نحو الديون في السنوات الخمس عشرة الماضية. وقد برهنت الاسواق المالية الحديثة على عدم قدرتها في تقييم المخاطر منذ زمن طويل، في حين لم يتبنَ أي بنك عام مثل هذه التقييمات الخاطئة. هناك امثلة تاريخية لسلف البنك المركزي المفرطة التي انتجت التضخم، ولكن جذور هذه المشاكل في اغلب الحالات أعمق مما يتم تصويره. فالمسألة الحاسمة تكمن في تحديد حجم القروض (كأن تكون مثلا إبان الهبوط الاقتصادي أعلى مما هي عليه في فترات الصعود). وبهذا يمكن منع التوسع التعسفي في منح القروض، فالتمويل من قبل البنك المركزي يهدف الى عدم جعل المالية العامة، ولزمن طويل، هامشاً هشاً ومادة لنشاط ومضاربات البنوك الخاصة. لا علاقة للديمقراطية في الوضع الذي تصبح فيه قرارات الاحتكارات المالية فوق سياسة البلد المعين وتتحول فورا الى عبء ثقيل من المليارات على (او لدعم) القطاع العام. وعليه يجب ان تكون لليسار مصلحة اساسية في تجاوز هذا الوضع. فالمفروض ان لا يتعاطف اليسار مع السياسات المعتمدة على أسواق المال مهما كانت العواقب المترتبة على ذلك.

لقد كان صحيحا جداً ان يضع اليسار في أجندته المطالبة بفصل مديونية الدولة عن اسواق الرأسمال. ان الفائدة الكبرى من التمويل المباشر بواسطة البنك المركزي هي ان الدولة يمكن ان تنفق كل عام، ووفق نظام معين، اكثر من وارداتها دون ان ينتج عن ذلك ديون او الالتزام بدفع الفوائد مستقبلا. وليست هناك حجة تؤيد ان نظاماً كهذا سيرفع التضخم الى اكثر مما هو عليه اليوم. ان كل نمو يستند على القروض، الاّ ان الفارق لما هو قائم اليوم يتجسد في ان الاموال الاضافية المطروحة للتداول تأتي من الدولة بدلاً من ان تأتي من البنوك.

ماذا يعني ذلك للديون القديمة؟ نظرياً، يمكن ان يأخذ البنك الاوربي المركزي على عاتقه اعادة تمويل الديون القديمة. وبالفعل، يشتري البنك اليوم السندات المطروحة في السوق، ومن الوارد ان تحصل الدولة على الاموال الضرورية لاعادة تمويل ديونها واجبة السداد من البنك المركزي الاوربي. وبهذا يتم نقل جميع ديون الدولة تدريجيا الى البنك المركزي الاوربي، او ان يقوم البنك ذاته بشراء جميع السندات الحكومية. ولكن مشكلة هذا الحل هي ان قيمة فقاعة الثروة لا تنخفض بل تبقى على حالها، لكن فرصة الاحتكارات في استثمارها تصبح اقل، ما سيؤدي نتيجة لسياسة التوزيع القائمة منذ سنين طويلة الى تراكم سيولة تبحث عن فرص استثمار مريح، مما سيقود الى نظام جديد للمضاربة والديون.

6-خفض الديون بواسطة إعادة جدولتها

المخرج الوحيد الذي أراه، والذي يمتاز بالديمومة للخروج من التطور الخاطىء للعقود الاخيرة، هو السيطرة السياسية على تطور فقاعة الثروة والديون.

وإن امكن من خلال نشاط مركز في منطقة اليورو، وربما في بلدان الاتحاد الاوربي عموما. ويتضمن هذا الحل تأميم المجمعات المالية الكبيرة، مما يجعل الديون الميتة تنتقل بشكل قطعي الى الدولة، ومعها ايضا ممتلكات البنوك وشركات التأمين المحافظة على قيمتها، وفي النهاية يتم شطب الدين العام الذي يعود وجوده للسياسة الفاشلة خلال العقود الاخيرة، مع استثناء المستثمرين الصغار تحت سقف معين كما جرى تطبيقها في الارجنتين حينها. يمكن في المانيا ،على سبيل المثال، عموما استثناء سندات الادخار الاتحادية. وسيشمل جزء من تخفيض العملة مجمعات مالية خارج منطقة اليورو او الاستثمارات المالية الخاصة (التي تكون قيمتها فوق المبالغ التي يشملها الاستثناء).

اما الاموال الاخرى فسيتم تلمس تأثيراتها على المؤسسات المالية المحلية. ويجب شطب سندات الدولة وجميع الاوراق المالية السامة التي لا تزال موجودة في موازنات البنوك.

خلال إعادة جدولة ديون الدولة يكون لعقود التأمين المبرمة تأثير مدمر على السندات الحكومية و (Credit default swaps, CDS)تعني "التأمين على خسائر القروض"، لانه من الوهم ان نعتقد بالسماح لمالكي عقود التأمين هذه (أي الاشخاص الذين يعقدون المراهنات على افلاس الدول) ان يحققوا ارباحا عند اعلان دولة كبيرة لافلاسها.

ان الفرق بين هذه العقود وعقود التأمين الاعتيادية هو عدم وجود ضوابط لتنظيم التعامل بها، كتلك التي تنظم حقوق الملكية.

وخلال ازمة الرهن العقاري (Sbprime-Krise)، لم يحقق المراهنون على سندات العقار في الولايات المتحدة الامريكية اية ارباح، لو لم تقم الدولة بإنقاذ المتعاملين الكبار بعقود CDS، credit default swap ليفوا بالتزاماتهم، موظفين اموال الضرائب.

وكان احد اكبر المتعاملين بعقود CDS في سوق العقارات الامريكية شركة التأمين العملاقة AIGالتي أعلنت افلاسها، ولم يكن من الضروري قانونيا عند تأميم هذه

الشركة أن تتحمل الدولة كذلك التزاماتها. وتبعاً لذلك كان النقد الموجه الى الحكومة كبيرا. تبعا لذلك تعاد رسملة المؤسسات المالية بالمال العام، وبموجب قواعد صارمة يحصر نشاط هذه المؤسسات بأعمالها التقليدية المتمثلة بالتعامل بالودائع ومنح القروض. وينبغي على الدولة الحصول على الاموال المطلوبة بفرض ضريبة على الثروات العالية (أكثر من مليون يورو) لمرة واحدة، وبهذا يمكن القضاء على اعباء الماضي وازالة فقاعة الثروة والديون، وتستطيع البنوك مرة اخرى ان تعتني بتوفير القروض للنشاط الاقتصادي. وعندها ستكون الدولة قادرة على العمل مرة اخرى لانجاز مهامها. السؤال هو ليس ما اذا كانت الدولة مفلسة او قادرة على الدفع؟، وانما هو:

هل من المقبول سياسيا ان تحمل الغالبية العظمى من الناس، والى اجل غير مسمى، على اكتافها جبلاً من الديون يعود الى السياسات الاقتصادية الفاشلة خلال العقود الثلاثة الاخيرة، والتي لا يزال ينتفع منها أولئك الذين يتحملون مسؤوليتها؟

ينتقد اليسار دائما بلدان امريكا اللاتينية كالارجنتين التي اعترفت بالديون التي ورثتها من الدكتاتورية العسكرية التي دامت سنيناً وتحررت منها لتنتقل الى الدولة الديمقراطية الدستورية.

ولهذا كانت الهزيمة، ومن نواحي عديدة، منظورة مسبقا. لا يمكن بالطبع المساواة بين القرار السياسي في البلدان الصناعية وبين القرار السياسي للدكتاتوريات العسكرية. ومع ذلك فان مديونية الدولة اليوم هي نتيجة لدكتاتورية المال، وهي منذ سنين طويلة سياسة بالضد من الغالبية العظمى من الناس. لذا فانها ليست شرعية كالإرث الذي تركته الدكتاتوريات في امريكا الجنوبية.

حـــــــــــــوارات

كنت مع السندباد

محمد غني حكمت

حـــــاوره/ قـــــاسـم العـــــزاوي

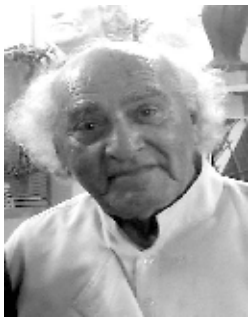

محمد غني حكمت، ولد في بغداد، الكرخ سوق العجيمي عام 1929. تخرج من معهد الفنون الجميلة عام 1953 وحصل على بكالوريوس نحت- أكاديمية الفنون الجميلة في روما 1959 كذلك حاز على دبلوم ميداليات من مدرسة الزكار في روما ايضا 1957 ولديه اختصاص في صب البرونز من فلورنسا 1961 وهو عضو مؤسس في جماعة الزاوية وتجمع البعد الموحد وكذلك عضو في جماعة بغداد للفن الحديث ويعتبر احسن نحات من مؤسسة كولبنكيان 1964أما أهم أعماله: تمثال شهريار وشهرزاد وعلي بابا والأربعين حرامي وتمثال حمورابي وجدارية مدينة الطب وتمثال المتنبي واقام العديد من المعارض الشخصية والمشتركة ، وله أعمال نحتية في بعض البلدان العربية.

أن تلتقي بأحد أعمدة الفن التشكيلي المعاصر، يعني انك اقتربت كثيرا من شرفة تطل على عالم الجمال والمعرفة والمكنونات الداخلية وسبر أغوار تزدحم بالرؤى وبمفردات صورية وبمقاربات يختلط فيها المتخيل مع الواقع لتشكيل حالات حكيمة، تتأملها بخشوع وانبهار، وكأنك تراها للوهلة الأولى وتثير فيك لذة الاكتشاف والسياحة الجميلة.. خاصة إذا كان اللقاء مع مبدع رائد وأستاذ كبير، اغنى الساحة التشكيلية العراقية بمنجزه النحتي وما زال لأكثر من نصف قرن يواصل ذلك..

من منا لا يعرف الفنان والقامة الكبيرة (محمد غني حكمت)؟.. الذي ارتبط اسمه بساحة كهرمانة وهي تفاجئ السرّاق بزيتها الساخن، وبحدائق (أبو نؤاس) و (شهرزاد)

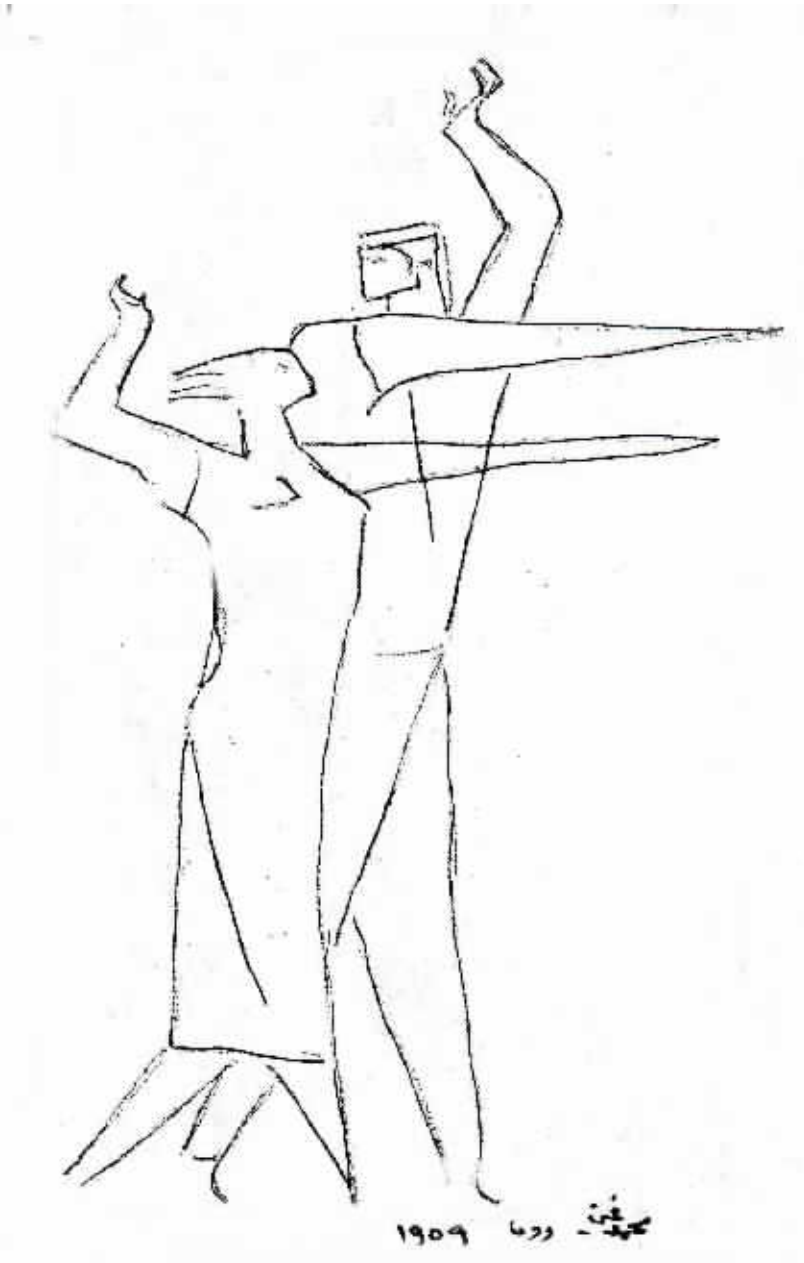

تخطيط تم تنفيذه نحتاً مدوراً من
البرونز – دعوة للشباب – ١٩٥٩

التي أمدت من عمرها ألف ليلة وليلة، وهي تقص أحاديثها التي لا تنتهي على القاتل شهريار وتحويله إلى إنسان محب، و (بساط الريح) الشاخص قرب فندق عشتار شيراتون والمحجوب حاليا بالحراسات والحواجز الكونكريتية! ورأس (أبو جعفر المنصور) والشاعر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس (أبو الطيب المتنبي)، الذي هضم فناننا المبدع شعره وحياته وجسده شاخصاً شامخاً في بغداد التي أحب... نجد الفنان محمد غني حكمت في كل مكان في بغداد، في الساحات وواجهات البنايات وأبوابها، وتجده أيضا في بعض البلدان العربية..انه سندباد يجوب المدن والحارات والأزقة والشوارع والساحات، يحلق بجناحين من نور حول مدن حلمية مسكونة بالأساطير والحكايا، يستمد قوته من سومر وبابل وآشور والحضارة الإسلامية، يقتنص بعينين تعرف كيف تستقطب ما لا نراه ويجسد بكتل نحتيه تتحرك وان كانت من جماد، فأي عالم مبهر وخلاق هذا الذي إلتقيته؟ وأي عملاق هذا الذي أحل في ضيافتة؟!

هناك في عمان حيث مشغله المزدحم بالمجسدات والتخطيطات ، دخلت بخشوع الى محرابه الفني، أنا والناقد صلاح عباس والنحات خالد عزت إضافة الى الفنان النحات علوان العلوان، وكأني به يشم رائحة بغداد قبل دخولنا عليه..كنت ألاحظ دموعا ساخنة تدور في مجرى عينيه، دموع فرح وحنين الى بغداد التي أحبها كثيراً قلت:

● ***أرى أن سؤالاً يدور في عينيك وملامحك وقسماتك التي رقت، كلها تسألني عن بغداد؟***

– قال: وهل بعده من سؤال..؟ وأضاف بانشراح فيما راحت نظراته تسترسل بعيدا وتغور في عمق ذاكرة استطالت وتشعبت، ترفرف فوق المدن والساحات والنهر الذي ما توقف عن جريانه وهو يحتضن زوارق الصيادين والعبارة بين الرصافة والكرخ ورائحة (السمك المسكوف) ورنة الكؤوس ونساء يوقدن الشموع ليلاً قرب (خضر الياس) وهي تطوف فوق موجاته المرتعشة مثل أجنحة الفراشات الشفيفة، تحدق صوب الجسور(جسر الصرافية، جسر مدينة الطب، جسر الشهداء، جسر الأحرار، جسر الجمهورية)، وتتضرع إلى المارين كي لا يطفئوا هذه الشموع.

كانت عيناه تتجول حول الحارات القديمة والأزقة الملتوية والشناشيل المتقابلة والمتصلة فيما بينها وتقف مبهورة فوق المنائر الذهبية وفوق الجوامع والكنائس والأديرة والنوادي، وما عليها زخارف بتكراراتها التي لا تنتهي، زخارف نباتية وأخرى نجميه تسورها الخطوط العربية المتداخلة برشاقة حروفها فخط ثلث ونسخ وديواني وكوفي وفارسي، فيما تقف أبوابها بعناد أمام الزمن المتعاقب، وما ملَ رتاجها من الطرق والاهتزاز، هي الأخرى تسور بالزخرفة وتشابك الحروف (والدي يعمل في تطريز العباءات) سحرت بما بها من ألوان وزخرفة، وأضاف: كان محله يقابل باب المراد في الكاظم، سحرت أيضا بما يحمله هذا الباب من نقوش وزخارف وخطوط عربية، وستبقى هذه المشاهدات في ذاكرته، ذاكرة النحات (السندباد) الذي ما مل من تطوافه حول بغداد ومعالمها التي شكلت ذاكرته المتحركة دائما قال:

– اعشق بغداد، لا أتصور نفسي بدونها واستنشق هواءها وان كنت بعيداً دائما ما

تخطيط دراسة لمشروع نحت تمثال من
البرونز – الفلاحة – ١٩٨٨

احلم أني أنام فوق السطح صيفا، أتأمل القمر ودارته وأراقب النجوم، أظل أحصيها حتى أنام ، محفوفا ببريقها الأخاذ، أحب حرّها وبردها، ماءها وكل ما عليها، كيف لا اعشقها وقد منحتني كل هذه الطاقة وهذا الفن والثقافة والذاكرة والصحبة الجميلة، احن وافتقد أساتذتي وأصدقائي: جواد سليم، فائق حسن، نزيهة سليم، خالد الرحال، حافظ الدروبي، شاكر حسن آل سعيد والكثير الكثير، لقد فارقونا بغفلة من الزمن، ياه كم احن لهم! واستطرد؛ لكنهم ما زالوا معي، تطوف أرواحهم الخالدة معي أينما حللت.

● ***وماذا عن مرجعياتك في إنتاج الفكرة التي ستشكل منجزكم التشكيلي في النحت والرسم؟***

– سرح بعيدا، وكأنه يتهيأ لسفرة تمتد طويلاً، وهو يعتلي بساطه السحري، يلكزه وينطلق الى أزمنة متراكمة ومتعاقبة وحضارات أسست اللبنات الأولى في الفن والكتابة والعمارة والقانون والتنظيم المجتمعي، وتركت لنا كماً هائلاً وثراً من الفنون المتنوعة.

قال وفي عينيه ما زال خيط التطواف والانبهار والاكتشاف، لم يخبُ بعد: تصور، وأنت وسط هذا الإرث الحضاري والخزين المعرفي وتنوع الرؤى الجمالية والأسلوبية على مد العصور لحضارات متعاقبة حفرت عميقا في التاريخ والذاكرة، إضافة الى ما احتوته الحضارات الإسلامية من فنون العمارة والزخرفة والخط، وما جاء به الفنان يحيى الواسطي من رسوم اسست الملامح الفنية لمدرسة بغداد للتصوير، وحكايات ألف ليلة وليلة وما تحتويه من مخيال محلق ومتشعب وغني بالمواد الدسمة، كل هذا وذاك، يعتبر مواد جاهزة وما على الفنان إلا أن يتأمل هذا الخزين الفني والأدبي ليمسك مادته وفكرته التي ستشكل منجزا فنيا رائعا وراكزاً، ولا اعني هنا نقل الموضوع على صيغة الاستنساخ، بل يستلهم المرموزات والدلالات ويصيغها بأسلوب عصري يواكب التطور والقفزات السريعة للفن التشكيلي.

لذا ترى معظم أعمالي النحتية سواء الشاخصة في الساحات وغيرها تحس بها نكهة محلية ولكن ليس بأسلوب التشخيص المحض، كلنا نعرف قصة كهرمانة والأربعين حرامي وشخصية شهرزاد وشهريار والبساط السحري وغيرها، كلها مواد من ألف ليلة وليلة، حولتها الى مجسد بصري لأضيف الى المقروء حالة الديمومة والتناسخ. نعم استفدت كثيرا من تراثنا الحضاري والسومري والبابلي والإسلامي وأمدني هذا التراث بالإستمرارية والتفاعل والتفكير والتجديد، واني لاستغرب حقا انحياز بعض الفنانين الى الفن الأوربي وتقليد أساليبهم دون الاستفادة من هذا الموروث الحضاري (وين متمد إيدك تغرف) قالها بلهجة بغدادية محببة واستطرد؛ والغريب أيضا أن الأوربيين انتبهوا الى ارثنا الحضاري واستلهموا في بعض أعمالهم نحتا ورسماً، أو ليست هذه مفارقة؟

● ***قلت؛ نعم، أنا مع اقتراحكم، إن الشعوب تعتز بإرثها الحضاري وتستلهمه فناً وأدبا.***

– قال: إن الفنان الرائد جواد سليم انتبه تماما الى ضرورة تأسيس ملامح فنية، تستلهم الموروث الحضاري برؤية فنية وأسلوبية تزاوج ما بين العالمية والمحلية، ببعديها التنظيري والعملي، أي ما بين تهيئة الأرضية الفكرية والتنظيرية وبين المنجز

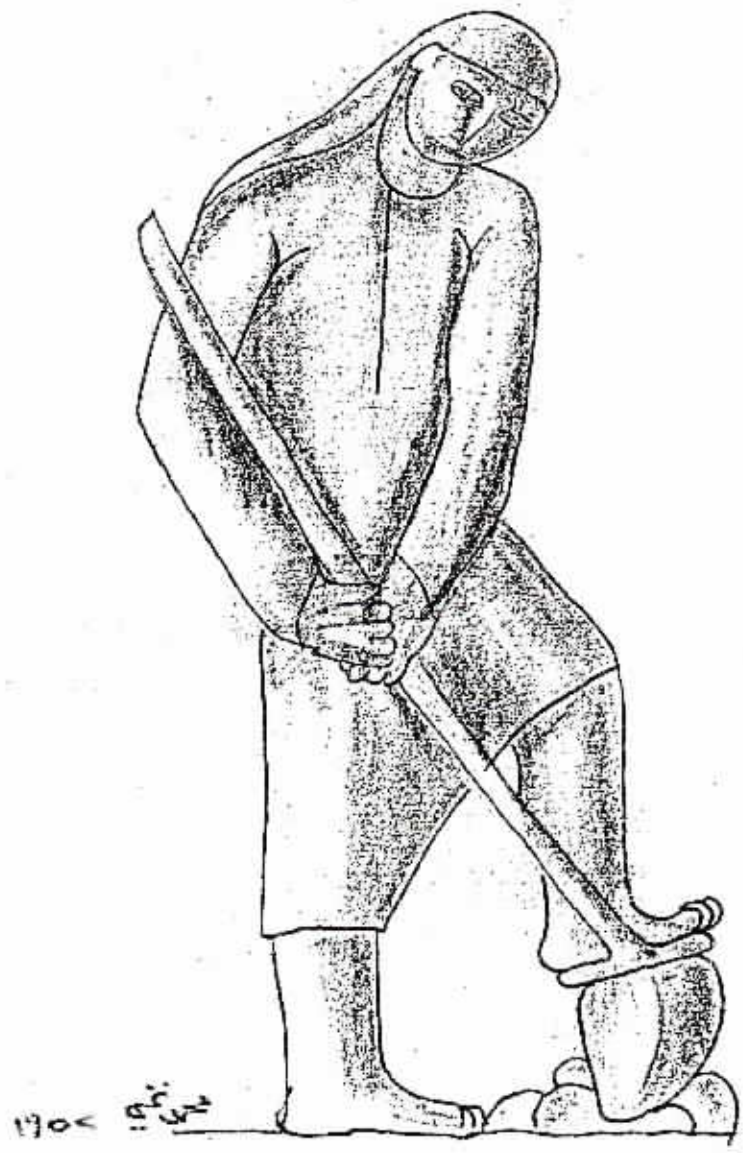

تخطيط - تم تنفيذه نحتاً على الخشب
- الفلاح - ١٩٥٢

المنتمي لهذا التنظير.

جـواد سـليم ذهب الـى نفس الأصـول الأسـاسيـة لحضـارة وادي الـرافـديـن من السـومريين والـبابليـين والأشـوريين ومـدرسة بغداد وببيـان يؤكد على الاهـتمام بـالموروث الحضاري ومدرسة الواسطي، مما ألقى هذا البيـان وظلاله علـى مجمـوعـة كبيـرة من الفنـانين وكان جواد أستاذا لهم ولجيل كامل من الفنـانين بما يتمتع به من شخصية ثقافية مؤثـرة وببغداديـته وعـراقيته الأصيلـة ، الحـديث قـد يطول ويطول وأنت تتحـدث عن هذا الإنسان والفنان الرائع.

● ***الفنان محمد غني حكمت يرى في داخله روح فنان آشوري، أتراكَ تـؤمن بـالتنـاسخ وإحلال أرواح من غـادرونا داخلك؟***

– ان تنتبه الى ما جاء به الفنان الأشوري والسـومري والبـابلي من فن فخـم، من ثيران مجنحة ومـلامح الصيد وغيرها فـإنك تبادله الـرؤى والتـأمل وكـأنك صـرت هـو. من هنـا يـأتي التنـاسخ والحلـول ويهيمن عليـك ذلك الفعل الخلاق للفـنان الأشـوري الذي أعطى الكثير من التماثيل الضخمة والمعبرة، اعشقه وأتمنى أن أرى من أنجز هـذه الأعمال الفنية والتـي صـارعـت الزمـن وما زالـت شاخـصة شـامخـة، فكيف لا أرى أن روح هـذا الفنـان تحل داخلي لتدفعني وتمدني بالقوة والسمو؟

● ***قلت : أرى ملامحك مبثوثة في الكثير من أعمالك ، خاصة في قسمات تمثال المتنبي وأبو جعفر المنصور وغيرهم ، وكما استقرأه انه ينتمي الى التناسخ أيضا ولكن هذه المرة حلولك داخل هذه الشخصيات.***

– الاعتزاز بمثل هـذه الشخصيات المؤثرة والفـاعلـة يقـودك الـى التعـرف أكثـر علـى حيـاتهم ومنجزهم حتى يشعرك هذا التعايش انك انتميت لهم فعلاً. من هنا قد يكون بعض التشـابه في بعض اللمحـات المبثوثة علـى الوجـوه، المتنبي شاعـر كبير أغنى المشهد الشعري العربي بالكثير، وترك بصمة واضحة أثرت على العديد من الشعراء، وهو أيضا يحب التجوال والتأمل والسمو.

● ***علـى ذكر (أبـو جعفـر المنصور) الـذي تعـرض الـى العبث، شـأنه شـأن العديـد مـن النصب والتمـاثيل التـي طـالتها الأيدي العـابثة من هـدم وسرقة بعـد 2003 ، كيف تنـظـر الـى هكـذا ظاهـرة من شـأنها إزالـة هـذه المعـالم الفنية؟***

– كل البلـدان مـرت بظـروف غيـر آمنة لكنهـا حـافظت علـى معـالمهـا الفنيـة والتي تشكل رصيـدها الثقافي والـوطني، أنـا جد مندهـش وحزين علـى ما أصـاب العراق من خـراب شـامل ومـا يحـزننـي أكثـر التعـرض لهذه التماثيل والنصب.

● ***وانـت تتـأمل كتلـة الخـشب أو المـرمـر أو الـطين، هـل هنـاك تـصـور مسبق لتأهـيل الفراغ وما ستكون عليه بعد انجازها؟***

– أتعامل مع المـادة الخام بألفة ومعايشة، أحبها أولا، ثم ابدأ العمل بعد اختمار الفكرة والتكوين، اسبقها بـالعديـد من التخطيطات ودراسـة النسب، قـد أراها منجـزة قبل البدء بـالعمل، أتصـورها شـاخصة أمـامي وأراها تتحـرك أيضـا، هناك علاقـة وثيقة وخيط متين يربطني وإياهـا، أتحسس رشاقتهـا ومفاتنها وأتـكلم معهـا أيضـا، لا يـوجـد عنـدي فـراغ محض، بل مـؤهل مسبقـا من خلال تصوري المسبق أيضا.

● ***قلت ؛ واي الخـامات اقـرب الـى***

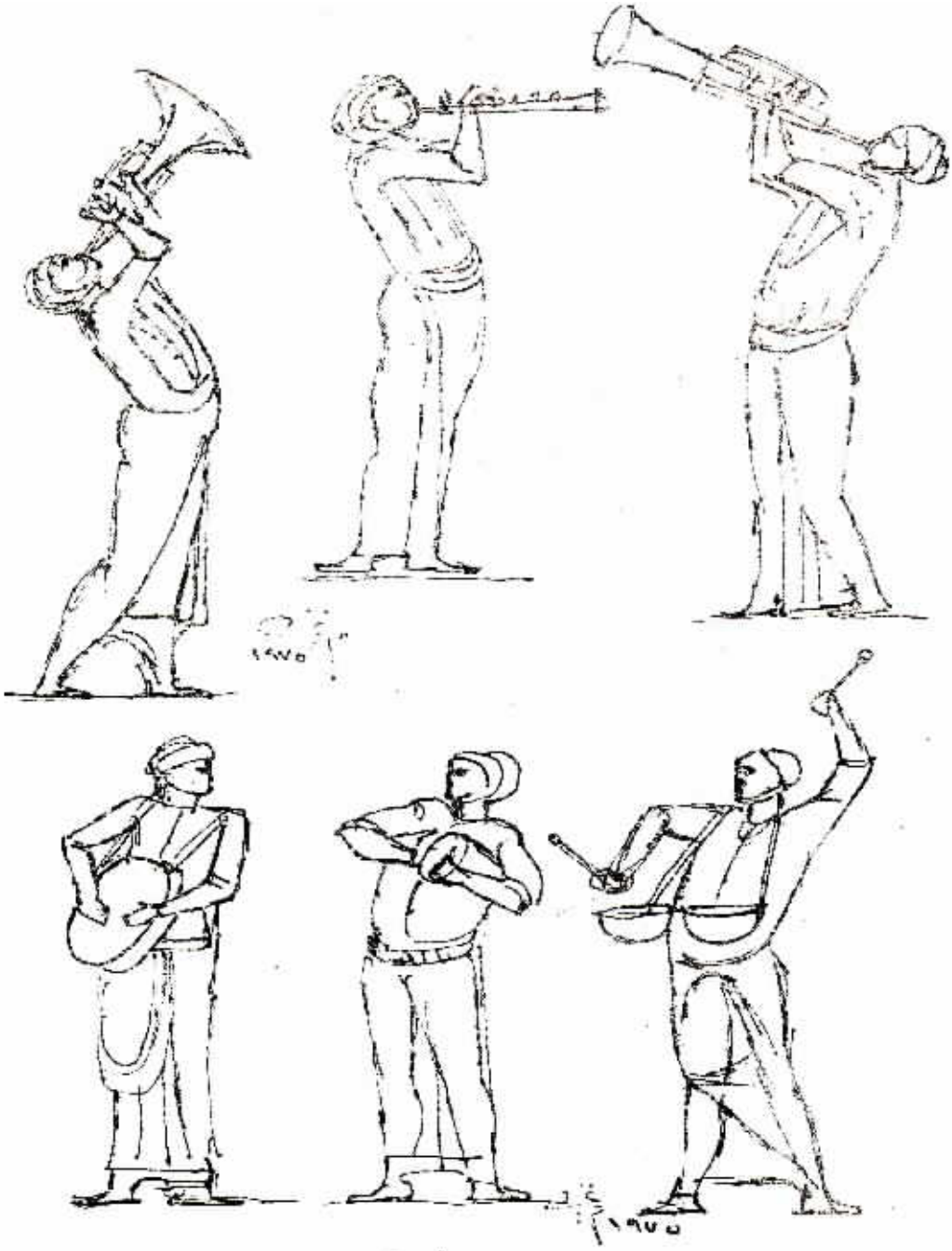

تخطيط تم تنفيذه نحتاً بارزاً من البرونز

- موسيقيون في الزفة البغدادية - ١٩٧٥

منطقة اشتغالكم؟

– قبل أن اذهب إلى ايطاليا، إشتغلت بالمرمر، أنا اعشق المرمر، كما أميل الى الخشب لما يتصف به من مواصفات تخدم الفنان كثيرا، وعملت جداريات كبيرة من الحجر بـ (14) جدارية تمثل درب الآلام بكنيسة الصعود، أحب الحجر والتعامل مع الطين أيضا لأنه يذكرني بالفنان السومري والآشوري والبابلي ... كل الخامات تكون مطواعة بيد الفنان الماهر، فهي مادة اشتغاله.

● ***كنت أتأمل قسماته الحادة وادخل الى روحه واردد مع نفسي: حقا انه نسخة أخرى لروح نحات أشوري وبابلي وسومري وعباسي، من خلال ما ترك لنا من إبداع شاخص مستلهم لشخصيات وحكايات ظلت مطبوعة في الذاكرة الجمعية الشعبية، وتمد خيوط التواصل والعطاء بين المتلقي ومنجزه، في فضائها المفتوح بعيدا عن صالونات العرض المغلقة، والجدير بالذكر أن الفنان الكبير عاد الى بغداد مؤخرا لينفذ أربعة أعمال نحتية يستذكر فيها (الفانوس السحري، الختم السومري)، وعن المرأة التي تمثل بغداد ، إضافة الى بيت شعري للشاعر مصطفى جمال عن بغداد، لتضاف الى منجزه المنتشر في بغداد التي عشقها بشغف، ماذا أعطت روما للفنان محمد غني حكمت؟***

– في روما بدأت باكتشاف جديد ورحلة أخرى، ذهبت الى أكاديمية الفنون بصحبة الفنان سعد الطائي والتقيت بالفنان الراحل خالد الرحال، وكان لأستاذي (هيكل كوريزي) أثره في بناء التمثال معماريا، وكان هذا الأستاذ معجبا بنحت بلاد وادي الرافدين، كان لا يرغب ان نعمل بتصرف بل الاهتمام بالجسم الواقعي لكني كنت اعمد الى الحذف والتكبير والتصغير وهذا يخالف تعاليم أستاذي، كنت معجبا بأعمال مايكل انجلو، ووقفت مبهورا أمام تمثال النبي داود، روما منحتني القدرة على العمل والهدوء والإطلاع على أعمال عمالقة الفن.

● ***هل شكل رحيل جواد سليم فراغا في الساحة النحتية وما دوركم في ملء هذا الفراغ؟***

– عند عودتي من ايطاليا الى بغداد وبعد رحيل جواد سليم، كانت حركة النحت شبه متوقفة، وخلت العاصمة من أي نشاط مهم وفاعل، لذا قمت بتنشيط جماعة بغداد والتأكيد على ضرورة استمرارها، إذ فاتحت نزيهة سليم وشاكر حسن آل سعيد، وأقمنا معرضاً ممثلاً لجماعة بغداد للفن الحديث، وأقمت معرضين شخصيين للنحت، مؤكداً أن الحركة النحتية لا تموت بل يجب أن تبقى باستمراريتها.

لقد فوجئت غير مصدق وانا في روما برحيل الفنان الرائد والمجدد جواد سليم، كنت أساعده في تشذيب المنحوتات بعد صبها، وأقول؛ أن الحركة النحتية في العراق لن تموت لأنها تركز على أسس قديمة وعريقة.

وأنت تحادث وتحاور هذا الفنان المعطاء، تمر في داخلك آلاف التساؤلات، ولكن أي صحيفة أو مجلة تستطيع أن تستوعبها، لذا لذت بالصمت متأملاً هذه القامة الكبيرة.

أدب
و
فن

كوابيس انكيدو

مجيد الموسوي

أصوات

في هدأة الليل
تأتيني الأصوات :
أصوات صهيل الأرض
أصوات الماء المحتبس
أصوات حممة الصخور
أصوات الظامئة المتجمدة
أصوات الهاوية
التي تتسع
وتتسع
حتى تغدو ثقبا هائلا في الكون
في هدأة الليل :
تأتيني أصوات العويل البشري:
أصوات المذابح التاريخية كلها
أصوات الجماجم
والأكف
والارجلِ....
أصوات
الموتى !

بانوراما

وحوش وغابات وأسواق
رمال خشنة تتساقط الجدران
والبيوت
والمنائر
والزقورات...
لا شيء يبدو واضحا
الغبار يلون كل شيء...
وهذه المدينة التي شيدت بالطين والخرافة
تتكفئ على أوجاعها مثل شراع مبلل بالجمر
والمطر !
لا ضوءٌ ولا ظل
لا رويٌّ ولا صدى

لا ليلٌ ولا نهار
الفصول كلها، والحياة كلها والموت
كلّه
رفعة واحدة تجمع الحقيقة
وتتناثر
و يصير الزمن عفريتا
يحمل الجحيم
ويطوف
بين
السماء
والأرض !

ليلة اولى

اتامل سقف الغرفة...
(هذا الرعد المجنون يكاد يمزق حاشية
الأرض) ...
أفكر بالطفل النائم قربي
يتململ في النومِ
ويبكي ...
(الرعد الوحش يهاجمُ)
والطفل النائم يبكي في النومِ ...
طفولتنا
كانت
تلهو
بين العشار
ونهر العشار !
***
لماذا اسال نفسي الآن ازن
وأفكر بالطفلِ النائمِ قربي محتضا ...
العالمُ
ابعدُ منا نحن - الاثنين -
وهذا الرعد الغاضب يفتك بالأرضِ ..
وطفلي يبكي !

حلم آخر

قلت :
امضي مع النهر
حتى المصب ..
ولكن جمع لصوص مريبين
فاجأني !
فانتبذت مكانا قصيا
ونمتُ
كنت انوي مناولة الريح
والرعبِ

حتى تلبسني الليلُ فالتبستْ طرقي

وتناءتْ بي الأرضُ في لحظةٍ

فتنائيتُ !...

هكذا

لم يعد لي سوى رملةٍ تتماوج بي

وظلال تراودني

وقليل من الشعرِ

يومضُ

في عتمةِ الروحِ

أتملني

فانتشيتُ ...!

محنة الغريب

لماذا

توجستُ

- حين دخلتُ المدينةَ -

من شجرٍ غائمٍ

وعيونٍ

تراود خطوي

ونهرٍ بلونِ الرمادِ ...؟

لماذا رأيتَ الحدائقَ والشرفاتِ الخفيضةَ

والطرقاتِ التي كنتَ اعرفها

والمنائر والعشب

قد وشحتْ

بالسوادِ !....

لماذا

رأيتَ -وقد أنكرتني المنازلُ-

أن المدينةَ غيرُ المدينةِ

(هل أوهمتني الظنون)

وان البلادَ التي

كنتَ اسكنها

غيرُ

هذي

البلادِ !

أطلال الزمن القادم

محمد جابر احمد

وحده الأفق غائبٌ
من نهار حكايات تبدو عن الوطن
الذي نستعير شوارعه
نفتش في مخاعه
لنقول للجموع هذه
قبل ان تنام هناك ...
في الزمن القادم سنقولُ أيضاً بأننا سنفعل
ونبدأ الحكايه
و ننام بحثاً عن نهايه أخرى
لنكون
احدهم مر بها متعجلاً ، وانتهت الحكايةُ أثراً لهم
شاهد رجلاً من نافذته .. يُقتل .
وآخر يمر بالمشهد مسرعاً الى جثة ، يسحب
نعلها ،
ويقلب يتأكد ان النعال على مقاسه يلبسه
ويمضي ..
.. يلتفت الى الجدران ؛ مكتوبٌ عليها
ان السماء فراغٌ كبير .. لابد لوطنٍ ما أن
يسايره ..

ونمضي من ساحة التحرير الى ساحة الميدان
حيث الخراب يسد حاجتنا الى الكلمات ...
ونتصحنا أمي ان نشتري أسماءً أخرى
للوطن ..
وطن بنداوة القمر ..
وطن يهاجر معنا ..
يقرص خدنا ضاحكاً عندما نشتم رائحة الحب .
هو الوطن
أطول من شوارعه في الافق
لذا قرر الحلم أن يبدأ
في الزمن القادم ...
ليذهب عنا ملل الحكايات
ويمنعنا الخروج من الصورة الى
قصيده تتحرك بمرآتها
المغلقة
من الصحراء الى صرخة امام تعدولها
لا تشبه اليأس
الا ذاكره
من رآها متشظية أمام الافق

بين قوسين

علاماته
قبلة بحجم القمر، أودعها فوق عشب مطلق
فمك
فأخذت تكبر بطفولة ضد الزمن
كبسمة غرستها اللوحة في الجسد
فتضاعفت بمرايا
خواطرك
ونمت، بحفنة شفاهنا لنزن بها،
قمر كفلك الدبقة، مع نخيل

فكرة عن لاشيء
نعبر شوارع هذا الحلم
الى اتجاهات مجردة صوب السماء
تحت الامطار التي تسقط فينا
ولا نرتوي الا من سراب
شارع أخير بحر بالقلب
على امتداده
اسمع خطاي تتلاشى
كالريح انت
وبداي حقيقة بين قوسين

ما خلّك

ربيع عبد الحميد قطب

سر نحو بهو للجمال يصور

عند النقوش الزاهيات تنور

بُسطت به الساحات كلَ منمق

فُرُشا جديداتٍ وأخضر يزهر

والماء يجرى كالمرايا وجهها

وجه السماوات الرحيبة يبهر

وقف النخيل وقد تبسم هانئا

يبدى الفخامة والرياضَ يوقر

وإذا تمايل ذاد حسن بهائه

قد جاوب النسْمات تهدى تعبر

يداّه فاقت في التكرم حاتما

يقرى سخيا بالعطايا يثمر

وترى قريبته هنا صفصافة

تهفو مشاعرها الرقيقة تنظر

فى حجرها جمعت عصافير الربا

تصغي لهم مقرورة لاتفتر

جُعلت بهم في الروض أجمل عازف

يبدى نقى اللحن عذبا ينشر

بهدوئها تبدو ككاعب مجلس

أرخت جميل شعورها لايضفر

قيل الكلام بغير صوت أو صدى

فهو الشذا همس رقيق ينثر

قيل الكلام يشق قلبي سحره

ما خنت حيك أو يكون المنكر

قولوا لها لا تحسبيني هاجرا

كرضاب حلوى في حشاها السكر

ما خنت حيك فتنتي ومحبتي

فعل العباد بما أتيت يسطر

ولقد فقدت هويتي مثل الذي

يقعى بسجن دون ذنب يذكر

عشر قصائد للشاعرة الأمريكية
(ليزا زاران)

ترجمة و تقديم : معين جعفر محمد / العراق

معين جعفر محمد، من مواليد 1954- المسيب، شاعر و ناقد و أديب مترجم، بدأ النشر في مطلع السبعينات. له العديد من القصائد المنشورة في مجلات متخصصة كالأقلام، الثقافة، الطليعة الأدبية، و غيرها. كتب العديد من الدراسات النقدية التي نشرت له في مجلات محلية وعربية حيث درس شعراء عديدين منهم عبد الوهاب البياتي، بدر شاكر السياب، علي جعفر العلاق، فاضل العزاوي، سامي مهدي، سعدي يوسف، حميد سعيد، وله كتيب منشور تحت عنوان (الضوء والشرفة: جدلية الإستثنائي والمألوف في شعر حميد سعيد) كذلك أنجز ترجمة لرواية عنوانها في ربيع ذاك العام للكاتبة البريطانية سوزان هل ولم تنشر بعد. هذا فضلا عن دراسات مترجمة أخرى نشرت في مجلات متخصصة كالأقلام، الثقافة الأجنبية. يعمل حاليا مدرسا للغة الإنكليزية في التعليم الثانوي في الحلة

مقدمة :

ولدت ليزا زاران باسم (ليزا ماري هوي) في السادس والعشرين من أيلول،1969، في أنغلوود، لوس أنجلس، كاليفورنيا؛ لأب من أصل نرويجي (ليونارد هوي) و أم نرويجية –أمريكية (جوان آبلت). أما من

حيث ترتيبها في الأسرة، فقد كانت الطفلة الوسطى بالنسبة إلى أختين أكبر سنا وأخ أصغر.

لقد مرت عائلتها بظروف عصيبة انعكست سلبا على مجريات حياتها في وقت مبكر من طفولتها، فقد تنقلت عائلة هوي أكثر من أربعين مرة عبر الولايات المتحدة وألآسكا، لتعيش في أماكن مختلفة من نحو: نيومكسيكو، ألآسكا، أريغون، أريزونا ثم كاليفورنيا... كل هذا ولما تبلغ الشاعرة السادسة عشر من العمر بعد! وبغية الإفلات من ضائقة هذه الظروف العسيرة وما تسببه من مكابدات يومية، لجأت ليزا هوي، في سن مبكرة إلى قراءة الشعر وسماع الموسيقى، وإبان هذه الفترة المبكرة من حياتها، كان أكبر تأثير شعري عليها متأت من جيمس وتكوم رايلي، ثورو، والت وتمان وكذلك التوراة.

أما على صعيد اهتماماتها في الموسيقى، فقد تأثرت بأسماء كبيرة من نحو بوب ديلان، موزارت، ولوسيانو بافارتي. ولعل إحدى الميزات التي تستلفت النظر في شخصية هذه الشاعرة، نبوغها في نظم الشعر في سن مبكرة، فقد كتبت أول قصيدة لها تحت العنوان (رواق)، وهي في السادسة من العمر! ولكن صدور أول مجموعة شعرية لها جاء متأخرا نسبيا بسبب الظروف المعيشية العصيبة التي مرت بها الشاعرة إبان مدة حياتها في كنف أسرتها!

بيد أن الحدث الحاسم الذي عصف بعائلة هوي وكان له تأثير مباشر على مجريات عائلة هوي (وعلى الشاعرة بشكل خاص)، هو طلاق الأبوين. في رسالة شخصية بعثت بها الشاعرة إلى المترجم، ترد إشارة إلى هذه الواقعة وانعكاساتها السلبية على حياة ليزا حصرا:(... حين كنت في الرابعة عشرة من العمر، تم طلاق أبوي! هذا الحدث دمرني تماما، كما دمر أبي الذي لم يكن راغبا في الانفصال عن زوجته التي كان يحبها حبا جما منذ أن التقى بها للمرة الأولى وهي في سن الثانية عشرة. واستمر حبه لها بعد انفصالهما ولم تكن في حياته أية امرأة أخرى حتى وفاته... وفي أعقاب طلاقهما، أصبح أبي أكثر عزلة وميلا للانفراد بنفسه! أما والدتي، فقد تزوجت من رجل آخر وانتقلت بنا إلى فينكس، في حين بقي أبي يعيش في أقصى الشمال وكان يجيء لزيارتنا – نحن بناته – مرتين في السنة، ولم يكن يطيل المكوث معنا بل كانت زياراته لنا خاطفة، لساعة أو ساعتين، يخرج بنا لتناول الغداء ثم يغادرنا بعد ذلك. كان أمرا فاجعا للغاية!)

من هنا، فانه لأمر هام أن نشير إلى علاقة الشاعرة ليزا بأبيها سيما وإن لهذه العلاقة انعكاسات واضحة على كثير من قصائد الشاعرة إلى حد تحكمها بتشكل رؤاها تجاه جنس الرجال. تتحدث ليزا عن هذه العلاقة واصفة كيف كان أبوها غير عابئ ببناته اللواتي كن – في نظره – أطفالا لايليق إقحامهمن في عالم الكبار:(لقد كانت علاقتي بأبي جيدة. كان أبي رجلا هادئ الطبع منطويا على نفسه، ولكنني بصفتي ابنته، كنت أفعل كل ما في وسعي من أجل إرضائه وإسعاده.

هذا مع أنه لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذين يحدثون أبناءهم عن كثير من الأمور الهامة! أنا وشقيقتي كنا نعتبر

"أطفالا" في نظره، حتى حين بلغنا سن الرشد، لم تتغير نظرته هذه تجاهنا.

ولذلك كنا نقصى من دائرة المحادثات وتبادل الآراء التي كانت تدور بينه وبين والدتنا.) [من رسالة شخصية أرسلتها الشاعرة إلى المترجم]

نجد لهذه المعلومة صدى في قصيدة "حديث إلى أبي الذي يجلس رماده في الحجرة ويصغي" التي تصور شخصية الأب عندما يستوي حضوره وغيابه، بل حين يكون حضوره غيابا، فهو "رماد" حيا كان أم ميتا!!

وعلى الرغم من طبيعة الأب السلبية هذه، لم تدخر الابنة ليزا وسعا في التعاطف معه والعطف عليه، ناظرة بعين العرفان والتقدير لنل لما قاساه في حياته من أجل تحسين أوضاع أسرته المعيشية والارتقاء بها إلى المستوى الذي يجعلها قادرة على تحقيق أحلامها في العيش بسعادة ورخاء. هذا ما تؤكده الشاعرة في حديث لها عن أبيها الذي كان كاتبا معروفا في النرويج على حد قولها:

كثيرا ما أشعر بميل إلى الكتابة عن أبي. فأنا متعاطفة بجد معه، خاصة في ذلك الجانب من حياته المتمثل برحلته الشاقة والطويلة التي خاض غمارها ليحظى بصفة مهاجر في هذا البلد.

لقد كافح لمدة عشرين عاما قبل أن يمنح تأشيرة للإقامة والعمل في الولايات المتحدة! لقد اضطر على مزاولة الكثير من الأعمال المتواضعة والأعمال الشاقة التي أدت إلى وفاته – العمل في المناجم، في استخلاص الحرير الصخري [أسبستوس] هذا مع أنه كان معروفا في النرويج ككاتب وكفنان، كافح ليجد له فرصة لاستثمار طاقاته هنا في الولايات المتحدة)

في العام ١٩٩٠ تزوجت ليزا من السيد زاران وأنجبت طفلين في ظرف سنتين بعد زواجها. إبان السنوات الأولى من زواجها، بدأت ليزا بكتابة مجموعتها الشعرية الأولى (فتاة في بعض الأحيان). اللافت للنظر في هذه المجموعة، قدرتها على قول ما هو مناسب لكافة الأزمنة. وفي أعقاب نشر هذه المجموعة في العام 2004، سرعان ما برزت ليزا زاران كشاعرة أعطت إذنا للولوج في جوهر وجودها وذلك من خلال أعمال شعرية لاحقة تعد جديرة بالاعتبار على أكثر من مستوى، مثل: (حديث إلى أبي الذي يجلس رماده في الحجرة ويصغي)، (فتاة)، (أوراق شجر) و (رقة). ثم واصلت الشاعرة عطاءها لتنشر بعدئذ مجموعتها الشعرية الثانية تحت العنوان: (إن لك قلبا طيبا)، التي صدرت في العام نفسه عن دار نشر ليتل بويم؛ وفيها تستجلي الشاعرة جمال المناظر الطبيعية لجنوب غربي أريزونا. في العام 2006، حررت الشاعرة اثنتين وعشرين قصيدة من قصائدها التي كانت قد كتبتها في فترات زمنية سابقة ونشرتها في دوريات أدبية مختلفة ... لتضمها في مجموعة شعرية ثالثة، صدرت تحت العنوان (زهرة التناقص) التي ضمنتها إهداء لوالدتها! (انتهى)

1- زهرة التناقص

يمكنك أن تموتي من أجل – الحب
أو أن ترفضيه رفعة واحدة
من غير أن تعرفي شيئا

سوى إصرار الشباب !
الرجال كانوا و ما زالوا
في شتات العصور ،
حاملين أشد القلوب تحجرا
في صدورهم الواسعة
بينما نحن - معشر النساء -
كوننا مبكرات أكثر مما ينبغي
ننفض الأوراق المتيبسة
من على كواهلنا، نبتعد عن التبرعم لننبل
حالما نرى شروق الشمس !
ندع أعيننا تبتعد أولا
بعدئذ هناك الوفي المترنح
لقلوبنا من جنب إلى جنب
اللسان الذي نقطعه
القبلة العمياء على ارتجاج الليل
نعطي ، نعطي ، نعطي ، من جلودنا !
بصفتنا نساء
نتمنى أمنية عمياء
أن نتخطى زروة العاطفة
إذ نتلاشى في خضم عالم الرجال
الذين قد كشطنا كشطا من صدورهم
لربما نحن مولودات من بذور
تزحف ماهيتنا متسلقة الساق
لربما
كل زهرة ترينها
هي امرأة
وحينما
تكون في طور الإزهار
حين تكون مزهرة ،
حمراء
وتكون أوراقها خفقات أجنحة
للاخضرار في رياح الخريف
أجنحة خفاقة للاخضرار ، أجل
حتى حين تحاول الرياح إزلالها
تتساقط لأنها
واقعة في الحب
وهي الوحيدة التي من شأنها
أن تموت من أجله !

2- الرجال في أحلامي

كافة الرجال في أحلامي ،
بلا ملامح
حينما التفت أجدهم
محدقين بي بوجوههم الخالية من البقع
أتمنى لو أستطيع القول
ما لون عيونهم
أو ما إذا لهم أسنان مستوية
في البدء ظننت أنني واقعة في حبهم
ظننتهم عشاقي
لكن معرفتي أوحت لي أنهم موجودون
فحسب
لارتكاب قدر بسيط من العنف
إذ يمدون أيديهم الغليظة
ما أتوخاه خبيء طي نفسر

أتمنى الذهاب ، أتوق إلى الهرب
لكن لا أستطيع
وإذ يزدادون قربا مني
بما يكفي لملامستي
أستيقظ : بقبضتين مضمومتين إباء
وساقين منفرجتين للتلقي !!!

3- فتاة

قالت بأنها تجمع أوصالا من السماء ،
تجتزئ ثقوبا منها بمقص فضي
تتفا سماوية هكذا تسميها
كل يوم يحلق سرب طيور في حلقات ،
حول أصابعها ، هي جوقتي من الزوجات
هكذا تسميها ؛ كل يوم تقرأ شعرا
من كتب تكسوها الأتربة ،
تستعيرها من المكتبة !
جالسة في الساحة ، تبتسم لغرباء يمرون بها
مع أنهم يبدون عاجزين عن هز مشاعرها
الحزينة ،
قالت : إن الليل يذكرها ببرد باردة
مرخاة برفق عبر حاجبها المحموم ،
قالت : إنها تحب أن تنفط
في النوم تحت النجوم ،
التي من شأن خطوط ضوئها
أن تجعلها تصدق
بأنها ، هي أيضا ،
ذاهبة إلى مكان ما " –اللاتنا هي
تهمس مغمضة عينيها ،
هابطة في لجة هواء كثيف ، حيث
لا أذرع تتطاول لتمسك بها !!

4-حديث إلى أبي الذي يجلس رماده في الحجرة و يصغي

الموت ليس الكلمة الفصل
بلا أذنين ، لا يزال أبي يصغي ،
لا يزال يهز كتفيه استهجانا
كلما سألته سؤالا أبى أن يجيب ،
أقف عند باب الحجرة : يدي على المقبض ،
وركبي مستند على الإطار ، وأسأله
ما رايه بالحرب في العراق؟
وكيف يشعر تجاه ابنته الكبرى
وقد تزوجت رجلا صارفته على الانترنت؟
بلا عينين ، لا يزال أبي يتطلع حواليه
يرى ما أنا محاولة أن أفعل ، يرى أنني قد
أصبحت أقل سلبية مع انصرامه ،
يفهم حاجتي لإجابات لا يمكن أن يعطيها
أحد غيره !
أتخيله يأخذ نفسا ، متحسسة
رئتيه و هما تمتلئان ثانية بالهواء ،
أفكاره و هي تعوم كما البالونات في الفضاء !

5-أوراق شجر

ذهبت بحثا عن الـ ،
فوجدتك أنت بديلا ،

أهو سوء حظ أم قدر
أنت من يقرر !
مدفون في الوحل ،
في سخام المدينة ،
أسى على شهية ،
شيطان على كتفك الأيسر ،
ملاك على يمينك !!
أنت بإيقاعاتك السوكية ،
لم يسبق لقلبي أبدا ،
أن حاول الانتحار من قبل !

6- رقة

كل ما يكتنفني : السماء بظلالها العميقة
الداكنة ،
النجوم
القمر بروحه المنكمشة ،
أنى لي أن أكون ما أريد أن أكونه ؟!
لا أنا زوجة و لا أنا أم ،
أنا لا أحد و لا أحد عاشقي
جل ما أخشاه
إذ يستبد بي الجنون ،
أن يطأطئ أبي رأسه المريض
بين جناحيه الفضيين و يبكي ناديا :
يا ابنتي ! آه يا ابنتي !!

7- العظماء

ترى من يكونون ، الأشخاص العظماء ؟ -
(آرلر)
هم الأشخاص
القادرون على إخراسك
- يقول الشاعر آرلر -
القادرون على شنقك
بأوتار قلبك
بأغنية تجمدون الدماء في القلوب !
هم يعيشون في أماكن
تدعى مدينة العشق المبجل !
هم يعيشون في داخل
وجدنا ويزحمون رؤوسنا
بالتقوى
سوف يجيئون ذات يوم
- يقول آرلر -
يقطر كالعسل
سوف يجيئون ذات يوم
رموي كيومنا هذا
رموي كيوم غد !!
ها أنذا أشعر بالتوتر ،
و ميلوريات منتصف الليل التراجيدية
رموي كيومنا هذا ،
رموي كيوم غد !!
ها أنذا أشعر بالتوتر ،
الحرارة تتصاعد في أحشائي ،
لوني الأرجواني يتورد احمرارا !

8- غرارة ...

كوني الطاولة و الكرسي الخشبي

الذي يجلس عليه لتناول حسائه .
كوني الحساء الذي يرشفه ،
الملعقة التي يقربها من شفتيه، كوني شفتيه،
لسانه ، النفس الذي ينفخه
لتدفئة الحساء .
هكذا تصبحين :
أنفاسه ، شفتيه ، لسانه !!

9-رغبة

أتمنى لو لم أكن
واقعة في حبك .
كفتاة ، أنا أقع في حب
فكرة الحب ، راصدة التآكل السري
الذي تمارسه أمي،
وهي تنتظر رجلها
وهي تسهر على خدمة رجلها،
تنتظر على الدوام،
فاغرة فمها!
أتمنى لو كانت ليالي
غير مستنفدة بالأحلام !

10-أقفال

لا تنزعج إذا قلت لك :
إن حبك عبء بالنسبة لي و متعب في أعماقي .
و متعب في أعماقي!
لست أنا المرأة الأكثر رقة ،
بوسعك أن تختار امرأة أخرى!
تقول لي : إن حبك إياي لا نهاية له
و لكن الزمن يجري منصرما !
ليس الفارق في مبتداه ،انه متحقق هنا،
آت على كل شيء !
لن أشير إلى التفاصيل .
لا أدري ما الذي تراه في ؟!
كيف أن حبك لي يشكل حياتك ؟
قال لي أبي ذات مرة : استيقظي مبكرة ،
كوني امرأة صبح ،
استشعري طلوع الشمس ، أعرفي
الضوء و هو يوقظ العالم !
دعي لزوجك المسؤولية عن الليل .
كوني هادئة و لكن اعرفي لغة ضميرك ،
قولي الحقيقة ، اذهبي حيث تكون !
تجنبي الظلام . تركي
انصاف الليل لزوجك
كوني حيوانا أليفا ،
يميز صوت غصن واه ،
إذ يطقطق في خضم الريح!
تهيئي للعواصف ، كوني مجهزة جيدا ،
واجهي الكارثة بتعويذة !!
إياك و تشابك العواطف .
منتصر من يحظى بأول قبلة من شفاه الفجر ،
اعرفي مكانك !
ليس من شأنك الفهم في السياسة ،

دعي لزوجك حل المشكلات في الدور
التحتاني من المبنى!!
لكن أبي –آه يا عزيزي –كان محظنا ،
لأن انتصاف الليل يأتي خلسة من خلال
الستائر ،
وأنا مستمتعة .
لا أريد فصل الضياء عن الظلام ،
لا أريد تحمل العذابات نفسها ،
لا أريد أن أستشهد ،
لا أريد صنع طعام ينتفخ
لا أريد أن أزوي في شرود ذهني !

كنت أضطجع يقظة في السرير ،
حينما كشط البدر بأظفاره زجاج الشرفة !!
خرجت لملاقاته .
لا تبتئس إذ تستيقظ غدا ،
و تجدني غير المرأة التي تزوجتها !
لقد حاول أبي إعدادي لحب مثل حبك ،
حب منعزل يدار بوساطة لوحة توجيه !
ذهني منقطع ،
روحي منتزعة من جسدي !
كنت فتاة مطيعة لأبيها ،
لكنني –الآن –امرأة آبقة !!

قصة قصيرة

البكاء في الزمن الضائع

سلام ألقريني

الراوي يبدأ بعد حين ... والناس بين قيام وقعود، يدخلون ويخرجون، والجالسون غارقون في صمت، عيونهم تتنقل في أجواء المكان المهيب .. تفتش في الزوايا والجدران المزينة بصور شخصيات ترسخ محياها في الوجدان حتى غدت حقيقة بالنسبة لهم، الثريات المشنوقة في السقف تبحث عن عمقها التاريخي ..الآف الأشياء ترنو أذانهم وأبصارهم لها .. إلى مايحد ث في الزمن الغابر والذي حدث ... النادل المتطوع في حركة لولبيه دؤوبه يتحرك بين القاعدين العضاضين دون إرادتهم على البؤس والفقر ..المهم تمتد أليهم يد النادل بأكواب الشاي والليمون البصري الحار طالبا الدعوة له ولوالديه بالرحمة والغفران من الذنوب والكبائر وان يحظى بخاتمة طيبة يذكرها الناس له بكل خير .. حسن العاقبة ..هذا مايتمناه اغلب الجالسين في هذا المحفل المقدس ..بعد الانتهاء من شرب الشاي يتم على الفور تدخين سيكارة أيضا يوزعها المتطوعون تبث دخانها في أرجاء المكان باعثة برائحة ذات عبق خانق، راعي المجلس يطلب بأدب جم الجلوس كلاً في مكانه وعلى النادل الانسحاب والتوقف عن توزيع الماء والأشياء الأخرى، وبإشارة مشفره لوحتها يده انحبست الأنفاس. لحظة تقدم الجمع رجل ذو هيبة ووقار بجبته الأنيقة ووجهه النوراني المنتهي بلحية قد أحسن ترتيبها. هو القارئ .. الراوي .

الصمت سيد المكان والعيون تحدق بخشية وخشوع إلى خطواته الوئيدة .... هو الذي سيبدأ قراءة المأساة بصوته المشحون بالشجن واللوعة وبمقام يدمي القلوب.

الرجل الذي جلس بجانبه وقد التحف معطفا عفا عليه الزمن .. وقد غط في نوم

عميق فالعمل في حقل البناء ليس بالأمر السهل. الاستيقاظ من الصباح الباكر لكي تكد حتى المساء ليأخذ التعب الكثير من جسد واهن يئن تحت سطوة فقر لاينتهي.. فينام ولم لاينام ليتوج غفوته بشخير متصاعد متقطع يثير بقرقعته انتباه صاحبه الذي أسرع في سحب كم معطفه ثم لكزه في خاصرته متلافيا موقفا كاد إن يكون موضع سخرية الحاضرين، وقد نجح في تدارك الأمر ليقفز الرجل مرعوبا يكرر عبارات... الصلوات والتهليل، سائلا زميله عن!

ماذا حدث ؟

– لقد بدأ الراوي، ألا تسمع ؟

– نعم سمعت !

بيت من الشعر تهتز له القلوب وآخر تنفطر له الأكباد ثم سلسلة من الآهات ليتحول المكان إلى غيمة داكنة من العويل والدموع ... الراوي يحثهم إلى المزيد مرددا (لعن اللّه عيناً لا تدمع وقلبا...) لتغدو عاصفة لا تلبث إن تهدأ وبإيعاز منه أيضا لغرض الانتقال إلى مرحلة أخرى عند اللحظة تلك تنتاب الرجل كآبة حادة يترك المجلس مسرعا إلى ما يسمى الدار ليجد أبناءه قد غطوا في النوم وهم يبحثون عن حلم يتمنون.

أن يكون واقعا ... كانت زوجته تراقبه وهو يغلق باب الصفيح التي أصدرت صريرا حاول تحاشيه لكنه لم يفلح... سألته عن سبب تأخره لمنتصف الليل، تركها دون جواب ليذهب إلى الفراش وفي غفلة منها يبكي حاله الذي لم يتغير.

قصة قصيرة

ماحدث مع أقرب الناس

ناصر قوطي

ناصرقوطي من مواليد نينوى، 1959، عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب العراقيين، صدرله العديد من القصص منها: عمق / غرباء / مايتبقى من البياض ، كما نشر عدة مقالات نقدية في الصحف المحلية والعربية، وله كتاب تحت الطبع تحت عنوان / وهم الطائر .

"إذا كان كل ما يقوله الناس في الخير والشر صحيحا، فإن حياتي سلسلة من الجرائم .." .ج . خ

لاأعرف تحديدا ما الذي رأيته ينسل عبر النافذة، ولا أعرف أيضا إذا كان هذا المزاج الدموي وتلك الرغبة العارمة في التدمير والخداع قد جاءتا مصادفة والتصقتا بي، أم أن العزلة الجارفة التي اخترتها أخيرا وقسوة الواقع ورثاثته، هما اللتان دفعتا بعض الخصال والخلايا النائمة في دماغي، وحفزتا تلك الميول الشريرة التي لايتمتع بها إلا نخبة قليلة من المحتالين ومحترفي الجريمة. فلو تصور أحدكم ماحدث الليلة الماضية ومافعلته بأقرب الناس لي لما أكمل هذه السطور المفارقة اللعينة، ولما أنصت لهذه الفوضى الذهنية والارتكابات التي قمت بها من أفعال صبيانية لايستسيغها منطق ولايتحملها عقل سوي، غير إنني كنت مدفوعا – نتيجة لعزلتي الخانقة – بخواء ذهن شامل كما لوكنت تحت تأثير أعتى أنواع المخدرات فتكا، في الوقت الذي

راحت تغلي في داخلي نقمة عارمة على كل شيء. حصل ذلك حين تيقنت من رؤيته وهو يخترق الجدران ليهيمن على خلوتي، ينشر جناحيه المغبرين في فضاء الغرفة، يحثني لكي أفضي له بمكنون سري وبأي شيء يشعره بوجوده، غير أن احترازه في الإنصات لي كان أصعب من أن يؤخذ في غفلة من الزمن، كنت أستشعر نعيبه يتصادى في الزوايا، يحاصرني، في الوقت الذي تملكني فيه جزع مفاجئ من أن أتخلى عن آخر الكلمات التي كنت سأفضي بها إليه وهو ينتظر حائرا وقلقا في وحدته المريرة أو خلوته القدسية التي لايريد أن ينازعه عليها أحد أو ينتزعه منها، ولكنني كلما كنت أفكر بمواجهته أو خداعه يروح يتلاشى، وجهه يذوب عبر الزمن في فيض ضبابي قاتم، إلا من صوت نعيبه المهيمن على ذاكرتي تلك الذاكرة الهرمة التي بدأت لاتلملم إلا الخرزات الهاربة من أقرب حادث وقع معي.

فلنفترض وأنت تقرأ هذه السطور كنت تعاني ما أعانيه الآن وأنت ترى الضباب يغمر كل شيء، وكنت منسوفا بالوحدة والسأم وثمة بوم وحيد ينعب، يخفق بجناحيه الثقيلين فوق رأسك، ورأيت ساعة جدارية قريبة منك وكانت تشير الى الثانية بعد منتصف الليل ولاشيء أمامك لتفعله بعد أن أخذ منك الأرق مأخذا، تخيل فقط ان فكرة التحطيم تراودك – نتيجة لما تشعر به من ضجر – وليس أمامك إلا خيارين لا ثالث بعدهما.

الأول: ان لم تقم بتحطيمها ستصف نفسك بالجبن لأنك لم تبادر إلى اقتناص الفكرة الطارئة التي يوحي بها لك عقلك الباطن وبالتالي لن تقدر على تحقيق أيا من رغباتك الدنيوية، التي تفكر فيها وأنت في خلوة من نفسك.

أما الثاني: ان كنت متمردا وكنت تؤمن بأن كل مايدور حولك وكلما يتعلق بالوجود هو أمر نسبي محض، لفكرت بانتزاعها عن الجدار ولهشمتها على بلاط المشفى – هذا ان كنت مريضا أو زائرا– تخيل فقط انك قمت بذلك، خاصة إذا كان عمرك قد تعدى النصف قرن، فما الذي سيحصل، سيجيء أحد الموظفين ويسألك عما فعلت وستجيبه بكل اعتداد بالنفس وتقول: ان مرأى الساعة يذكرني بالموت البطيء، فالزمن هو الآفة الوحيدة التي تلتهم كل شيء ..!! أما هو فسينصت إليك لوهلة ويصفك بالجنون ومن ثم يطالبك بتعويض ثمنها هذا ان لم يخبر عنك قوات الأمن، أما أنت فستنصت إليه بأدب جم وتحدق ببرود بأوداجه المنتفخة ثم توجه إليه لطمة مدوية يظل صداها يتردد في أرجاء الصالة و .... آه .. فلولا النسيان لما تحملنا وطأة الوجود، فها أنذا ابتعدت كثيرا عن الذي كنت سأفضي به إليك وما الذي فعلته بأقرب الناس لي، من الذين يغفرون كل أخطائي وما أرتكبه من حماقات معهم وهم يتقبلون كل ما يبدر مني بحسن طوية، رغم ظروفهم المعيشية الصعبة، أما أنا فلست مع الذين يعيشون على الكفاف والأماني إنما مع من يقول (بأن تؤخذ الدنيا غلابا) فالمرء لا يقدم على الظلم إلا لضعف همته أو لعلة كامنة فيه، كما أن القسوة هي الدالة الوحيدة على قوة الوجود مثلما التسامح والرأفة دالتان على العجز والخور، فما من قسوة غير مبررة، فلتنظر إلى كل حكومات الأرض وساستها، انظر إلى صناع الحروب وما يرتكبونه من حماقات وكوارث

تحت مسميات واهية من الوطنية والمبادئ والإصلاح، وما شابه ذلك من رعاف ترهات وأكاذيب امتلأت بها بطون الكتب، كما يعلن عنها – دون خجل– في نشرات الأخبار المسموعة والمرئية. قد تقول انك بكلامك هذا تنسف أعظم التحولات في الفكر البشري وتقفز على الكثير من المراحل والنظريات والأطروحات التي غيرت وجه العالم، وأن قصور فهمك هذا لايبتعد كثيرا عن فهم البرابرة المتوحشين، أما أنا فأقول لك بأن عصور ماقبل التاريخ لن تتشرف وترتبط – قبائلا وأفرادا – بمبادئ هذه الأيام التي تقوم على مصادرة أبسط حقوق الآخر وبذرائع واهية، تلك العصور السحيقة التي لم يكن لديها كاتم صوت يبيح لها ألا تطلق صوتك أو صرختك في العراء نتيجة لإحساسك بالألم أو الضيق أو أي شيء آخر تشعر به، فلتلقي نظرة عابرة على ما يسمى مدنا ... انظر لوجوه الناس المحبطة الخائفة والمخيفة في ذات الوقت والتي تسعى لتأمين سقف لها يقيها غائلة الموت أو المرض، وستعرف أية معادلة مخزية ستحصل عليها، وأية حماقة يرتكبها أهل المدن مع أنفسهم كما مع الآخرين، لذا فأن قسوتي وتمردي على ما اعتاد عليه واعتد به الآخرون له مايبرره، لأنني معني بالنتائج والنهايات لاأكثر، ولست معنيا بتقديم التبريرات. فلنعد مرة أخرى إلى صميم فعلتي التي ارتكبتها مع أقرب الناس لي وستعرف أية وسائل للمخاتلة والخديعة يمتلكها أهل المدن. دعني أستحضر مافي ذاكرتي المشوشة علّي أتذكر ماحدث ..ها .. كنت ليلتها .. حسنا كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل أو أكثر بقليل وكنت في قطار .. لا .. أذكر إنني نزلت في محطة .. أجل .. المحطة الأخيرة، اقترب مني رجل عجوز حاول أن ينتزع الحقيبة الجلدية الصغيرة التي كنت أعلقها على كتفي، نهرته بعنف، تعجب الرجل وقال: انها مهنتي وأنا هنا لمساعدة المسافرين، ألم تر بذلتي وهذا النوط على صدري، قال ذلك وحاول أن يبتسم، كان معتدا بنفسه بعض الشيء ... حسنا .. قلت في نفسي بعد أن وجهت له لطمه أدارت رأسه دورة كاملة ثم صرخت به: من ذا الذي دعاك لخدمتي، هيا اغرب عن وجهي أيها العجوز الأخرق، انظر لنفسك ألا تدري بأنك ستودع الحياة أخيرا، وكل شيء سيمضي مثل القطار الذي يعوى، ألا تسمعه وهو يغادر أيها الخرف، انظر لنفسك، انه يمضي الى محطات بعيدة ولن يتوقف أبدا .. أبدا. كان العجوز قد مسح دمعة تترقرق ووقف صامتا وهو يهمهم مع نفسه بكلمات غير واضحة ثم استدار وخطى خطوات لايلوي على شيء حتى غيبته الظلمات بين عربات الحمل المتروكة، لربما ظنني مجنونا، ليكن، ولكنها ليست ذات الحكاية التي تتعلق بأقرب الناس لي، فرجل المحطة مجرد عابر وهمي في ذاكرة شائخة وما أكثر العابرين القساة، من الذين لا يتركون إلا الجراح الغائرة في الصميم، دون أن ينتبهوا أو يأسفوا على ماخلفوه ورائهم، وما قساوتي إلا لأنني أريد تحقيق ذاتي وما تصبوا اليه، وما مطلبي في هذه الدنيا الفانية إلا بضعة خيارات متواضعة أفنيت عمري كي أحقق النزر اليسير منها دون جدوى، فطالما كنت – وأنا في خضم تحقيق ذاتي – أصطدم بأناس جشعين أكثر قساوة مما يتخيله عقل، كما أن عطالتي الدائمة – رغم

مؤهلاتي التي لايستهان بها – هي التي دعتني لابتكار هذه الطرق المخاتلة عند مواجهتي للآخر والتي قد تكون غريبة بعض الشيء، فمثلا حين أجلس في مقهى وأنادي النادل عدة مرات لكي يجلب لي قدحا من الماء وأنا في ذروة العطش ولايستجيب لندائي، يسمعني ولا يعرني أدنى اهتمام، لحظتها لا أملك إلا أن أمد يدا بحركة رشيقة وأدفع مطفأة السجائر الزجاجية من على الطاولة للتتهشم مزقا، وكأن العملية تمت بقضاء وقدر، فما أسرع ان تجده فوق رأسك ليلبي الطلب. فلو كان استجاب لك لما استخدمت تلك الوسيلة الشيطانية للوصول إلى هدفك. هل تعي ما اعنيه، حسنا، لنعد إلى موضوعنا الأساس بعد ان نشطت ذاكرتي وسوف تسعفني بتذكر أدق التفاصيل بما يتعلق بفعلتي مع أقربهم لي. اذكر إننا وصلنا إلى المحطة، حين توارى العجوز في الظلام. حملت حقيبتي وغادرت المحطة. صادفت في الطريق – قبل وصولي الشارع – كلبا رماديا ضخما. توقفت خائفا. حاولت ان ألاطفه صفرت من بين شفتي وأصدرت صوتا من الوسطى والإبهام ففوجئت به يقترب مني. بل راح يتذلل وهويمسح فروته بأسفل بنطالي. فما كان مني الا ان أعالجه بضربة مباغتة بمقدمة حذائي المتهريء. رفسته في خاصرته فعوى وتلاشى في الظلام. عبرت الساحة. توقفت عند رصيف الشارع. لوّحت بيدي فتوقفت سيارة أجرة صغيرة. كان لونها رصاصيا لم أكن أتبينها من بين الضباب لولا ضياء المصابيح التي كانت تنبعث منها، سألت صاحبها عن المنطقة التي أسكن فيها تردد بادئ الأمر ولكنه استجاب أخيرا وقال اصعد فصعدت. نظرت عبر الزجاج، كان الضباب يغمر المدينة ويجعل الرؤية أشد صعوبة وأكثر شبحية مما هي عليه. كانت الساعة في حدود الـ ..... سألت السائق، لم يجب، كان يتثائب فعرفت ان الفجر يقترب. لحظتها راودتني رغبة عارمة بتوجيه لطمة متميزة إلى رقبته الغليظة إلا انني أحجمت عن ذلك اخيرا. لاننا كنا قد وصلنا. ترجلت من السيارة بعد ان انقدته اجرته. مررت عبر أزقة موحلة وارتقيت عدة سلالم في النزل العمودي بطوابقه السبعة التي يغمرها الضباب، وصلت الى غرفتي وأنا ألهث، اقتربت من الباب كان مفتوحا هو الآخر فيما رجل قد تعدى عقده الخامس يجلس الى طاولتي المستديرة ويخربش شيئا ما، كان يكتب تحت ضوء مصباح شحيح، سألت متعجبا .. من أنت.!! كانت ملامحه نسخة عني غير انها شاخت كثيرا، فبدت صورته من بين الضباب قاسية التقاطيع، مخيفة، ولكن كيف حصل هذا اللبس، أأخطأت في المجيء، هل أخطأت المكان، كيف يكون ذلك ومن هذا الغريب الذي حل في غرفتي ويجلس جلستي بظهره المحدودب ويتقمص حتى اطراقتي، سألت متعجبا، ودون أن يحرك ساكنا همس بصوت خافت لايكاد يسمع كما لو أن الريح كانت تحمله من النافذة، قال: انني أكتب نفسك .. لا تجزع .. هل وصل خيالك حد الشك بقدراتك الذهنية .!! تقدمت نحوه، مددت يدا مرتعشة، هززتها عدة مرات لأتحقق من وجوده، كان الضباب قد تسرب بموجات ثقيلة عبر النافذة، فاختلطت الظلال، وارتبكت الرؤية، ولاأحد هناك.. لاأحد غيري يطرد الضباب الذي راح يتكاثف على الورقة فتموج الكلمات، فيما

يدي تهتز فوقها، ما أغرب مايحدث. تساءلت في فراغ الغرفة، ما أوحش ألا ينتظرك أو تنتظر أحدا، وحدك في ظلال راعشة، باردة، باردة، باردة، مثل ذؤابة شمعة راجفة قرب شاهدة قبر، لايسمعك أحد ولا تسمع سوى تكتكة الساعة الجدارية وعواء قطار بعيد يتلاشى بأقصى المدينة. الهواء راكد ثقيل، الضباب يرسم هالات شبحية حول الموجودات، ولايحدث شيء غير هذا .. لاشيء، أليس هذا أشد وطأة وإرعابا من أي شيء آخر ممكن أن يحدث ، مثلما أن أقسى عقوبة للمرء هو ألا يعاقب، فأن أقسى وأسوأ مايمكن أن يحدث هو ألا يحدث شيء. فلو يحدث أي شيء ويحرك هذا الخمول، هذا الموات البطيء في الوجود، هذا البوم الجريح الذي ينشر جناحيه الخاملين على العالم، ضجرا، مصابا في الصميم، ينقط بوحه ونعيبه على جدران الورق، هذا الغراب الأسحم، الذئب الطائر بجناحين جهنميين ولكن لا.. لاشيء يحدث، سوى أن تجد نفسك وحيدا، مجردا من كل حس وأنت تهوّم في أخيلة، ظلا هائما بين الظلال وعقارب الساعة تسعى لتستهلك مخك ، لقد حلت النهاية وبدأ خرف الشيخوخة يفعل فعلته معي، يزيغ نظراتي ويجعلني أرى خيالات وأوهاما. لكن ترى هل سيغفر أقرب الناس لي فعلتي معه، إذا علم ان ليس في نيتي أن أخدعه، ولكن لا .. لقد خذلته فعلا، يالبؤسي وبؤس العالم من حولي .. لولا العزاء الوحيد المتبقي لي، وهو انني أعرف يقينا انه الوحيد الذي يقرأني الآن من وراء ملايين الجدران ويفهم عزلتي السحيقة الخانقة، وليس ثمة موانع أو مصدات بيننا، انه سيعذرني بكل تأكيد، وها أنا أبرق إليه وفي القلب غصة من ألا أملك ما أهبه له غير هذه النهاية التي لايحدث فيها شيء وهذا الشطط الطفولي البريء، الذي هو سلوتي الوحيدة، حصانتي التي تحميني من العته والجنون، ومن ثم أفقد صلتي المقدسة معه وهوالذي لو حل مكاني وتذوق حجم الفراغ والوحشة لعذر فعلتي ولتسلح بالجرأة والبأس وحطم تلك الساعة الجدارية وسحق عقاربها التي تنخر الأعصاب .. ولعلم انني رهين الوحدة والسأم، وانني لم أهش ذبابة تطن قرب أذني أو أطرد بعوضة من على ساعدي وأنا أعرف انها ستمتص كفايتها من دمي، لكنها امنيات عجوز شارف على الخرف ولايملك من حطام الدنيا سوى بضع وريقات يزحف الجدب إليها. وكلمات مناورة يؤنس بها وحدته ويطرد بها الوحشة من حوله ... فالكتابة هوّس، هروب من عالم وحشي نحو بياضات آسرة لاقصدية وراءها، نحو افتراضات لاتحصى، مفازات من التيه والفخاخ، براكين تتصاعد من فوهاتها حمم من أخيلة لايعرفها إلا من اكتوى بنيرانها، ولاخيار أمام من يتعاطاها .. فأما أن يكتب نفسه أو يقتل نفسه، وفي الحالتين يكون قد ارتكب إثم الفعل والمكاشفة في عالم يحدث فيه كل شيء بعيدا عن هذه السطور البريئة التي لاتعني أي شيء.

مسرحية

الرحلة 2000 - مسرحية من فصل واحد

اطياف رشيد

أطياف رشيد مواليد بغداد ١٩٦٩ بكالوريوس أكاديمية الفنون الجميلة ـ قسم الفنون المسرحية عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق لها مجموعه شعرية بعنوان لا املك اجنحه.. لكنني احلم، شاركت بمهرجانات ادبية داخل العراق، تكتب في النقد المسرحي ونشرت في هذا المجال عدد من المقالات في الصحف المحلية والعربية وفي مواقع أدبية على الانترنت، كما نشرت العديد من القصائد في الصحف المحلية والعربية على الانترنت.

الشخصيات: الاول والثاني رجلين في منتصف العمر

المكان: على متن طائرة

الزمان: وقت ما

الاول – كم مضى من الوقت برأيك؟

الثاني – لقد مضى خمس دقائق .. تقريبا

الأول – حقا .. اشعر انه قد مر وقت طويل

الثاني – حقا، انه وقت ثقيل

الأول – نعم وقت طويل جدا، رغم إننا تحدثنا كثيرا، أليس كذلك؟

الثاني – ربما

الأول – لقد تحدثنا عني

الثاني – (صمت)

الأول – وحدثتك عن حلمي المزعج ليلة أمس. وعن البيت ... آه البيت على الرغم من انه أصبح متداعيا ومنهارا.. غير انه بيتي على كل حال

(صمت)

الأول – تكلمنا عن الحرب أيضا، هل تكلمنا عن الحرب؟
الثاني – ربما تكلمنا
الأول – هل كنت جنديا يوما؟
الثاني – أياما .. سنوات
الأول – في اي حرب شاركت الاولى ام الثانيه ام ....
الثاني – (مقاطعا) كلها
الأول – في الشمالية ام الجنوبية ام ..
الثاني – كلها .. كلها
الأول – انا شاركت في واحدة .. وابي شارك في واحدة، واحدة قبلي، وأخي الأصغر ..
الثاني – (مقاطعا) إذن أنت أيضا كلها
الأول – نعم كلها
(صمت)
الاول – هذه طائرة ممتازة
(صمت)
الأول – الأجواء أيضا، مناسبة للطيران
(صمت)
الأول – حينما قررت السفر جعلت من أهم أولوياتي أن أعود يوما
الثاني – ولماذا تسافر إذن
الأول – في الحقيقة أريد أن اعتبرها رحلة لنسيان الأحزان، وربما لتحملها بهدوء، وأنت؟
الثاني – في الحقيقة أريد أن اعتبرها هروبا
الأول – إلى غير رجعة
الثاني – هروب طويل الأمد
الأول – مم هروبك؟
الثاني –(يسرح ببصرة ووجهه نحو النافذة)
(صمت)
الأول – حين بلغ ابني التاسعة ألح علي أن اشتري له حماما
الثاني –(يدير وجهه ويصغي بانتباه)
الأول – لكني جلبت له طيورا .. طيورا صغيرة ملونة، لقد كانت جميلة، علمته كيف يطعمها، كانا زوجين جميلين، أما القفص فصنعته بنفسي .. تعرف عملت في كل شئ، لذا لم يكن من الصعب ان اصنع قفصا لطيرين. جعلته واسعا ليتمكنا من الطيران بحرية، ووضعت له سلالم صغيرة ملونة وكوبي طعام أبيضين ومخدعا..
الثاني – حقا
الأول – نعم مخدع صغير
الثاني – سعد ابنك بهما أليس كذلك ؟
الأول– كان سعيد جدا، وجميل جدا ..كانت له ابتسامة طيبة، كابتسامة امه .. كانا ملاكين
الثاني– كانا؟
الأول – نعم كانا.....(بحزن) كانا وانتهى الأمر
الثاني– هكذا كانا وتركتهم، كيف، أين تركتهم ؟
الاول– في البيت
الثاني– في البيت؟
الأول –(بحزن) تحت البيت
الثاني– تحت البيت؟ كيف؟
الأول– كان البعض ممن حولنا يعتقد إننا نختلف عنهم، وأنهم كانوا يعتقدون، وبسبب اختلافنا، إننا خطيرون بالنسبة لهم، وفجأة ذات يوم (يصدر صوت) بووم، أصبحوا جميعا تحت البيت
الثاني– انهار البيت؟
الأول– فجروا البيت

الثاني- وآنت؟
الأول- لا ادري لماذا بقيت أنا على قيد الحياة.
(صمت)
الأول- الشئ الوحيد الذي بقي من..من كل شئ هو سلالم الطيور
الثاني- (مصدوما) سلالم الطيور. فقط
الأول- (يهز رأسه متألما) فقط
(صمت)
الثاني- (يهم بالكلام لكنه يتراجع)
(صمت)
الثاني- هل كانت سلالم الطيور زرقاء
الأول- نعم
(ينظر احدهما في وجه الأخر)
الأول- كيف عرفت؟
(صمت طويل)
يعم المكان ضباب يصبح كثيفا شيئا فشيئا حتى تغرق الطائرة في الظلام يسمع صوت من داخل الطائرة ينادي: الرجاء وضع حزام الأمان نحن على وشك الهبوط ...شكرا

انتهت

2009

مطبوعات وصلت الينا

- **حكايات سوق/ رواية لشاكر خصباك.**
- **نساء القرى/ رواية لنعيم نصار**
- **الثقافة الاجنبية /العدد الثاني لسنة 2010**
- **مجلة أقلام/ العدد تموز أب أيلول /2010 لسنة 45**
- **قراءات أولى/ مقالات/ جاسم العايف**
- **الاثار المترتبة عن انضمام العراق إلى منظمة التجارة العالمية على مستقبل القطاع الزراعي/ د. فاضل جواد دهش/2010**

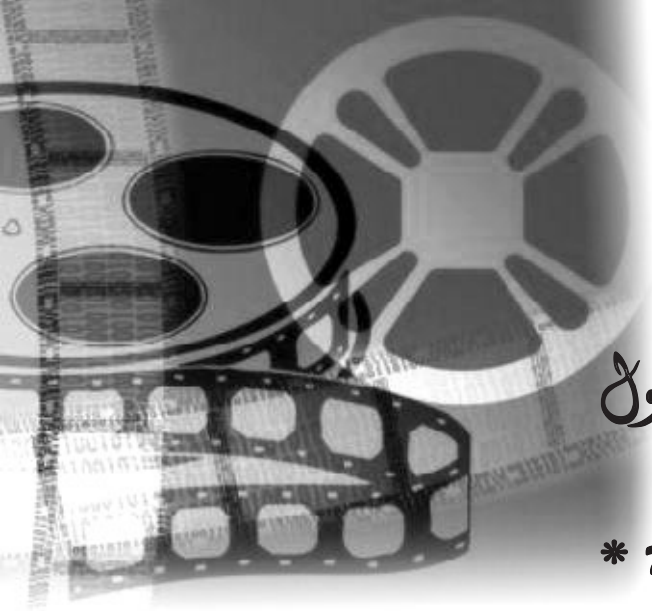

ندوة

قاسم حول يتحدث حول تاريخ السينما العراقية *

بداية لا بد من القول بأن أغلب المثقفين العراقيين الذين أغنوا الثقافة العراقية قد تخرجوا من مدرسة الحزب الشيوعي العراقي أو كانوا قريبين منها أو من أفكارها بشكل أو بآخر . وهذه حقيقة واضحة، ومحاولة تجاوزها كمن يريد أن يغطي نور الشمس بالغربال. قسم من هؤلاء المثقفين نجح في الامتحان بامتياز وقسم آخر رسب في الامتحان وقسم ثالث كان "مكملا" بالتعبير المدرسي فأعاد امتحان الدروس ثانية. ولا بد من القول أيضا بأن بعض الطلبة أمتدت يدهم إلى دفاتر المدرسة وأقلامها أيام عطل الدراسة! وهؤلاء هم الأسوأ لأن دفاتر المدرسة وأقلامها قد دفع ثمنها دماً وليس مالا!

كثيراً ما أغلقت هذه المدرسة ومنعت من ممارسة نشاطاتها التربوية والثقافية. فأدى ذلك إلى تأخر النشاطات الثقافية والتربوية. اليوم يمر العراق في نفق مظلم وصورة الغد هي عندي وحتى انعقاد هذه الندوة في هولندا هي صورة غير واضحة المعالم، لأن المعطيات ليس الآن فقط بل منذ تسلم حزب البعث للسلطة وعمل على تبعيث الثقافة بالإيديولوجيا القومية وحال دون تحررها في آفاق الحياة لتأتي إلى العراق بعد سقوط تجربة البعث عن طريق قوى خارجية محتلة، قوى دينية تعمل وفق إيديولوجيا متأخرة عن العصر وعن التطور. وإذا كانت الحقبة القومية للبعثيين قد أنشأت القاعدة المادية للإنتاج الثقافي ومنها الثقافة السينمائية لتكريسها لصالح الإيديولوجيا القومية وأفكار الحزب الحاكم، فإن الحقبة الراهنة ما بعد الإحتلال ومجيء القوى الدينية قد

هدم تلك القاعدة المادية للإنتاج الثقافي والسينمائي وأبدل الثقافة بالإعلام وثقافة الإعلام المتمثلة بالقنوات الفضائية والمنابر الدينية التي تبث ثقافة التجهيل وأنا خائف من جيل ينقطع عن الجيل الذي سبقه بعد أن ألغى الفكر القومي العلاقة بالتاريخ والحضارة العريقة المتمثلة بالحضارات السومرية والأكدية والبابلية كما الغى الثقافة بمفهومها الإنساني وأعتبر أن أية ثقافة لا تخدم الفكر القومي هي ثقافة مستوردة ودخيلة وحتى وصل الأمر إلى طرح نظرية "علم الجمال البعثي" وهي محاولة للإعتداء على الشروط الموضوعية لقيم الجمال.

موجز عن تاريخ السينما العراقية

السينما العراقية كمشاهدة وحسب ما أرخها الكاتب الراحل أحمد فياض المفرجي دخلت العراق عام 1916.

وكان رواد المسرح الغنائي الذي يطلق عليه "التياترو" من الفئات الثرية في المجتمع العراقي حضروا الفيلم وكانوا مصرين على الجلوس في المقاعد الأمامية لأنهم في "المسرح – التياترو" كانوا يتصدرون صالة الملهى فرفضوا أن يجلسوا في المقاعد الخلفية عندما حاول أصحاب الصالة إقناعهم بأن مشاهدة الفيلم السينمائي تختلف عن مشاهدة المسرح وعليهم الجلوس في المقاعد الخلفية كي يشاهدوا الفيلم السينمائي عن بعد.

أما السينما كإنتاج فلم تبدأ ألا في فترة الأربعينات بإنتاجات مشتركة مع مصر كان منها فيلم "إبن الشرق" مثل فيه حضيري أبو عزيز وفيلم "القاهرة – بغداد" الفيلمان غير موجودين في المكتبات الأرشيفية العراقية وأنا لم أشاهدهما وهو أمر يحزنني كثيراً وأحاول أن أجد لهما أثراً سواء في مصر أو في العراق وعن طريق عائلة الممثل الفلسطيني المرحوم "بدر لاما" الذي كان له دور في إنتاج فيلم القاهرة – بغداد والذي عمل في السينما المصرية.

ثم توقفت الإنتاجات المشتركة وبدأت الرغبة تساور الذين عملوا في مثل هذه الأفلام في إنتاج الأفلام السينمائية ولكن السينما تحتاج إلى مال، تحتاج إلى رأسمال، فهي ليست لوحة زيتية ولا هي رواية أو قصيدة شعر. هي سينما تحتاج إلى مصورين ومهندسي صوت وأفلام خام وأجهزة إنارة وممثلين وأقامة وطعام للممثلين ومونتاج وموسيقى وإظهار وطباعة وأفيشات سينمائية .. السينما تحتاج إلى مال ورأسمال.

في بداية نشأة هوليوود إتخذ مؤتمر بال المنعقد في سويسرا بقيادة هرتزل لإقامة وطن قومي لليهود، إتخذوا قرارا بإستثمار الصورة المتحركة لصالح فكرة أقامة الوطن القومي لليهود معتبرين أن هذا الإختراع الجديد سيكون له تأثير كبير على سيكولوجية الناس، فأوعزوا إلى المصارف لتأسيس شركات الإنتاج السينمائي التي كانت شركة مترو جولدين ماير وهي لثلاثة من كبار الرأسماليين اليهود ميترو وجولدين ومائير وسميت الشركة بأسمائهم ثم تطورت فكرة سينما "غابة أشجار الهولي – هوليوود" وأصبحت مدينة عامرة للسينما وتأسست بعد شركة "مترو جولدين ماير" شركات عدة منها "يونايتد أرتست، كولومبيا، فوكس القرن العشرين، بارمونت" وفي مصر أدرك رجل الأعمال المصري

"طلعت حرب باشا" رئيس مجلس إدارة بنك مصر أهمية السينما على مستوى الإستثمار المصرفي فقرر تكريس السيولة النقدية لبنك مصر للأستثمار في مجال السينما، فأنشأ ستوديو مصر الذي ساهم في أنتاج أهم الأفلام المصرية وقام بتطوير القاعدة المادية للإنتاج السينمائي. أما في العراق فإن المصارف لم تستخدم سيولتها النقدية في مجال الثقافة، بل إستثمرتها في مجال التسليف التجاري والإستيراد، وكان مصرف الرهون هو الفرصة الوحيدة التي إستطاع هواة السينما الإستفادة منها وكان يمنح خمسمائة دينار عراقي فقط عندما يتم تصوير الفيلم فيقوم برهن السالب مقابل هذا المبلغ. لكن ما حصل في السينما العراقية قد جاء بسبب فيلم "عنتر وعبله" للمخرج "نيازي مصطفى" فبعد أن تم إستيراد هذا الفيلم ليعرض في العراق فوجئ مستوردو الأفلام بالمدة التي إستمر فيها عرض الفيلم حيث أن أكثر مدة يستغرقها عرض الفيلم في العاصمة العراقية وبعض المدن الكبيرة مثل البصرة والموصل هي أسبوعان، فيما إستغرق عرض فيلم عنتر وعبلة حوالي تسعة شهور في العاصمة بغداد وحوالي ستة شهور في مدينة البصرة وكان الناس يشاهدون الفيلم مرات ومرات وحفظوا أغاني الفيلم. مثل في الفيلم سراج منير وكوكا – زوجة المخرج.

الوارادت التي جاء بها "عنتر وعبله" أغرت بعض التجار اليهود الذين فكروا بإنشاء ستوديو سينمائي أطلقوا عليه إسم "ستوديو بغداد" وكانوا قد أسسوا شركة أطلقوا عليها إسم "شركة بغداد لإنتاج الأفلام السينمائية"" وأستوردوا كافة المتطلبات التقنية الحديثة من مخابر الإظهار والطبع وأجهزة الصوت المتزامنة مع الصورة لتسجيل الصوت المباشر وأجهزة المونتاج "المافيولا" وكل ما يتطلبه الإنتاج السينمائي. وبعد أن تم تأسيس الأستوديو وبعد النجاح الذي حققه فيلم "عنتر وعبلة" على مستوى واردات شباك التذاكر قرروا أن ينتجوا قصة حب على غرار أسماء الحب المزدوجة "روميو وجوليت، قيس وليلى، يوسف وزليخة، عنتر وعبلة، طاهر وزهرة، وفيما بعد فتنة وحسن وعفره وبدر .. إلى آخر قصص الحب المعروفة" وكانت ثمة قصة حب بدوية نشأت في بلاد الشام دونها الشاعر قيصر المعلوف شعراً عنوانها "عليا وعصام" فتقرر تحويلها إلى فيلم سينمائي. القصيدة تقول:

"رلى" عرب قصورهم الخيام
ومنزلهم حماة والشآم
إذا ضاقت بهم أرجاء أرض
يطيب بغيرها لهم المقام
غزاة ينشدون الرزق دوما
على صهوات خيل لا تضام
غرامهم مطاردة الأعادي
وعزهم الأسنة والسهام
إذا ركبت رجالهم لغزو
نما في رهطهم بطل همام
ولا يبقى من الفرسان إلا
عجايا الربع والولد الفطام
وكانت من عجايا الربع عليا
ومن عجيانه النجبا عصام
لقد نشأوا رعاة للمواشي
كما ينشأ من العرب الغلام
هناك على الورى عقدا الأيادي
وعاقد حبل قلبهما الغرام

ولما أصبحت عليا فتاة
يليق بها التحجب واللثام
وصار عصام ذا زند شديد
يهز به المهند والحسام
دعته أمه يوما إليها
وقالت يا حسامي يا عصام
لقد أصبحت ذا رأي سديد
به يستأنس الجيش الهمام
بثأر أبيك خذ من قاتليه
وإلا عابك العرب الكرام
فصاح وهل أبي قد مات قتلا
وأنى يقتل البطل الهمام
بحق المصطفى ما ذقت عيشا
إذا عاشت أعادينا اللئام
ألا سمي لي الأعداء حالاً
فما للصبر من قلبي مقام
أبو عليا الغريم بني فأنهض
فهذا الدرع درعك والحسام
فحل عصام مهرته سريعا
وسار وسحب مدمعه سجام
هنالك إلتقى الخصمان حتى
على رأسيهما عقد القتام
عصام أرسل الطعنات تترى
فقدت من مبارزه العظام
وعاد لأمه جذلا طروباً
وقال لها إبشري قضي المرام
وبينا هما بضحك إذ بعليا
وقد أدمى مباسمها اللطام
فصاحت يا عصام أبي قتيل
ألا فأثأر لعليا يا عصام
فقال لها أبشري عليا فإني
لأهل العهد في الدنيا إمام
لسوف ترين قاتله قتيلا
وأصغت ما أتم لها الكلام
ولما شاهدت عليا هواها
قتيلا يستقي دمه الرغام
نضت من صدره الهندي حالا
وقالت لا تمت قبلي عصام
وأغمدت الحسام في حشاها وقالت
على الدنيا ومن فيها السلام

لقد كتب لهذه القصة السيناريو أحد مساهمي، الأستوديو"أنور شاؤول" وهو لا يملك خبرة كتابة سيناريو حيث كتب القصة والأحداث ما يشبه التمثيلية الإذاعية البسيطة، ولكن يتبادر إلى الذهن سؤال هام وهو إننا في العراق نتعامل دائما مع بريطانيا بإعتبارها الدولة المعنية بشؤوننا كدولة مستعمرة تماما، مثل ما يتعامل أهل المغرب وأهل أفريقيا السوداء مع الدولة الفرنسية كدولة مستعمرة، إلا أن أصحاب ستوديو بغداد ذهبوا إلى فرنسا بدلا من بريطانيا وتعاقدوا مع المخرج "أندريه شوتان" والمصور "جاك لامار" لتصوير وإخراج فيلم "عليا وعصام". ليس عندي تفسير سوى وجود توجيهات للتعامل مع هذين الشخصين وإلا كيف يستدل عليهما "أنور شاؤول" وهو ليس سينمائيا بل مجرد تاجر.

المهم تم تصوير الفيلم وإخراجه ولعب فيه "إبراهيم جلال وعزيمة توفيق وهي مطربة عراقية وكذلك عدد من الممثلين منهم الإذاعي عبد اللّه العزاوي والسينمائي يحيى فائق وعدد من محبي السينما".

وما أطلق عليه عام النكبة عام 1948 والتحقيق الذي جرى مع اليهود في العراق والمنطقة العربية تم العثور على رسالة موجهة من الحاخام "زيون ماير هاي عزرائيل" إلى جميع أبناء إسرائيل في

الشرق. وجاء في الرسالة " يهمنا أن تعلموا الآن أن مركز دعايتنا في العراق هو أستوديو العراق للأفلام خاصة سوادي أخوان. فعليكم مراجعة هؤلاء والإتصال بهم في كل ما يتعلق بمثلنا الأعلى" وقد وجدها الباحث الراحل أحمد فياض ألمفرجي منشورة في جريدة اليقظة في عددها بتاريخ 27 أيلول 1948، على أثر هذه الرسالة تم غلق ستوديو بغداد وتم تسفير اليهود وقد تزامن العثور على هذه الرسالة مع حملة صحفية كانت تنشر في الصحف اللبنانية ضد ستوديو بغداد باعتباره ستوديو يهودي للتجسس وهو موجود قريب من معسكر الرشيد لهذا الغرض. وقد بيعت على أثر ذلك معدات الأستوديو.

حارس الأستوديو "هاماز" الذي كانوا يسمونه "عمو حمزة" أشترى ماكنة التحميض والطبع وكان هو يحرس ليلا وينام في الأستوديو وفي النهار يساعدهم في التحميض وقد تعلم المهنة مع فارق تقني! فهو بدلا من أن يرى كثافة الأحماض عبر المقياس الترمومتر فإنه يعرف كثافة الحمض بلسانة. كان يذوق نقطة أو أقل بلسانه ثم بدأ يعمل هكذا في ستوديو أنشأه في الطريق بين العاصمة بغداد وبغداد الجديدة. المصور "نهاد علي" إشترى كاميرا سينمائية وجهاز مونتاج سينمائي –المافيولا – مع بعض معدات الإنارة. مهندس الصوت "داود السامرائي" إشترى مازج الصوت والميكروفونات وبقية أكسسوارات الصوت وبذلك بقيت في العراق القاعدة المادية للإنتاج السينمائي ولكنها موزعة هنا وهناك ما ساعد ذلك على الإستمرار في الإنتاج السينمائي. فأنتجت بعد غلق ستوديو بغداد عدة أفلام منها " فتنة وحسن وفيلم عروس الفرات وإرحموني وعفرة وبدر وفيلم وردة" وأغلبها قصص حب تتسم أحيانا بالميلودراما وأحيانا بالرومانسية الإبداعية، ولكنها ضمن أشكال سينمائية بسيطة، أغلب قصصها عن حب ومنع الأهل والعذال من لقاء الحبيبين، وبعضها عن وقع رجل مرموق في حب غانية في ملهى، موضوعات تشبه الأفلام المصرية المقتبسة هي الأخرى بسذاجة من أفلام المجتمع الأمريكي، أنتجت هذه الأفلام وعرضت في بداية الخمسينات.

يأتي في تلك الفترة مخرجان من أمريكا هما كاميران شفيق حسني وعبد الجبار ولي وقد درسا السينما هناك، ثمة ملاحظة أن كاميران حسني قد رفضته لجنة اختيار ممثلي فيلم عليا وعصام لعدم صلاحيته للتمثيل ما حفزة ذلك على السفر والهجرة لأمريكا ودراسة السينما هناك، وهناك تعرف على زوجته سوزان التي لعبت دور الخرساء في فيلم سعيد أفندي، جاء كاميران حسني وعبد الجبار ولي يحملان حلم السينما الواقعية التي ظهرت في إيطاليا.

دعونا نفسر معنى "السينما الواقعية" حيث يعتقد الكثيرون أنها نظرية فنية سينمائية لها أصولها ومفردات لغتها التعبيرية وهي ليست كذلك!

بعد الحرب العالمية الأولى حصلت في العالم هزة اقتصادية استمرت لأكثر من عشرين عاما بلغت ذروتها في نهاية الثلاثينات. خلقت صراعات بين الدول الكبرى في السيطرة على مواقع الثروات فأفلست الكثير من الشركات ومنها شركات السينما والمنتجون ولم يعد بإمكانهم التصوير داخل مدن السينما وداخل

إستوديوهات وبلاتوهات مدن السينما، لأن أجور هذه الأستوديوهات يشكل نسبة تستنزف ميزانية الإنتاج. فذهب بعض المخرجين والمنتجين للتصوير في الشوارع والأزقة والبيوت. وعندما تم عرض الأفلام شعر الناس بدفء المشاهد وحميميتها وإنتبه النقاد إلى صدق العلاقة بين الفيلم والمتلقي فأطلقوا عليها إسم السينما الواقعية، لكن هذه السينما كانت تفتقر إلى التقنية بسبب ضيق أمكنة التصوير الداخلية. فالغرفة في البيت، والبيت الشعبي بشكل خاص لا تتيح فرصة حركة الكاميرا ولا تتيح الإضاءة الفنية ولا تستوعب أحجامها بعكس البلاتو الذي كان يتيح حركة كرين – رافعة، ومعدات إضاءة متنوعة وكبيرة، ولم تتبلور مفردات لغة التعبير السينمائية ولا قيمها الجمالية حتى ظهرت الواقعية الجديدة التي أضفت على الواقعية معنى جماليا وتمت دراسة نقاط ضعف السينما الواقعية وما أطلق عليها الواقعية الإيطالية.

اليسار الإيطالي والحزب الشيوعي الإيطالي الذي كان له رصيد كبير ومتوهج في الشارع الإيطالي وهو يمتلك المشروعات الثقافية ويمتلك دوراً للسينما، بارك وتبنى ودعم هذا الاتجاه الذي يعتبره هو الاتجاه السليم في الثقافة السينمائية. لذلك عندما عاد كاميران حسني وعبد الجبار ولي إلى العراق وهما يحملان حلم الواقعية فإن اليسار والحزب الشيوعي العراقي الذي كان هو الآخر في بداية الخمسينات يمتلك الشارع السياسي والثقافي بارك ذلك الحلم ودعمه معنويا وإعلاميا. حينها لم يكن الحزب الشيوعي العراقي يفكر كثيرا في المشاريع التي تعود عليه بالمال سوى محاولة في إنشاء دار نشر حققت أرباحا ممتازة في العراق ولكن الذي سجلت بإسمه تلك الدار وبعد أن أغتنت ترك مدرسته السياسية "الحزب الشيوعي" وإستولى على المال. كان ذلك في بداية الستينات وهي دار النور، فإقتصر الدعم معنويا وإعلاميا للسينمائيين الإثنين اللذين جاءا يحملان حلم السينما الواقعية في العراق.

عبد الجبار ولي أنشأ "شركة سومر" وهي شركة مساهمة كان سعر السهم عشرة دنانير عراقية وعمل مسابقة لكتابة قصة سينمائية فاز فيها الكاتب "أدمون صبري" عنوانها "من المسؤول" وكان يخاف من المغامرة مع مصور عراقي ليست لديه خبرة فيما كان في العراق مصورون جيدون منهم ألبرتو ونهاد علي ووليم سايمون وماجد كامل وغيرهم فإستدعى مصورا من الهند هو "دي فيجا" وصور الفيلم وتم بتحميض الفيلم وطباعته في ستوديو "هاماز" ولم تكتمل بعد خبرة هاماز في تحميض الأفلام التي يذوق أحماضها بلسانه حقا. وبشكل خاص تحميض الصوت الضوئي فجاء الفيلم بصورة سينمائية غير نظامية ولكن الخطأ الكبير الذي وقع فيه وهو صاحب فكرة الإلتزام بالواقعية، إنه ذهب وبنى ديكورات البيوت داخل بلاتو ستوديو بغداد المهجور في وقت لم تكن لدى بناة الديكورات خبرة في بناء الديكور السينمائي الذي ينبغي أن يكون مطابقا لمواصفات الواقع فجاء الفيلم غير مكتمل للشروط القياسية الطبيعية للفيلم السينمائي وفقد تأثيره على الجمهور وخسر الفيلم إنتاجيا.

في المقابل نجح كاميران حسني في إختيار قصة " شجار" لأدمون صبري أيضا

وإختار حارة "الحيدرخانة" لتصوير فيلمه الذي أسماه "سعيد أفندي" وأعطى بطولة الفيلم إلى يوسف العاني وزينب ومعهما جعفر السعدي وعبد الواحد طه وكلهم أسماء كان الجمهور يحبهم من خلال التمثيليات الإنتقادية التي كانوا يقدمونها على المسرح ضد السلطة الملكية وكان لهم جمهور واسع يحبهم زاد في ذلك إنتمائهم لليسار العراقي وللحزب الشيوعي العراقي. وتم تحميض الفيلم في ستوديو هاماز ولكن تم طبعه في لندن في بريطانيا صورة وصوتا، فجاء الفيلم بصورة جميلة وصوت واضح ونقي. كل تلك العوامل ساهمت في نجاح الفيلم نجاحا جماهيريا. وصار الجمهور يروي حكايات تتعلق بالرقابة انها حذفت مشاهد إنتقادية من الفيلم كثيرة وصار يخلق حكايات وحوارات محذوفة وهي غير موجودة أصلا لا في القصة ولا في الفيلم لإضفاء أهمية سياسية على فيلم "سعيد أفندي" وهو قصة إجتماعية بسيطة ولكن محببة وفي حارة شعبية وبممثلين محبوبين وأشكالهم شعبية حقيقية قريبة من الروح العراقية فلامس الفيلم منهج الواقعية في السينما الإيطالية.

حقق فيلم سعيد أفندي أرباحا جيدة للمنتج وهو نفسه مخرج الفيلم وله الحصة الأكبر في الإنتاج فأنشأ مطعم "علي شيش" للدجاج المشوي في ساحة الزهور في شارع السعدون وحقق المطعم أرباحا تفوق أرباح فيلم سعيد أفندي بعشرات أو مئات المرات وبجزء من أرباح المطعم وكان هذا هو هدف المخرج كما يقول هو الحصول على مال يساعده في الإنتاج السينمائي، فأنتج فيلما كوميديا عنوانه "مشروع زواج" إعتمد فرقة الزبانية التي يترأسها الحاج ناجي الراوي ومعه حميد المحل مع ممثلين من معهد الفنون لكن الفيلم أخفق في تغطية حتى كلفته الإنتاجية. وعمل يوسف العاني وجماعة المسرح الحديث على إنتاج فيلم يحمل عنوان " أبو هيله" مأخوذ من مسرحية "تؤمر بيك" ليوسف العاني نفسه، وهي تمثيلية قصيرة تم تحويلها إلى قصة سينمائية وفشل الفيلم هو الآخر ولم يسدد كلفته الإنتاجية. كل ذلك يعكس أن لنجاح التجربة السينمائية والفيلم السينمائي شروطاً موضوعية واقعية عدم إستكمالها يؤدي إلى فشل الفيلم وفشل التجربة والسينما، فخسارته المادية تسبب إحباطا للمخرج والمنتج والعاملين وتؤثران سلبا على عموم العملية السينمائية.

كل هذه الأفلام صورت بالأسود والأبيض ولم ينتج فيلم بالألوان.

أصحاب دور السينما إستهوتهم عملية الإنتاج فأسسوا "شركة شهرزاد للأفلام الملونة" كانوا يريدون إستمالة الجمهور بأفلام عراقية ملونة تعكس الواقع العراقي بالألوان. وقرروا إنتاج أول فيلم عراقي بالألوان ولكن الخطأ أنهم إختاروا موضوعا تاريخيا معقدا وصعبا وهو فيلم عن بابل وشخصية نبوخذ نصر بعنوان "نبوخذ نصر" ووضعوا ميزانية مقدارها أربعين ألف دينار وهو رقم يعتبر نسبيا في مجال السينما العراقية رقما كبيراً ما يعادل في ذلك الوقت120 ألف دولار، لكنه لا يشكل شيئا يذكر لإنتاج فيلم تاريخي عن الشخصية العراقية التاريخية "نبوخذ نصر" والحروب التي خاضها مع "ميردوخ بلادن" لكن الفيلم لم يكتمل تصويره وتوقف العمل

فيه ثم أعادوا إنجازه بعد ثورة الرابع عشر من تموز. إن توقف إنتاج أي فيلم لفترة طويلة هو نهاية الفيلم لأن أشكال الممثلين تتغير وأجواء التصوير تتغير وما يطلق عليه الإستمرارية الشعورية تتغير، لذلك فشل الفيلم فنيا وتجاريا مع أن مخرجه يتمتع بموهبة ممتازة وإختصاصاته الفنية متنوعة ودراسته شملت السينما وعلم النفس والموسيقى وهو مخرج أنيق السلوك، هو الفنان الراحل "كامل العزاوي" في تلك الفترة حاول "عبد الجبار ولي" إخراج فيلم عن مشاكل الجيل الجديد ممثلا بطلبة الجامعات وكتب قصة وسيناريو عن عالم الطلبة والمشاكل الإجتماعية بعنوان "أبناء الجيل" لكنه شعر بالغرق في عالم يصعب الوصول به إلى النهاية، فذهب إلى الأهوار وأخرج فيلم "نعيمة" وهو قصة حب تشبه كثيرا قصص الحب في الأفلام.

من الواضح أن ثمة عاملين جعلا من تجربة السينما العراقية أفلاما بسيطة وهي تفتقر إلى المنهج. العامل الأول غياب المال والقاعدة المادية للإنتاج السينمائي وثانيهما ضعف السيناريو وعدم توفر الخبرة في كتابة السيناريو السينمائي.

السينما بعد ثورة الرابع عشر من تموز – 1958

بعد ثورة الرابع عشر من تموز عام 1958 أغلقت شركة نفط العراق قسم السينما وإنتقل موظفو هذا القسم إلى ما أطلق عليه مصلحة السينما والمسرح، التي تم تجهيزها ببعض المعدات السينمائية وفي المقدمة منها جهاز لم يكن يمتلكه العديد من مؤسسات السينما في العالم وتحلم بإمتلاكه مؤسسات السينما العربية وهو جهاز "ألأوكزبري" الذي تم تطويره الآن كومبيوتريا. وكان هذا الجهاز يقوم بكل العمليات الفنية التي تحتاجها السينما.

تم إستيراده من أمريكا، لكن مصلحة السينما والمسرح لم تضع منهجا للسينما بل إقتصرت نشاطاتها على إنتاج الجريدة السينمائية الناطقة، التي كانت تسجل أحداث وتطورات العراق السياسية والإجتماعية والثقافية.

لم تكتمل فرحة العراقيين بثورة تموز عندما حولها الإنقلابيون المغامرون والمرتبطون خارجيا إلى فيلم بالأسود والأسود في شباط من عام 1963، فأغلقوا كل ما له علاقة بالثقافة وإعتقلوا المثقفين، وأنتجوا فيلمين الأول "حمامات الدم" الذي عرضوا فيه دور الشيوعيين في عمليات السحل في كركوك وأدخلوا في الفيلم لقطات مزورة لقتلى جزائريين مشوهين على أساس هم ضحايا العنف الشيوعي في كركوك والثاني فيلم روائي عنوانه جسر الأحرار وهو فيلم ساذج فنيا وفكريا.

بعد الإنقلاب تمكنت أنا من الوصول إلى النمسا عن طريق تركيا وبعد سقوط الإنقلابيين الذين دام بقاؤهم في السلطة تسعة شهور عدت إلى العراق وقمت بتأسيس شركة سينمائية أطلقت عليها إسم "أفلام اليوم" وأصدرت مجلة سينمائية هي مجلة السينما اليوم وشكلت فرقة مسرحية هي فرقة مسرح اليوم.

وكتبت قصة فيلم "الحارس" وإجتمعنا في منزل الممثل مكي البدري وقررنا أن نختار الفنان خليل شوقي مخرجا للفيلم.

شكل فيلم الحارس إشارة هامة في

تاريخ السينما العراقية وحاز على الجائزة الفضية في مهرجان قرطاج السينمائي عام 1968 وكانت الجائزة الذهبية قد حجبت فكان فيلم "الحارس" فائزا بالمرتبة الأولى وهي أول جائزة سينمائية يحصل عليها العراق في تاريخه السينمائي.

إنقلاب السابع عشر من تموز – 1968

عاد إنقلابيو شباط 1963 بقناع جديد وبأسلوب جديد مستفيدين من تجربتهم الأولى فعلى المستوى السياسي قاموا بالمصالحة الوطنية وأسسوا ما سمي بالجبهة الوطنية وعلى المستوى الإقتصادي قاموا بتأميم النفط وأيضا بتأميم "الفرق المسرحية وشركات السينما !!!" وأستولوا على أفلامنا وأصولها المحفوظة في ستوديو هاماز.

فترة النظام الدكتاتوري نجحت في إنشاء القاعدة المادية للإنتاج السينمائي فتم تزويد مؤسسة السينما بأنواع المعدات السينمائية من الكاميرات وأجهزة الصوت والإضاءة وكل ما يحتاجه العمل السينمائي مستفيدين من الثراء والإنتعاش الإقتصادي بعد تأميم النفط. وقد تم إنتاج الكثير من الأفلام التي يمكن تقييمها كل فيلم على إنفراد حسب ظروف إنتاج الفيلم وسنة الإنتاج وطبيعة المخرج، وتحت ضغط التطورات السياسية في نهاية السبعينات غادرت قوى اليسار الوطن وسافر معهم الفنانون من المخرجين والفنيين والممثلين وبقي من لم يتمكن لظروف عائلية أو رومانسية في حب الوطن تشبثوا في تراب الوطن وفضلوا الوطن على وطن المنفى ووطن الهجرة وتحملوا أزاء موقفهم النبيل هذا الكثير من الصعاب وبعضهم فقد حياته فتم إعدام عدد من المثقفين ومنهم "شمس الدين فارس والدكتور راجي والمصور قيس محمد والشاعر رياض البكري والممثل ماهر كاظم .. " وكثيرون تم إعدامهم.

أستعيظ عن الفنانين العراقيين والسينمائيين العراقيين بسينمائيين من مصر وأنتجوا عددا من الأفلام كان منها التجربة لفؤاد التهامي وفيلم عن الآثار العراقية لتوفيق صالح وفيلم القادسية لصلاح أبو سيف وفيلم الأيام الطويلة لتوفيق صالح وأنتجت بميزانيات منفوخة منها فيلم القادسية بميزانية 32 مليون دولار. وفيلم الأيام الطويلة بميزانية مفتوحة لا يحدها رقم وهو عن حياة صدام حسين وهذه أفلام مباشرة ذات أهداف تزور الواقع كما أنتج فيلم عن دور المخابرات العراقية في إستعادة رأس الملك سوناطرق المسروق وجلبه من لبنان بطريقة بوليسية بعنوان "الرأس" من إخراج فيصل الياسري الذي عمل مع عبد الأمير معله مدير مؤسسة السينما العراقية على سحب فيلمي "الأهوار" من المسابقة في مهرجان لايبزغ في ألمانيا الديمقراطية عندما علموا بأنه مرشح للفوز بالجائزة الذهبية!!

سقط النظام الدكتاتوري إلى غير رجعة. ولكن في تقديري إذا كانت المأساة هي سمة ذلك النظام فإننا اليوم نعيش مرحلة المهزلة. وإذا كانت مرحلة الدكتاتورية تتسم بتأميم الثقافة فإن مرحلة ما بعد الدكتاتورية تتسم بإلغاء الثقافة، فتم تهديم صالات السينما العراقية وفي هذا ما يكفي للتعبير عن المستوى غير المتحضر للسلطة الحالية ولواقع الإحتلال.

المرحلة تبدو وكأن العراق صار بلدا يحتقر الثقافة، بالعكس الناس لديها رغبة التحدي، تحدي إمتهان الثقافة من قبل الإيديولوجيا الدينية.

الآن السينما العراقية ليست نهجا، مهما كان شكل ذلك النهج، يعني مثلا في إيران توجد سينما ذات نهج نقول عنه محافظ ولكن هنالك نهج سينمائي. فمرشد الثورة الإسلامية "علي خامنئي" القى محاضرة مطولة في السينما عن العلاقة بين الرواية والفيلم السينمائي وهي محاضرة مهمة وتدلل على متابعة ثقافية حقيقية، ونحن وإن إختلفنا معه إيديولوجيا ولكن لابد من الإعتراف بوجود نهج سينمائي ووجود قاعدة مادية للإنتاج السينمائي، فهناك نظام دعم الإنتاج السينمائي وهناك مؤسسة للسينما وشركة توزيع الأفلام وقد نجحت في توزيع الفيلم الإيراني كما إن هناك مدينة "شرهنك" للسينما وهي مدينة هامة جداً. أما في العراق فالسينما محرمة.

وما الأفلام السينمائية التي تنتج ليست سوى مبادرات شخصية دافعها الإصرار الثقافي والتحدي بالرغم من الظروف الصعبة والمغامرة في الإنتاج. فالسينمائي مستهدف من قبل النهج الديني المتخلف الذي يسود العراق والذي يعمم نهج التجهيل الذي يؤدي إلى محو الهوية الوطنية العراقية من خلال تدمير الثقافة العراقية. ما ينتج الآن من أفلام روائية طويلة أو قصيرة أو وثائقية يندرج ضمن مفهوم المبادرات الفردية أو الإستثناء وهذه المحاولات هي نشاط سينمائي، فالسينما تحتاج إلى قاعدة مادية، تحتاج إلى مدينة سينما، إلى كاميرات، إلى شركة توزيع، وتحتاج إلى قانون ثقافي ينظم العملية الثقافية والسينما قبل ذلك وبعد ذلك تحتاج إلى المال لإنتاج الأفلام مثل ما تعمل أوربا في دعم الإنتاج السينمائي ومثل ما عملت اليونان في بداية زوال الدكتاتورية ومثل ما تعمل إيران اليوم في تقديم الدعم المالي للمخرجين والمنتجين ومثل ما تعمل تونس الآن ضمن قانون السينما في دعم المخرجين والمنتجين. العراقيون يحبون السينما.

لقد صورت بعض مشاهد فيلمي "المغني" في منطقة "أبي الخصيب" وكنت متخوفاً من أن يتعرض لي بعض الإرهابيين وعندي مشاهد فيها ممثلون وممثلات وقد يمنعني الناس من تصوير المشاهد. فأخذت معي فرقة حماية، سيارات مسلحة ولكني طلبت منهم أن يبقوا بعيدا عن المنطقة حتى لا نستفز المواطنين الذين طلبت منهم أن يقفوا بعيداً عن الكاميرا.

عندما كنت أصور في أزقة الحارات إمتثلوا لطلبي وكنت عندما تنجح اللقطة أقول بدلا من كلمة "ستوب" كنت أقول ممتازة ممتازة ممتازة عاش العراق فيهبون في التصفيق ويدخلون بيوتهم وتأتينا قناني الماء البارد وصواني الشاي العراقي ألأنيق والنظيف وأقداح الشاي الأنيقة – الإستكانات الحلوة والإبتسامات الحقيقية والتعبير عن الفرح في أننا نعمل شيئا لهم وعنهم. ثم قبل أن نغادر جاءنا شخص وقد قطف من بستانه "باقات" النعنع والريحان ملفوفة بالسلوفان ووزعها على فريق العمل في فيلم المغني.

بقي أن أقول: كانت عندنا أجمل صالات سينما وكانت تعرض فيها أفلاما تتسم بالحداثة والصالات ممتلئة، وأيضا عندنا

تقاليد للمشاهدة السينمائية.

في مصر يذهب الناس للسينما ويأكلون المكسرات البزر والفستق. وفي أوربا والغرب يذهبون للسينما والفيلم في منتصفه ويستمر عرض الفيلم وتكمل النصف الثاني بمعنى تشاهد الفيلم من منتصفه ثم تكمل العرض الذي يليه وتشاهد القسم الأول أي أنك يمكن أن تشاهد الفيلم بالمقلوب، واليوم تأخرت المشاهدة وصار جمهور الغرب يشاهد الفيلم وفي مسند الكرسي حفرة مفرغة توضع فيها قنينة البيرة ويحلو للبعض أن يشرب البيرة وعندما تفرغ القنينة أو العلبة يرميها على أرض الصالة وتظل تتدحرج بين الكراسي .

في العراق تعرض مقدمات الأفلام. ثم أستراحة لخمسة عشر دقيقة يتناول فيها جمهور المشاهدين المرطبات، ثم تطفأ أضواء الصالة ويسود الظلام ويصمت الجمهور لساعة ونصف أو ساعتين ويخرج سعيداً ولا تسمع لغطا في الصالة ولا أكل مكسرات ولا ضجيج. هناك إحترام لطقوس المشاهدة .. هناك إحترام للسينما.

مرة واحدة خرج الجمهور عن طوره حيث حضرت فيلما في سينما غرناطة عام 1974 في حقبة الدكتاتورية البغيضة عندما عدت للعراق لفترة قصيرة. كان يعرض فيلم وفيه مشهد يكون فيه البطل ضجرا يشعر بالملل وقد جلس مع حبيبته في غابة وإتكأ على جذع شجرة وقال لحبيبته " إنني أشعر بالملل. أتعرفين ما هي أمنيتي؟ سألته ما هي؟ قال لها أمنيتي أن أذهب الآن إلى بلاد ألف ليلة وليلة. أريد ألذهاب إلى بغداد، فصرخ جمهور الصالة وبصوت واحد .. لا تجي!!!

*** في إطار نشاطاتها الثقافية استضافت منظمة الحزب الشيوعي العراقي في هولندا يوم 13 تشرين الثاني (نوفمبر) 2010 السينمائي والكاتب الأستاذ قاسم حول لإلقاء محاضرة حول السينما العراقية. ادار الندوة الدكتور هاشم نعمة الذي قدم الاستاذ حول الى الجمهور مشيرا الى أهمية السينما باعتبارها من الفنون التي تمتلك تأثيراً وفعالية في تشكيل العقل البشري والثقافة الإنسانية بشكل عام.**

القرين في سرديات المهجر
رواية صوت أمي لعبد القادر بنعلي أنموذجا

نجـــــــــاة تمـــيـــم

نجاة تميم أستاذة الأدب الفرنسي. حصلت على ماجستير بالأدب الفرنسي سنة 2006 وماجستير بطرق تدريس اللغة الفرنسية سنة2009 من جامعة لايدن في هولندا وشهادة الدولة ترجمة هنغاري- فرنسي والعكس من معهد اللغات في هنغاريا سنة 1989. صدر لها كتاب باللغة الفرنسية بعنوان "الهويات في صراع". نشرت العديد من المقالات عن السرديات ومراجعات الكتب في الصحف والمجلات العراقية والعربية. وهي ناشطة في الوسط النسائي العراقي والهولندي.

ثيمة القرين، كالعديد من الثيمات الكبيرة في الأدب، ليست بجديدة، لكنها كانت في القرن الثامن عشر، خصوصا، في ألمانيا، من الثيمات المفضلَة والمتداولة في الأدب الرومانسي والأدب ألعجائبي. فعلاقة الإنسان مع "الأنا" وخوفه من الدمار الشامل الذي سيسببه له الموت، تجعله يحاول أن يلغي هذا الخوف بلجوئه إلى سلسلة من الأساطير التي تعتمد على الإيمان بخلوده كما يلجأ إلى "الدين والفن والفلسفة ليقدموا له ما يرضيه ويخفف عنه"(1) وقد يجد ذلك في قرينه.

سبق إن استعملت ثيمة القرين منذ القدم، فنجدها في الديانات البدائية وفي بعض الثقافات الشعبية. أما من الناحية العلمية، فمفردة القرين تطلق على الاضطراب النفسي المصحوب بانفصام الشخصية؛ اضطراب يمكن أن يشمل هلوسات ذاتية أو

هلوسات يكون مصدرها من خارج الجسم أو هلوسات يجهل المريض مصدرها وتُمثل غالبا في شخصية القرين بكل تحولاته. وبشكل عام، فإن ثيمة القرين تقرن بظواهر ثنائية الشخصية (الشزفرينية أو الذهان الهذياني التأويلي).

لغويا، تعني كلمة القرين الصاحب، الشريك أو الشبيه. وقد تستعمل لحد الآن لتفسير ثنائية الشخصية. كما أن تفسيرا آخر متناول على مواقع الإنترنت؛ "الجن الذي يدخل الجسم الآدمي لشيئين ...قد يفيده أو يضره". أما في المعتقدات "البدائية" وثقافات بعض الشعوب، حسب دراسة معمقة للكاتب أوتو غنك، فإن القرين يُجسّد في الظل، خيال الإنسان، الصورة المنعكسة في المرآة، البورتريت، الروح، الصدى، ثنائية الشخصية أو في التوأم.

برزت ثيمة القرين في الأدب، بالأخص، إبان ظهور الرومانسية في القرن الثامن عشر في انجلترا وألمانيا من ثمَ انتقلت بعدئذ إلى فرنسا. فبعد أن عرف القرن التاسع عشر الرواية القوطية، التي تبعتها فيما بعد الحرب العالمية الثانية الرواية السوداء، وأهم كتابها (آن غدكلف 1764–1823) و (هوراس ولبول 1717–1797) والرواية التاريخية للكاتب القبرصي (ولتر سكوت)، شهدت نهاية سنوات 1820 أدبا جديدا يعتمد الخيال ويبحث عن أفق جديد: حيث أتت الرومانسية لتثور على قواعد الأدب الكلاسيكي. فروايات نوفاليس،هوفمان وجون بول وإختندورف في ألمانيا القرن الثامن عشر وروايات فكتور هيغو، ستاندال وموباسون في فرنسا القرن التاسع عشر خير مثال على ذلك. وبشكل مميز برزت ثيمة القرين مع كتاب القرن التاسع عشر (هوفمان، شميزو، بو، موباسون ودويستوفسكي). (2)

كان لصدور كتاب هوفمان (1822–1876) الموسوم "قصص فانتاستيكية"في باريس عام 1822 والذي ينضوي أيضا تحت خانة الأدب العجائبي، صدى وتأثير كبيران على الساحة الأدبية آنذاك. لقد عالج هوفمان ثيمة القرين في أعمال عدة منها: الأميرة برامبيلا، القلب من حجر، اختيار خطيبة، رجل الرمال، حكاية الصورة المنعكسة المفقودة وغيرها من الأعمال. ولا ننسى تأثير روايتي جون بول على هوفمان (1800) اللتين كانتا السباقتين في معالجة ثيمة القرين. Titanو "(1796) Sienbenkâs

جون بول هو أول من أدخل موتيف القرين في الأدب الرومانسي. فالنقطة الرئيسة في روايته (سيبينكاس) تدور حول الالتباس المستمر بين الشخصية الرئيسة "سينبنكاس" وصديقه "ليبغبر" الذي يشبهه تماما ويلاحظ بول أن ليبغبر ينفصل عن جسمه ويوضّح في هذه الرواية أن القرين هو الشخص الذي يرى نفسه. ونفس الفكرة في روايته تحت عنوان تيتان التي تعالج الدمج الكامل للشخصية بحيث: "الأنا يجب أن تصبح الأنت."(3)

أما ثيمة القرين/الظل نجدها حيَة عند الشعراء (كميسو، أندرسن وغوته).(4) فالظل، يقول أَتو غنك، يعني الموت لكنه يعني أيضا الحياة وكلاهما يعتمدان على اعتقاد بدائي، على ثنائية الروح(5). فهناك الروح الفانية والروح الخالدة. تتحدث القصة الموسومة" الظل"1846) للكاتب الدانماركي أندرسون (1805–1875) عن حكاية عالم

يعيش في أحد البلدان الحارة وهناك يفترق عنه ظله، لكن بعد مرور أعوام يصبح الظل رجلا قويا وغنيا، يلتقي بالعالم ويستطيع أن يُسخِّر مالكه الأصلي ويطلب منه أن يتبادلا الأدوار ويصبح خياله. أما في قصة العملاق للكاتب غوته، فظل العملاق يضعف وسط النهار ويكبر ويصبح هائلا أثناء شروق وغروب الشمس بحيث يستطيع سكان ضفتي النهر أن يعبروا النهر ممتطين ظل عنق العملاق. رغم ذلك فالسكان فضلوا استقلالهم عن العملاق وبنوا جسرا. لكن استقلالهم عن العملاق لم يتحقق؛ فكل صباح عندما يفرك العملاق عينيه ليبعد آثار النوم عنه فإن ظل كفيه يُسقط مارة الجسر وحيواناتهم في الماء.

أخذت ثيمة القرين في الأدب صبغة الظل أو بالأحرى خيال الشخص والذي غالبا ما يقرن بالقرين. وهذا الأخير، يمكن أن يُجسد في التوأم كما في رواية دستويفسكي الموسومة القرين (1846) والقصتان الموسومتان بالتوالي الهورْلا (1887) و هو (1883) للكاتب الفرنسي موباسون ورواية جون بول التي تدور حول صراع الأخوين التوأمين. Flegeljahre

قد يفترق القرين الغامض عن الأنا ويصبح مستقلا ويمتهن الظل أو الصورة المنعكسة وقد يبدو كالليم وهو شبيه الشخص تماما؛ من دم ولحم. هذا القرين وذاك قد يلتقيان بشكل غير مألوف وقد يتعارضان في كل شيء. فأول رواية لهوفمان إليكسير الشيطان (1814) اعتمدت تشابها مُشابهاِ بين الراهب (ميداردس) و (الكونت فيكتور)؛ أخوين من نفس الأب دون أن يعلما بذلك. ويعالج هوفمان موضوعا مماثلا في عمل لاحق بعنوان القرين؛ المنافسة أمام نفس المرأة لمراهقين اثنين يتشابهان بشكل لا يمكن التفريق بينهما. قرابة غريبة تجمع الاثنين. فحبهما لنفس الفتاة جعلهما يخوضان مغامرات أكثر جنونا وينتهي بهما المطاف عندما يجدان نفسيهما وجها لوجه أمام الفتاة الشابة ومع ذلك يتركانها بمحض إرادتهما. أما في روايته الهرَ مُور، فإن ثيمة القرين/ الشبيه تتمثل في شخصين يتشابهان كأنهما أخوان؛ (كريسلغ)و (إتلينغر)؛ الأول مرشح للجنون والثاني رسام مجنون فعلاً. (كريسلغ) الذي يرى صورته في الماء يعتقد أنها صورة الرسام المجنون ويذمه. والأغرب من ذلك عندما يعتقد أن "الأنا" يمشي بجانبه فيصيبه الرعب ويهرع إلى المعلم إبراهيم ليطلب منه أن يقتل، طعنا بالسيف، الشخص الذي يلاحقه.

بعد هذا التقديم المكثف حول القرين ومتغيراته، نعود إلى الشخصية الرئيسة المجهولة الاسم في رواية عبد القادر بنعلي بعنوان صوت أمي (6)التي تتضاعف على شكل توأم. فيكون بذلك للسارد/ المصور قرينا على شكل توأم الذي" لا يظهر، ككل مرة، نسخة طبق الأصل للبطل وإنما كنقيضه" في تكوينه الشخصي بالأخص.(7) وقد يقرأ ميشيل جيل شيئا أخر في قصة الكاتب البلجيكي فرانس هيلينس (1879–1881) الموسومة القرين. هذه الأخيرة تتناول ثيمة القرين المنقسم إلى أجناس مختلفة. يحكي السارد قصة صديقه الهولندي من أصل عائلة مخضرمة تعمل في التجارة في جزر الهند الشرقية، المستعمرة الهولندية سابقا واندونيسيا حاليا. كان (هندريكس فان دو كمب) إنسانا حالما،

وديعا، طيبا، يشفق على الفقراء. أرسله أبوه إلى جزر الهند الشرقية لكي يكتسب خبرة في الحياة. وفي طريقه إلى هناك تعرف (هندريكس) على هندي لقنه تعاليم أجداده التي كانت السبب في تغيير حياته. فثابر ودرس هذه التعاليم الهندية. حسب حكاية (هندريكس) للسارد، فإنه بعد محاولات فاشلة وأخرى ناجحة حاول أن يخلق قرينا له. بدأ يرى، شيئا فشيئا، صورة قرينه تتكون كاملة أمامه، من لحم ودم، وتقف على رجليها. لكن الغريب في الأمر أن هذا القرين مجسَد في امرأة. في البداية كان لا يعرف من منهما يمثل حقيقته الطبيعية، القرين/المرأة أم هو؟. مع الوقت تعوَد على وضعيته الجديدة واقتنع أن قرينه هو شريكة حياته التي اختارها. بعد ذلك أصبح (هندريكس) يتمتع بالرجولة والخشونة ونجح في أعماله بعدما كان إنسانا وديعا، رهيف الحس وفاشلا في حياته المهنية. لم يحدث هذا فقط معه فعندما أنجبت له زوجته /القرين طفلا أحس بفقدانه لطفولته فأصبح عنيفا ودمويا مع عماله. فجأة ساءت حالة زوجته / القرين الصحية. لكن بعد وفاتها عاد واكتسب طيبته وأخيرا استرد شخصيته كاملة عندما فقد طفله/القرين. نلاحظ في هذه الرواية أن القرين شهد انقساما إلى ثلاثة أجناس (البطل، المرأة، الطفل) وليس تعدَدا كما في القرين/التوأم مثلا. ويضيف (جون إهرسام وفغونيك) إلى ما كتبه (غويمار) و (ستراغليلي) اللذان يؤكدان أن القرين يحدث بالتعدد أو بالانقسام وأيضا على شكل قرين الهلوسات الذي لا تراه إلا الضحية نفسها التي تعيش دراما تعدد الشخصية(8). وقد يصْدق تودوروف عندما يقول في هذا المجال" بأن تعددية الشخصية هي، حرْفيا، نتيجة حتمية للتنقل بين المادة والروح، فإذا نحن أشخاص متعددة دون ذهنيا فسنصبح كذلك جسديا".

نعود لثيمة القرين/التوأم، ونستشهد بما كتبه أوتو غنك عن موتيف القرين، الذي هو ناتج عن ظاهرة ولادة التوأم. هذا الأخير يجسد وضعية فوق طبيعية. فظهور الإنسان وقرينه يعطي للتوأم سلطة ما فوق طبيعية خاصة عن الحياة والموت، بحيث أن الإنسان يولد ويجلب معه قرينه الخالد. فبعد إتمام المهمة يتحتم على أحدهما الموت؛ فهذا شرط بقاء الآخر في الحياة. هكذا يُعلن في بداية الرواية عن وفاة الأخ التوأم للسارد الرئيس في رواية صوت أمي لعبد القادر بنعلي ويكتشف القارئ لأول وهلة أن عائلة السارد تعاني حزنا شديدا لفراق الأخ/التوأم.

وتبدأ أحداث هذه الرواية على إثر رنة تلفون. فبمجرد أن لمح السارد/المصور، الذي استطاع أن يثبت جدارته ويدخل مجتمع النخبة في هولندا، رقم تلفون أبيه عادت به ذاكرته إلى الوراء تماما كما أعادت حلوى" المادلين" ذاكرة " مرسيل بروست" إلى أيام طفولته ومجريات حياته.

بنية المتن الروائي

تتكون الرواية من46 فصلا. وتتخلل الرواية عشرون مدونة مطبوعة بالخط المائل للأخ التوأم للسارد الرئيس دون عدً الاستهلال الأول للرواية، موزعة بالتساوي بين جزئي الرواية. كل الفصول معنونة وتبدو لأول وهلة وكأنها مستقلة بذاتها منفصلة عن الأحداث لكنها في نفس الوقت مرتبطة بخيوطها المتشابكة مع بعضها.

يمتد السرد على ثلاثة مستويات تتداخل فيما بينها وتعطينا بذلك رواية غير متسلسلة كرونولوجيا:

المستوى الأول ويشمل القصة الآنية: يتصل خلالها الأب بالسارد/المصور يوم عيد الحب 14 فبراير(2008) لكي يبلغه بمرض أمه ورغبتها في تصفح ألبوم الصور. وقد ذهب فعلا لزيارة والديه بعد أيام. وبقي معهم ثلاثة أو أربعة أسابيع، وخلال هذه الفترة فارق والده الحياة بشكل مفاجئ بعد إصابته بمرض السكري وارتفاع ضغط الدم.

المستوى الثاني للسرد هو قصة لقائه بإيفا سواريس (حواء) قبل أربع سنوات من اتصال والده به يوم عيد الحب أي عام 2004.

أما المستوى الثالث للسرد، وهو الأقدم في الزمن، يقص السارد المصور زيارة عائلته للمغرب قبل عشرين سنة وخلالها لقي الأخ التوأم للسارد /المصور حتفه إثر قفزه من صخرة، تسمى صخرة المسيحيين، في البحر.

هدف الرواية

يستهل عبد القادر بنعلي روايته صوت أمي بتمهيد قصير يلمح فيه إلى أحد مواضيع الرواية: خوف الآباء من نسيان أبنائهم لهم في المهجر. ويحذر من "أن غول المهجر ربما يبلعنا كليا بجلدنا وشعْرنا". وقد سبق أن ختم بن جلون روايته الرحيل بأن بلعت الأريكة الشخصية الرئيسة وهو جالس في انتظار أولاده للحاق به بعد عودته إلى الوطن الأم (المغرب).

وقبل هذا التمهيد، استعار بنعلي أحد حكم شارل داروين التي تقول: "لأنه إنسان – إنسان عجيب – هو استثنائي." وهذا يدل على أن الإنسان من طبعه اجتماعي ويمكنه التأقلم مع الوسط الذي يعيش فيه. فبعد هذا المستهل تبدأ الرواية بالفعل ببدايتين تماما كما نلاحظ عند مارسيل بروست الذي استعمل أكثر من بداية في روايته "البحث عن الوقت الضائع". (9)

الاستهلال الأول: وهو عبارة عن بداية تنبؤية وتوقعية، من صفحتين، يخبرنا فيها بما سيحدث في الرواية مستقبلا. الأخ التوأم للسارد يبدأ الرواية بوعد لأستاذه بكتابة إنشاء عن سفرة العائلة إلى المغرب وكذلك بقرار لا رجعة فيه، قد اتخذه وهو الذي ينهي الرواية بمدوناته التي تتكون من ثلاث جمل: "سأقفز غدا. لا أحد يستطيع منعي. سأنام جيدا". يخاطب معلمه ويعِده بكتابة المدونات لأنه يتمنى أن يكون كاتبا ولو لكتاب واحد في حياته وأنه سيعطي ما سيكتبه لأخيه التوأم لتسليمه بعد عودته؛ أخوه التوأم، السارد الرئيس، الذي يتمنى أن يكون مصورا ناجحا.

أما الاستهلال الثاني فهو عبارة عن عملية استرجاع طويلة تعود بالسارد/ المصور، الشخصية الرئيسة، بالضمير المتكلم "أنا"، إلى ذكريات طفولته. وظهور رقم والده على تلفونه المحمول جعلته يستحضر الماضي بذكرياته. إنه والد السارد/ المصور الذي يتصل به تلفونيا بعد مرور أربعة أشهر وستة أيام وثمان ساعات وستة عشر دقيقة. فالسارد منهمك في أخذ صور لعارضات بولونيات اللواتي لا يتكلمن اللغة الهولندية. إنه مشغول بأخذ أجمل اللقطات لمجلات معروفة ومرموقة.

هذه الرنة عن تلفون والده التي لم يجب عليها إلا بعد خمس وستين صفحة ويجيبه

بكلمة واحدة وعلامة استفهام "أبي؟" ويعود ليستغرق في استرجاع ذكرياته. لكي يعود لمخاطبة أبيه بعد ثلاث صفحات "أتسمعني؟ " ويجيب الأب: نعم أسمعك." لكن السارد يعرف أن والده لا يسمعه من كثرة الضجيج في موقع التصوير. ويطلب من أبيه بعد ثلاث صفحات أخرى أن يعاود الاتصال لكن الأب يصر على إبلاغه أمرا هاما، منبِّها: " لا تقفل الخط، إن أمك مريضة."

السارد، الشخصية الرئيسة، يمارس مهنة التصوير التي لا تعجب الأب. فهذا الأخير يعتبر عملية التصوير في حد ذاتها عملية تزوير. فهل هي تعكس الواقع أم شيئا آخر؟ وقد تكون كذلك، بما أن الصورة، حسب بيتر فان زيلفهاوت، هي في حد ذاتها ظاهرة غامضة (10) ويوافقه في ذلك سارتر حول موتيف الصورة التي سنتناوله لاحقا. السارد/ المصور هو إنسان ناجح في عمله ويؤديه بإخلاص ودقة وإبداع. واستطاع أن يتسلق السلم الاجتماعي وينظم إلى النخبة الهولندية. لكن الأب ووجوده ما زال يعرقل عمله الذي يجهل كل شيء عنه. يتصل بابنه في وقت حرج.

تجري الأحداث حول عائلة تتكون من أب وأم وتوأم. كاتب المدونات، قرر أن يبقى بالمغرب وقد تحقق حدسه لكن بطريقة بشعة حيث أنه غرق في البحر بعد أن قفز من صخرة عالية. في طريقهم إلى المغرب، كان التوأم المدون يعلمنا بين الفينة والأخرى بأهم الأحداث التي يعيشونها خلال هذه السفرة من هولندا مرورا ببلجيكا وفرنسا وملقا، عبورا بجبل طارق على ظهر السفينة إلى مليلة. إن هذه المدونات تتخلل فصول الرواية والذكريات التي يسترجعها السارد/ المصور. وهكذا تكون صيرورة السرد: استهلال تنبؤي في البداية ثم سرد تسلسلي في الزمن الحاضر وسرد استرجاعي؛ الأول يسرد أحداثا تدون في حينها والثاني يعود بالذكريات إلى عشرين سنة مضت. هكذا يبدو وكأن ترابطا مفقودا بين هذه المدونات وفصول الرواية التي يتطابق تماما فحواها مع عناوينها. لكن هذا "الذهاب والإياب" بين المدونات وفصول الرواية يجعلها رواية مشوقة أكثر.

القرين/التوأم

تدرج هذه الرواية ضمن جنس الرواية السيكولوجية وتهتم بالأخص بعلاقة الابن بأمه. فعنوان الرواية وتخصيص فصلا يحمل عنوان الرواية أكبر دليل على ذلك. "آنذاك أحسست حقا بافتقادي لصوت أمي الذي لم أسمعه لسنوات عديدة. لا تتكلم معي." ص144

يلعب القرين دورا مهما في بلورة الأحداث. علما أن ثيمة القرين، على شكل التوأم، تتكرر مع ثلاثة أجيال في رواية صوت أمي. هكذا "التاريخ يكرر نفسه" ص46 مع الشخصية الرئيسة، مع الأب وربما كذلك مع الأبناء التوأم للسارد/ المصور.

يتكون التوأم الأول في العائلة من الأب وأخيه كريم؛(الوحيد الذي ذكر اسمه في الرواية). قبل أن يغادر والد السارد إلى هولندا كانت هناك منافسة بين الأخوين التوأم، الأب والعم، فمن يقفز من الصخرة ويسبح خارج الشاطئ يفوز بالزوجة ويغادر إلى هولندا؛ للالتحاق بالمهجر يجب أن يبقى النصف الثاني بالوطن؛ غرق كريم في البحر. أما القرين في الجيل الثاني فيتجلى في

علاقة السارد/المصور مع أخيه التوأم/ كاتب المدونات. فعلاقتهما تشبه علاقة الأخوين قابيل وهابيل. الأخ التوأم للسارد / المصور غرق كذلك عند قفزه من نفس الصخرة في البحر. كان التوأم في نهاية المرحلة الابتدائية وكان عمرهما آنذاك أحد عشر سنة. كان يريد أن يقلّد أباه ليثبت للأهل بالمغرب أنهم " لم يتغيروا بالرغم من وجودهم بهولندا، سيبقون عائلة واحدة". ص.176 فالأب لقب بالغطاس البهلواني لأنه قفز من الصخرة في البحر ونجا. أما قفزة التوأم /المدون فقد وثقها السارد/المصور وهي تزين الآن غلاف الرواية.

أحيانا نلاحظ أن السارد /المصور يتكلم وكأنه يتكلم عن نفسه أو جزئه الآخر، فيقول عن أخيه التوأم وملامح الشزوفرينية تتضح في سلوكه: "كان ذلك وكأنني انظر إلى نفسي وكان رد فعلي أن هذا الشخص يستحق العقاب والإهانة لمجرد أنه "أنا". لكن ماذا يقول السارد عن نفسه؟ تعلمت وأنا طفل أن أكره نفسي." ويسترسل عن أخيه، "...كان علي أن ألقنه درسا. لم أندم على ذلك". ص60" وفي هذه الحالة، لا نعرف أيتكلم السارد/الرئيس عن أخيه التوأم أم عن قرينه؟ "أحيانا اعتقدت أن أخي هو فقط صورة منعكسة على المرآة، فإذا وضعت يدي عليه فإنه سيختفي...فكرت يوما أيضا أن أقتل صورتي". ص62 ويحتار طارحا سؤالا آخر؛ "هل يمكن أن يكون هناك فرقاً بين مخلوقين متطابقين بحيث يجب التفريق بينهما لكي يستطيعا الحياة؟ ص70 يبدو أن غياب أحد التوأمين أو وفاته يعطي فرصة البقاء للآخر لكي يعيش. إن القرين ينقسم "عموديا" بحيث نجد أن التوأمين مختلفان في أشياء كثيرة. يعاني السارد/المصور من عدم تمكنه من لغة أهله ولم يستطع التواصل معهم وكان يحس بالغربة وهو بينهم. فهو يعرف ذلك جيدا. "كان التحدث باللغة الأم مهما جدا بالنسبة لأخي. كنت أعي بألمٍ عجزي التحدث بلغة الأم".ص187" ...كنت أتأخر كل مرة خطوة... أردت العودة إلى بلدي؛ هولندا".ص188 لم يستطع السارد\المصور التأقلم لقلة المفردات التي يعرفها بلغته الأم وكان يحس، يوما بعد يوم، بأنه غريب بين أهله في القرية المغربية. "شرحت أن فراق الوطن الأم واستبدال القرية بعالم يختلف تماما في الواقع أيقظ ذاكرتي. أتيت من منطقة قاحلة إلى حديقة أطفال وحوض للرمال.

طبعا تحتفظ بهذا بذاكرتك! اكتشفت بهولندا أن علي أن أخزن كل شيء بذاكرتي حتى أستطيع البقاء". ص 61

كان هناك صراع بين التوأم؛ بحيث يعتبر السارد/المصور جزأه الثاني مفروضاً عليه. ولقد(كانا) مختلفين وعلى النقيض تماما. ويتكلم عن أخيه التوأم وكأنه المسؤول عنه. "كان يحتاج إلى تصحيح. لقد كان كالخشب المعوج، فقط بالقوة يمكن تعديله." وأحيانا يقول:" كنت أجده الشخص المفضَل لكي يحمل أرائي. هكذا كنا نتعامل مع بعضنا البعض. حديد ضد خشب." ص60

ونلاحظ أيضا ملامح أخرى لثيمة القرين والثنائية في العلاقات العائلية. وتكون البداية في اختلاف العقلية بين الجيلين؛ الأب والابن، علاقة السارد/المصور بأبيه وكرهه له بعد ذلك، علاقته الأوديبية مع أمه، عيشه مع والديه سابقا وحياته الخاصة المستقلة عنهما. أما الأهم من ذلك فهو انتماؤه

واندماجه كليا بالمجتمع الهولندي كمصور ناجح ومستقل، حر في تفكيره ومنفتح على الآخر وثقافته ومستوعبا له. لكنه، من جهة أخرى، لم يستطع تحمل غربته القاسية في بلد أهله وذويه وعدم تواصله معهم بلغتهم. أما أخوه التوأم فهو يستطيع أن يتواصل مع أقاربه في المغرب ولا يحس بالغربة بينهم وهو الذي قرَر من بداية الرواية عدم العودة. هكذا يجب التخلي عن الجزء الآخر، ربما الأقوى حسب السارد.

تشمل ثيمة القرين كذلك الأم التي لها أيضا قرين يختلف عنها تماما. لقد كانت الأم سافرة وجميلة. والسارد/المصور يفتخر بذلك؛ " أمي تشبه احدى ممثلات أفلام هوليود".ص105 ..."أمي جميلة جدا ولا أقولها لمجرد أنها أمي...أنا فرح جدا لأنها لا تقرأ هذه اللغة لو حدث عكس ذلك لما استطعت أن اكتب بصراحة وحرية ما يجول في خاطري".ص108 لكن في بداية الثمانينات، تغير كل شيء في حياة هذه الأم. وجب عليها ارتداء غطاء الرأس وتغيرت بذلك طريقة ملبسها. وما كانت تحبه كثيرا ويدخل البهجة على قلبها وقلب زوجها أصبح حراما؛ لم يستمعوا بعد لأغاني أم كلثوم، وذلك من عشرين سنة، بعد غرق ابنهم خلال آخر سفرة لهم بالمغرب.

المواجهة وألبوم الصور

تريد أن ترى ألبوم الصور". قال أبي. ص.130 "...حسب علمي لم تهتم أمي بهذا الألبوم، فتوقها لهذا الألبوم يرتبط برغبتها بالانشغال بشيء آخر. فصور الماضي قد تكون مثل قطعة قماش مبللة تجلب البرودة. أو هل قرر (أبي) هذا الصباح أن الوقت قد حان لكي يضع هذا الألبوم أمام عينيها، بحيث يتخلص من عتاب نظراتها..."ص.131 هذا الوضع يجب أن يتغير!

إن السارد المصور يعتبر نفسه عصاميا، "وهو الذي يصنع أوهاما بصرية لأنه يجد أن الواقع عبارة عن كارثة كونية."ص 84 فماذا يعني التصوير إذن بالنسبة له؟ إن الصورة تعكس، بالتأكيد، ثيمة القرين وتتماشى مع مفهوم الثنائية في مواضيع الرواية. لقد فاز بالجائزة الأولى عندما أخذ صورا لسكان الحي وأوضح فيها ما يجمع هؤلاء الناس بدل الاختلافات التي قد تكون سببا في تعميق المسافات بينهم.

الصورة، حسب نيكول غيشار، يمكنها أن تقول عن نفسها "أنها هي الحقيقة التي لا تتوقف عن الكذب، عكس ما يقوله كوكتو عن نفسه: أنا كذبة التي تقول دائما الحقيقة. (11) المصور لا يريد هذا "الأنا "المفضل، فهو يبحث عن الغرابة بشخصيتي، الكائن الآخر الذي بداخلي دون علمي، ليكشفه للكل وبالأخص لي؛ فهو يريد الآخر."(12) وقد يكون هذا الآخر هو القرين؛ "البورتريت الذي يكون بمثابة نوع آخر من المواجهة مع قرينه."(13)

لقد حان وقت المواجهة. علِما أننا، كما تقول نيكول غشار، "نسكن أوجهنا دون أن نراها. فعندما ننظر إلى أنفسنا لا نرى فقط تقاطيعنا وإنما طباعنا لأن البورتريت الذي نصنعه نحن عن أنفسنا هو نتيجة عملية سيكولوجية أكثر منها بصرية.(14)

فالأب، الذي لا يحبذ التصوير، يتصل بابنه ليبلغه بأن أمه مريضة وأنها تريد أن ترى ألبوم الصور. هكذا بدأت الرواية من نهايتها. ويعود بنا السارد المصور إلى عقدين من

الزمن، عندما كانت الأم ترفض مشاهدة الصور. كانت تبدو جميلة جدا كأنها أحد" نجمات هوليوود". كانت تلبس فستانا جميلا، رأسها مكشوفا، وشعرها مسدولا على كتفيها. تقف بجانب الأب، الغطاس البهلواني. كانت فترة الاستمتاع بأغاني أم كلثوم. خلال هذه الفترة كانت الأم تتحدث كثيرا مع السارد المصور، نقلا عن الأخ التوأم /المدون. لكن هذه الأم التي لم يذكر اسمها في الرواية عزفت عن الكلام لمدة عشرين سنة. فبعد غرق ابنها في البحر ودخول ابنها الآخر في مرحلة المراهقة واكتشافه كتاب الأنسكلوبيديا ونظرية داروين، قررت الأم العزوف عن الكلام. قاطعت زوجها وابنها والعالم الخارجي أيضا. كان نوعا من الرفض. استعملت الخرس لتعبر عن حزنها وعدم رضاها عن وضعها. قضت سنوات طويلة منغلقة على نفسها.

إن السارد/ المصور تبنَى الشزوفرينية لكي يخلق عالما ثالثا يستطيع أن يبدع فيه ويتألق. حيث يرى جيل دولوز أن صيرورة الشزوفرينية هي صيرورة ثورية، محررة، تمكن الفرد من الخروج من وسط الميدان الذي خصصته أو فرضته المجموعة المهيمنة بالمجتمع. فكان التصوير المجال الأمثل للمواجهة. "فلا يمكن لصورة أن تتكون بدون معرفة".(15) فالمعرفة في حالتها السليمة تتوارى كوعي للعلاقات. ويضيف (هوسرل) أن هذا الوعي يمكن ملؤه. ليس بالكلمات: الكلمات ليست إلا سند المعرفة. الصورة هي المحتوى الحدسي للمعنى.(16) هذا ما يدركه أيضا السارد/المصور عند تصفحه ألبوم صور العائلة: "في أحد الصور، ينظر (أبي) مُبتسماً إلى الكاميرا بينما يضم امرأة مجهولة، جذابة فحسب، مكشوفة الرأس. هذه أمي! حرام! لا أصدق أنها أمي. إذا كانت هي فعلا، فإذاً، هذه المرأة التي تقف الآن في المطبخ ليست أمي وإنما صورة منعكسة لها غير واضحة...وفي صورة أخرى أراهما وفي يد أبي أسطوانة كوكب الشرق، أم كلثوم. ص133... أرى صورة أخرى وأمي ترتدي فستانا صيفيا بخطوط صفراء. هذه الصورة أخذت بهولندا قبل ولادتنا. ص134واستمر السارد/المصور باستعراض، من خلال الصور، التغيرات التي حدثت على حياة والديه. ويلاحظ أن هناك "بديل في الصورة الذي لا تستطيع الكلمات التعبير عنه. شيء يملأ محتوى الصورة". ص134 فعلا "فإن فضاء الصورة ضروري، لأنه يمنحنا إمكانية اتخاذ مسافة مقابل العالم. فالصورة تبعدنا عن العدمية، كما عن الذاتية الصرفة. بينما في علاقتنا مع الآخر يمكننا أن نحس بالحرية في الصورة وهذا ما أخلصت إليه (بيتر فان زيلفهاوت) في دراستها عن الفضاء الخيالي(17). فالسارد المصور يريد "أن يوثق شيئاً ما، لكي لا يصيب هذا الشيء الضياع". ص121. شفيت الأم وعادت إلى حياتها الطبيعية؛ فرحة بصورها وبأحفادها التوأم، أبناء إيفا سواريس، التي تركتهم، لظروف غامضة، عند أبيهما السارد/المصور ورحلت إلى مكان مجهول بعد سوء علاقتها مع زوجها. " لقد أخذت صورا لكِ ولأبي وللكل. سأعرضهم على الناس...سأعرض صوري. لأنني أعتقد أنها تعبر عن أشياء لم يجر الحديث عنها بعد. ص237 هكذا يخبر السارد/المصور أمه عن سبب أخذه صورا

للعائلة. يريد أن يمنح حياة لهذه الصور ويجعلها تتحاور مع الآخر ويمنح هذا الأخير فرصة لكي يملأ الفضاء الذي تشغله هذه الصور؛ تماما كما يقول سارتر: عندما أشاهد صورة وألاحظ الشخص، فهذا الأمر يكون حدسا. الشخص نفسه لا يوجد في الصورة وإنما يصبح حدسا عن طريقي أنا، أنا أضعه في الصورة، لذلك فالصورة تفتقد شيئا: الحياة والتعبير. ويتابع قوله؛ لكي نحدد الملامح التي تخص الصورة كصورة يجب أن نعتمد فعلا جديدا للوعي. يجب أن نفكر. فكلمة صورة لا ترمز إلا لعلاقة الوعي بالشيء، بعبارة أخرى، هي الطريقة التي يبدو عليها الشيء في الوعي، أو بالأحرى، كيف يتراءى الشيء في الوعي(18).

حدث التصالح مع الذات من خلال إيجاد فضاء ثالث يؤمِّن التواصل مع الذات ومع الآخر بدون انفصام في الشخصية. بعدما كان السارد/المصور يقول:"لكي أعود إلى البيت، يجب علي أن أترك جزءاً مني"ص146 وكذلك الروائية العراقية بتول الخضيري في روايتها كم بدت السماء قريبة (1999)؛ عندما تتحدث عن التربية المزدوجة التي عرفتها من أم من أصول انجليزية وأب عراقي مخاطبة والدها: "خلافكما أدى إلى اختلاطي بالعالمين، ما عدا البيت الذي كان في حد ذاته عالمين."ص13 رغم ذلك استطاعت أن تتجاوز وضعيتها العائلية والاجتماعية كما جسَدتها في روايتها، علما أن بتول، هي أيضا تنتمي إلى نفس ثقافتي بطلتها. وتستمر في مخاطبة والدها: لقد بدأت حقبة جديدة في حياتي...ص 76 .. إن موت خدَوجة (صديقة طفولتها) وتردي حالتك الصحية،حولاني إلى طفلة أخرى". ص 60 أما فيما يخص عبد القادر بنعلي، فالوضع الاجتماعي والسياسي بالأخص هو الذي جعله يكتب هذه الرواية، بحيث يمكن أن تكون للكتابة منافع علاجية. إن نظرية الانتماء المزدوج عند (بول فالتزاويك) تقول أن إمكانية الخروج من هذه الوضعية تكمن في إيجاد حل لها وذلك من خلال إعادة تأطيرها وتجاوزها. (19) وهذا ما لمسناه في رواية صوت أمي. لقد وجد الكاتب كما وجدت بتول الخضيري فضاءً ثالثا استطاعا فيه أن يجدا ثقافة مشتركة تجمع بين العالمين اللذين يعيشان فيهما دون تضارب أو تصادم. فهذا الفضاء الثالث يساعد على التواصل والارتقاء مع الأخذ بعين الاعتبار أن ما قاله أوتو رنك"بأن الإنسان لا يستطيع أن ينسلخ عن ماضيه وإن حدث ذلك فيكون سبب مأساته".

(20) أخيرا، نجح بنعلي في نقل الوضعية من إطار إلى آخر وعرضِها للتواصل مع الرأي الآخر؛ حيث تجسدت وجهة جديدة في فضاء ثالث عبر الكتابة وموتيف التصوير.

الهوامش

1-Otto Frank, Don Juan et le Double, Paris, 1932, p.4
2 - Clément Rosset, le Réel et son double, Paris, 1976, p. 87
3 - Ibid, p.13
4 - Ibid, p.38
5 - Ibid, p.44

6 - Abdelkader Benali, De stem van mijn moeder, Amterdam, 2009
7- Franz Hellens, Le double et autres contes fantastiques, 2009, p.293
8 - Ibid, p.290
9- Gérard Genette, Figures III, Paris, 1972, p.88
10 - Peter van Zilfhout, De imaginaire Ruimte, verbeelding en subjectiviteit , Sartre, Deleuze en Becket, Amterdam, 1993, p.137
11 - Nicole Guichard, Michel Tournier, Autrui et la quête du double, Paris, p. 192
12 - Ibid, p.196
13 - Ibid, p.196
14- Gisèle Freund, Mémoires de l'œil, Seuil, Paris, 1977, p.80.
15 - Jean-Paul Sartre, L'imaginaire, Paris, 1940, p.80
16- Ibid, p.81
17 - Peter van Zilfhout, op.cit., p.140
18- Ibid, p.30
19 - Michèle Bacholie, Un passé contraignant: Double blind et transculturation, Amsterdam, 2000, p.14
20- Otto Rank, op. cit., p.9

قـــــراءات

فراس عبد المجيد

شاعر يخرج من ركام الأزمنة المرة

قـــــراءة: جـــــواد وادي

من الطبيعي أن يشكل حضور المبدع الفاعل في المشهد الإبداعي رافدا هاما لاغناء التجربة الإبداعية بشتى أجناسها فتتعدد التجارب من حيث الكم والكيف وصولا إلى الصورة التي يرومها المبدع وتحديدا بالنسبة للمتابع الفطن الذي يلتقط الهم الإبداعي بعين راصدة والمشاركة في إثراء تجربة المبدع وكشف الهنات التي قد تشوب العمل لتجاوز المثالب غير القصدية التي قد يقع فيها مبدع النص وهنا تكون المشاركة الفاعلة تحقيقا للهدف الذي يسعى له الطرفان، مبدعا وقارئا نديا للعمل. بمعنى آخر أن المبدع يمارس دورا تحريضيا للمتلقي ليحفزه على التفاعل العاشق للنص وقد تقود هذه العلاقة إلى خلق حالة صحية يحتاجها المبدع لتهذيب التجربة وكشف المثالب وهكذا كانت علاقتنا بالمبدع الشامل فراس عبد المجيد، فنانا تشكيليا، وصحفيا مرموقا اشرف على البيت الثقافي للمبدعين الشباب من خلال إشرافه لأهم منبر ثقافي آنذاك، ناقدا صارما وعرّابا حقيقيا لجيل بات يشكل ظاهرة في المشهد الشعري والقصصي والثقافي الآن، لكننا لم نعرف انه منتج لنص شعري بهي ولافت إلا حينما فجّر مفاجأته الشعرية بإصداره ديوانه الأول الموسوم (نخلة الروح).

وبقدر ما يتعلق الأمر بمقاربات تقودنا إلى السبب الذي يجعل من المبدع الموهوب أن يلوذ بالصمت ولم يبادر كأقرانه من ذات الجيل بالظهور ما يجعلنا نواجه سؤالا قد يتكرر كثيرا من جيل لجيل، ذلك أن اصواتا شعرية ظلت خلف كواليس العمل الإبداعي رغم ما تكتنزه من موهبة متميزة،ولا نعرف السبب الحقيقي لعدم مزاحمة الآخرين ممن كان حضورهم على الساحة يشكل ظاهرة كانت تحبو في بداياتها حتى امتلكت ناصية الكتابة وأثبتت حضورا لافتا ووازنا ولا نتردد أبدا حين فاجأتنا مبادرة المبدع فراس

عبد المجيد أن نعيد ترتيب المشهد لنعترف بهذا الصوت المتفرد رغم صمته الخجول قبل وبعد ظهور باكورته الشعرية الأولى، رغم أنني لا اعتبرها باكورة أو مولودا أولا، بل هي خميرة تجربة ينبغي أن نحييها باقتدار موهبة الشاعر الذي لازم الصمت طويلا حتى قرر أن يخرج هذه الإضافة ليرمم الشرخ الذي قد يكون وقعه أكثر علينا من إحساسه هو ذاته حين نكتشف أننا أمام إمكانية شعرية ظلت بنأيها عن الظهور طيلة عقود من الزمن، تعتبر خسارة للمشهد الشعري العراقي إن لم يبادر الشاعر بهذا الكرم الشعري اللافت.

هذه المجموعة قد تخلخل الكثير من القناعات لدى المتابعين للأجيال الشعرية العراقية من حيث عطاؤها ورفدها للتجربة الشعرية العربية والتصاقها من قريب أو بعيد بمن جايلهم من الشعراء إذا ما علمنا انه ينتمي للجيل الستيني بذات الرؤيا والتوظيف والنفس الشعري والتخييل الفطن ورغم أن هوة التباعد الزمني بين بوح الشاعر ومنجزه الشعري قد ناهز النصف قرن وما يزيد لكن شاعرنا بقي أمينا لطريقة كتابة النص التفعيلي لتلك الحقبة الطويلة وهذا يعني أمانة الانتماء حيث بقي الشاعر يختزن بدواخله الهم الشعري لتلك المرحلة الذهبية بقاماتها الشامخة كالسياب في أواخر حياته وسعدي يوسف وعبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري ومحمود البريكان وغيرهم من الأصوات الشعرية التي أسست اللبنات الأولى لقصيدة التفعيلة لتفتح منافذ للأجيال اللاحقة وتؤسس لعتبات سهّلت كثيرا من مهمة من جاء بعدهم من شعراء على امتداد خريطة الشعر العربي وباقتدار وشموخ وقوة حجة في المنجز رغم مشروع التحديث الذي تعرضت له قصيدة التفعيلة .

فراس عبد المجيد شاعر بتجربة شعرية كانت تلوذ بالصمت، واكب فرسان الكلمة الشعرية الرواد لكنه لم يطرح نفسه مشروعا شعريا إلا مؤخرا ونحن لا نبالغ إذا ما قارنا النصوص التي تضمنها الديوان بنصوص كنا نتمايل طربا عند قراءتها بموسيقاها ومتانتها مبنى ومعنى في بداياتنا الأولى والغريب في الأمر أن تاريخ الإبداع منذ أجيال قد عرف ظاهرة المبدع الذي يظهر متأخرا لأسباب قد تكون ذاتية أو قد تكون موضوعية، وله الحق في تبرير قناعاته في ذلك، لكنها بالنسبة للقارئ تبقى قضية إبداع تحمل الكثير من الدلالات نأسف لكوننا لم نقراها قبلا فتكرم علينا وأتحفنا بهذه التجربة التي أحيت بدواخلنا بهاء النص التفعيلي بعد هذا الحصار المخيف للكم الهائل من قصيدة النثر حين اختلط الغث بالسمين ليعيدنا الشاعر لذلك الزمان الجميل المأسوف على رحيل مبدعيه الحقيقيين الذين كان لهم الفضل الأكبر في أن يخطوا لنا بجهدهم ومثابراتهم طريق البداية الذي وللأسف الشديد تنكر لهم شعراء اليوم بعنجهية وتعالٍ وعقوق لكنهم ورغم كل شئ يظلون المرجعيات الحقيقية لنا جميعا.

نعم، فالشاعر فراس عبد المجيد ظاهرة ينبغي ايلاؤها ما تستحق من اهتمام ونحن نسمعه بين الفينة والأخرى يعبر عن تواضعه وكون تجربته الشعرية ليست بذات الأهمية التي نراها نحن عكس ما يدّعي تماما، وهذا تواضع يثري كثيرا من تجربته، ونحن لا نعلم بأنه يحضر لمفاجأة جديدة فمرحبا

بمفاجأته الثرية التي ستكون محط ترحيب لتنصف هذا الشاعر الموهوب وتعيد له شيئا من الإنصاف الذي يستحقه بجدارة، فقد اعتاد على التواضع رغم أن ظهور العشرات من المبدعين ممن رعاهم شخصيا وفتح كل ممكناته الثقافية لتبني أعمالهم سيما انه كان مسؤولا عن منبر ثقافي مغربي هام فوضعهم على سكة الإبداع الشعري والقصصي حين كان الملحق الثقافي لجريدة الميثاق الوطني البوتقة التي صهرت كل الإبداعات وفتحت منافذ بهية على الإبداع الحقيقي بعد أن ساهم بتبنيه شخصيا لهذه الأصوات والسهر على توجيهها للانطلاق في عالم الإبداع والعطاء نذكر بعضا من هذه الأسماء:

د. سعاد الناصر (أم سلمى)، د. جمال بوطيب، الشاعرة وداد بنموسى، الشاعرة أم سناء (نجاة رجاح)، الشاعرة فاطمة الزهراء بنيس، الشاعر محمد احمد بنيس، الشاعر محمد أنوار محمد، الشاعر عمر بنلحسن، الشاعر جمال الموساوي، الشاعرة نجاة الزباير، الشاعرة حليمة الاسماعيلي، الروائية والشاعرة أسمهان الزعيم، الشاعرة نادية يقين، الشاعرة لبنى المانوزي، الشاعر والصحفي محمد بشكار، الشاعر والصحفي مصطفى الصوفي، الشاعرة عزيزة احضية شقواري، الشاعر عبد الرحيم الخصار، الشاعر مصطفى ملح، الناقد محمد بوعزة، القاص محمد عطاف، الشاعر عبد الجواد العوفير، الشاعر نفيس المساوي، الشاعر منير الإدريسي، الشاعرة فاطمة أحيوض، الشاعرة سميرة جودي.....والكثير غيرهم.

وعرفانا بهذا الجميل واعترافا إنسانيا عذبا يقول الشاعر الموهوب جمال الموساوي بحق المبدع فراس عبد المجيد:

فراس عبد المجيد، بالنسبة لي ليس شخصا عاديا، فهو حين يتحدث يبتسم أيضا، وابتسامته تلك ابتسامة طفل ينظر بعين البراءة إلى الحياة. وعندما أنظر في أعماق قلبي أبحث عن الأحبة يكون فراس واحدا ممن يصعدون إليّ. وإذا كنت مدينا لصدفة ما كما أزعم، فانا مدين لها لأنها حملتني ذات يوم ووضعتني على مكتبه في جريدة الميثاق الوطني سوادا على بياض يبحث عن نفسه في زحمة الكلمات.

نخلة الروح

هو عنوان ديوان الشاعر فراس عبد المجيد، والعنوان يحيلنا إلى ديوان الشاعر حسب الشيخ جعفر الموسوم (نخلة اللّه) وهو باكورة أعماله أيضا لنعرف ما لقدسية النخلة لدى المبدع العراقي على وجه التحديد وللعراقيين كموروث ورمز لها مكانة مباركة في حياة العراقي. ولا ندري كيف حصلت هذه المصادفة إذ أن كلا الديوانين هما باكورتا الشاعرين، الاول ارجع النخلة الى اللّه والثاني أحالها الى الروح ولكلا الحالتين مغزى ابلغ وله من الدلالات ما يعزز تعلق أهل العراق ومبدعيه بهذه الكائن الرمز.

وحدك الآن
تسمقين كرمح
في خاصرة السماء
كل الأزمنة هباء

ويومك التاريخ كله.. (نخلة الروح ص39)

هنا يتضح ما للنخلة من معنى يتعدى المألوف لتجمع تاريخ تلك البلاد القصية،

إنها ارض السواد وأهلها الذين يعتبرون النخيل جزء من شخصيتهم وتكوينهم الإنساني الضارب في عمق التاريخ بعطائه وشموخه وثرائه.

للنخلة مكانة في حياة الشعوب وكانت حاضرة بقوة في جميع الأديان التي مجدتها الكتب السماوية بإسهاب في التوراة والتلمود والإنجيل وذكرت في القران الكريم في 21 آية:

فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب (المؤمنون آية 19)

وقال السرّي الرفّاء في النخلة:

فالنخل من باسق فيه وباسقة

يضاحك الطلع في قنوانه الرطبا

وكانت النخلة تعتبر في حضارة وادي الرافدين لدى البابليين والسومريين شجرة مباركة تزين ردهات المعابد وعروش التيجان. حيث كان في معتقداتهم أن اله النخل يظهر على هيئة امرأة فينتشر على أكتافها السعف كالأجنحة.

أما شريعة حمورابي في مادتها 59 فكانت تحرم قطع النخلة الواحدة وتغرم الفاعل بنصف فضة الذي يعتبر مبلغا كبيرا آنذاك.

والنخلة تشترك مع الإنسان بسبعة صفات من أهمها قدرة التحمل والصبر وعدم الانحناء ومن صفاته أنها تموت وهي واقفة. وهذه لعمري من صفات العراقيين فلا غرو أن يوظفها الشعراء ومن بينهم شاعرنا فراس عبد المجيد في أعمالهم بهذا التعلق والبهاء تيمنا وعشقا وتقديسا للنخلة المباركة.

وكانت النخلة تعبد لدى السومريين متمثلة بعشتار.

وحين داهم مريم العذراء المخاض خاطبها الإله: هزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلي واشربي وقري عينا. (مريم 23-26)

أما في العراق فتمثل النخلة رديفا للوجود العراقي تاريخا وإنتاجا ومقدسات ورمزا لأرض السواد، فهي مصدر الخصب والنماء وقد تعلق العراقيون بها وباتت انيسهم ومصدر فخرهم وقد وظفها العديد من الشعراء في نصوصهم.

أما رديف النخلة، الروح، كما وظفها الشاعر في الديوان كعنوان دال، فهي بدورها من مقدسات الوجود الإنساني وكينونته وهي إفاضة للجسد تتحرك باشراقات نورانية، وقد وصفها ابن سينا:

بان الروح تمنح الجسد المادي بواسطة النفس كل ما يتخيل ويفكر ويذكر .

كذلك أعطاها ابن القيم أربعة مراحل:

الاحتضار

سكرة الموت

الصعود إلى السماء

البرزخ

وقد توفق الشاعر حين ربط النخلة بالروح لتكون اقرب إلى الوجع العراقي المر وابلغ معنى لمأساة الإنسان العراقي بانكساراته وألمه الممض وروحه المعذبة. وعاد عنوان المجموعة رديفا لكل النصوص التي سعى الشاعر من ورائها تجسيد حقيقياً لمعاناة الإنسان حين تبقى سلواه الوحيدة فيما يحتكم عليه من رصيد بات من الذكريات بعد ان سحقته عجلات القساة ولكنهم رغم ذلك ما اجتثوا لا النخل ولا انتزعوا روحه اللصيقة بالأرض والمتجذرة مثلما النخل الضاربة عمقا وتمسكا بالأرض

العراقية وهذا الربط الفطن منح النص كثيرا من البهاء :

وحدك
توقظين الليل سميرا
ثم تسريان معا
في غابة ضوء بعيد آت
حتى انبلاج الجرح

أو انطفاء المدارات...(نخلة الروح ص39)

لنتأمل دقة الوصف والربط بين مفردتي النص ومغزى الشاعر في أن يفتح مجسات لتحريك المتلقي ليقترب أكثر من وجده وانكساراته.

الديوان تتصدره مقولتان يستشهد بهما الشاعر، الأولى لأبي حيان التوحيدي (عجبي من لسان مفتون بالعبارة وقلب تاه في أوائل الإشارة) بهذه الاستعارة يريد الشاعر أن يبلغنا بحسه الصوفي الذي يطغى بقوة على متون النصوص.

أما المقولة الثانية فهي للروائي الكبير نيكوس كزنتزاكيس اذ يقول (إني لا أجد زمانا، ولا أجد مكانا لكي ارقص. أنا على عجل) ليذكرنا بالرائع زوربا وتعلقه بالحياة وجودا وحبا وانشغالات.

إحالات غنية بالمعاني ليفتتح نصوصه بعد أن يخضعها لذات الرؤية والنفس الفلسفي المعبر.

الديوان موزع على أبواب وكل باب يشتمل على مجموعة قصائد.

الباب الأول اسماه تنويعات يفتتحه بنصه الأول مكابرة:

كلكم بالعتمة العمياء
شعركم ملئ
وأنا....
شعري يضئ....(ص7)

لمن يوجه يا ترى الشاعر هذا الخطاب الشعري الذي لا ينتمي لصفة التكابر بل هي المكابرة للإفلات من ربقة الأسر ليكون الشعر منفذه للإحساس بآدميته، إنه يقينا يخاطب جمهرة الشعراء إيمانا منه بأنه يلتقي معهم على بياض الكلام كونهم يكتبون بامتلاء أما هو فيكتب باضاءات لتكتمل الصورة.

أما في نص صدفة:

صدفة
تخبو في فلوات الصمت أغانينا
وتنام على هدب الليل قصائدنا
يغفو في النجمات بريق
صدفة
يسكر تحت خطانا درب
ويجن طريق...(ص7)

ليس بمقدور الشاعر أن يمسك بتلابيب الزمن الهارب واللحظات الفاتنة، محطات قد يضيع فيها الإحساس بالوقت فقط يريد أن يذهب بعيدا بتأمله للنفاذ من وطأة اللحظة القاتلة.

الوطن عند الشاعر يتوزع بين مقبرة وزهرة ليمون، كلمتان متنافرتان ولكنهما في محنة العراق تكملان إحداهما الأخرى:

سيدتي تسأل عن وطن
يتشكل في مقبرة
يتجزأ في زهرة ليمون.(جنون ص8)

في نصه الذي يهديه إلى روح الشاعر بلند الحيدري تحت عنوان طريق أغمات وهي قرية قرب مراكش فيها ضريح الشاعر المعتمد بن عباد:

كنت ادري
غير أن السيف في أغمات
مزروع على الدرب علامة

فانزوت في الصمت كل الأغنيات.. (ص11)

يلتقي الشاعران بلند الحيدري وفراس عبد المجيد في حضرة الشاعر ملك الملوك المعتمد بن عباد في ذات الإحساس بالغربة والضياع والمكابدة وفقد الوطن تلك القواسم التي عادت نشيد المراثي لشعراء العراق. لكون الشعراء الثلاثة يتوحدون في الفقد واليتم والشعور بالضياع ودفء الأرض.

في نصه عازفة البيانو يتوزع النص على صور تشكيلية برؤية فنان تشكيلي يزاوج بين الرؤيا الشعرية والرؤيا البصرية ليمنحنا توليفة فنية على إيقاع آلة البيانو تتوزع على 12 لوحة.

مدي لي
من همس الأجراس سماء
وانتشري
ما بين غيوم العمر فضاء
وحدك تمتلكين السمع
وتمتلكين به

وتردد نغمتك الأصداء....(ص13)

في باب المجموعة الثاني (أل التعريف)

لم تبرح أبدا صورة الإنسان العراقي بشموخه وتحديه للمحن التي كابدها وما زال يعانيها بمرارة الصابر والمتشبث بالأمل والضياء القريب.

يا لهذا الجبل
كلما داهمته السيول
استطال
كلما فاجأته الثلوج
اشتعل..... (الجبل ص 19)

هكذا هو العراقي لا ينكسر ولا يلين كالطود الأشم جبلا يظل بوجه الأعاصير مهما عظمت.

العراق وطن الشهداء والضحايا والنكبات والشاعر حين يكتب نصا عن الشهيد فهو يجمع كل شهداء العراق دونما تمييز ليوحدهم في قدسية الشهادة :

ليته قال لي
انه راحل باتجاه الأفول
ليت أن الفصول
غيّرت في مواسمها
كي أرى بوحه
شاحبا في المطر
كي تطل ابتسامته
في اخضرار الشجر..(الشهيد ص20)

لا ادري لماذا يحضرني وأنا أقرا هذا النص رحيل الشاعر العذب شعرا وقيما، محمود البريكان؟ ألانه يمثل رمزا لكل الشهداء الوديعين الذين رحلوا وتركوا وراءهم ذكرى طيبة واسى ممضا وإحساسا لا يتوقف بالمرارة؟! شهداء العراق كلهم وديعة سماوية مقدسة وبهاء ملائكي طاهر مبدعين كانوا أم أناسا مغدورين.

ونحن نجول في بياض الكلام الشعري المطرز بالبهاء وبترف المنتشي وكأننا نتحول بين أرخبيلات بعيدة لا بأرض جرداء وباوقيانوسات تلفنا بها الأمكنة وتعرجات تكوينية نهتز لها حينا ونستسلم للهدأة حينا آخر بقراءة العاشق الذي لا يمل من تنوع التوظيفات ونغم الصياغات وموسيقى التلاوين الشعرية الطافحة بالمعاني والرؤى الباذخة.

في نصه الذي أكرم فيه الشعراء والذي أنصف بني جلدته كون الشاعر دائم الاحتراق ليهدي ما يبهج القارئ وييسر عليه الطريق حين يتحول الشاعر إلى شمعة تحترق لتضئ الطريق للآخر، تذكيرا بمقولة

الشاعر التركي العظيم ناظم حكمت في هذا المنحى.

أطفأ في راح الكف سيجارته
فاشتعلت في الروح الغابات
أشعل عود ثقاب فوق الجرح
فأجج في النفس الرغبات
اطرق صمتا
احرق وقتا
دبت فوق الرمل أصابعه
كعقارب تهجر ساعتها
لتشير إلى كل الأوقات..(الشاعر ص22)

هكذا هو الشاعر في تضحيته في كل الأوقات ليظل قبسا دائم التوهج والعطاء.

حين يتحول الإحساس بالألم إلى حالة غير مألوفة يلتقطها الشاعر ليضفي عليها جمال الصورة وصدق المشاعر بطريقة لا تخلو من التحدي.

سلني
عن وتر اسكت نبض اللحن
وظل أسير النسيان..(السؤال ص23)

جميل ان يعود الشاعر ذاكرة للأشياء المنسية حين تعصف الأهوال بكل شئ حتى تنسف خزين الذاكرة المعذبة.

انه المآل الذي يظل الشاعر يحتسي تأوهاته حتى يظنه آت إليه وقد يصدمه البحث حين يكتشف انه لا ينال إلا السراب.

من المعلوم أن شعر التفعيلة هو التزاوج بين المعنى والمبنى بترنيمات راقصة، موسيقى ولغة وتوظيف شعري ملئ بالمعاني والصور والخيال خلافا لما وصل إليه الشعر في كثير من حالاته حين تحول إلى تكوينات كولاجية خالية من القيمة الشعرية الحقيقية وهنا ينبغي التأكيد على أن كل شعراء التفعيلة من القامات المعروفة قد مروا من هذه التجربة وتحولوا لكتابة النص النثري أمثال ادونيس وسعدي يوسف والبياتي وحتى محمود درويش في كتاباته النثرية المتميزة وغيرهم من الشعراء، أما شعراء قصيدة النثر من الأجيال اللاحقة فهم غير قادرين وحتى عاجزين عن كتابة نص تفعيلي واحد لجهل معظمهم بالبحور الشعرية وهنا تكون مرجعياتهم ناقصة ونصوصهم هشة في غالب الأحيان ولا يسعنا إلا أن ندافع عن هذا المبدأ إذا ما أريد للنص الشعري أن يمتلك مقومات نجاحه ويظل الشاعر يتباهى بما ينجز وما يحتكم من مخزون للتمكن من الإلمام بكل أدوات الكتابة الشعرية الموفقة.

رسمت فوق الشفة الغضبى
ابتسامة الرضا
جلجلت في الحناجر
التي أخرسها الصدا
قهقهة استحسان... (المهرج ص25)

يتقمص الشاعر كل الأدوار ليقرا بحكمة العارف كيف يندس بخفة في دواخل المتلقي ليفهم فضوله ومكنونات أعماقه ويقرا ما بداخله من هموم وحالات مرتبكة تحتاج إلى خلخلتها لتنفرج أساريره وينتشي القا ليخلق مصالحة بدل الجفوة التي باتت الآن سمة القارئ بينه وبين الشعر.

الأم بصيغة الجمع، أمهات العراق اللائي كن الشريحة الأكثر إيذاء وتحملا وعذابا ووجعا يوميا هن اللائي ما توقف نحيبهن ولا عويلهن وهن يعايشن كل لحظة انتكاسات أولادهن وأزواجهن وبناتهن وأحبتهن ويتحملن أوزارا لا يطيقها أي كائن غيرهن... يفرد الشاعر المبدع فراس عبد

المجيد لهن حصة موجعة اعترافا لهن وما تحملن من أعباء وظلم وضياع وخسارات لأعز ما لهن، جراء الحروب والمغامرات وموت الضمير الإنساني إزاء ما لاقاه بشر العراق المنكوبون.

ما أجملكن
تنثرن بقايا العمر نجوما
تلألأ فوق شفاهي الضمأى
مطرا بلوري القطرات.....(الأمهات ص28)

إنهن جميعا أمهات الشاعر دونما تفريق بين من أرضعته من حليبها المبارك ومن شاركن نحيبها لفقد اعز ما تملك.

انه نشيد يتجدد في كل لحظة في دواخل الشاعر ليحس بكينونته كي لا يتشظى ويتحول إلى عدم، ليظل لصيقا بأرضه ومن يحب حتى وان كانت مجرد أحلام بعيدة المنال، وتبقى الأم الأمل والدفء والحنان والخير وأنقى القيم، حمالة الآسية رغم عوادي الزمن وعجلاته التي سحقت كل شئ في العراق الذبيح.

ما أقساكن
تعلقن اهابي
جدثا تقتات به غربان عور
فوق أنين دعاء
يتردد تمتمة خافتة
في الصلوات..... (الأمهات ص28)

تظل مباركة تلك المخلوقة الندية مصدر الحب والعطاء وينابيع الحنان.

للأصدقاء حصتهم في توزيع الشاعر وفاءه لمن يحب وها هو الشاعر المغربي المبدع عبد السلام بوحجر صاحب القصيدة المشهورة (عزف منفرد على وتر الهاء) وهو شاعر تفعيلي بامتياز، يحظى بلفتة وفاء من الشاعر فراس عبدالمجيد بتوظيفه واو القسم في كافة جمل النص الشعرية تأكيدا على صدق المشاعر ومودة التعلق.

والتمر والزيتون
وصمت هذا البلد الحزين
وكبرياء جرحه
وتينة تفتحت
وأنفلعت
تلسع ثغر شاعر مسكون
بالجن والدهشة والعجب
والطمانينة في بياض غيمة
تنساب في سكون
لن انحني
لغير نخلة تكبر في الروح
ولن أخون..... (القسم ص32)

في باب آفاق نثرية يرحل الشاعر من النص التفعيلي ليكتب لنا نصوصا رائقة وبتمكن العارف لأدواته وثقته بصلابة التجربة التي يحتكم عليها

اعرف
اعرف من تكونين
نجمة ترسم لي كفي
نجمة تطلق أصابعي. (من تكونين؟ ص37)

أمر في غاية المتعة أن يتحول الشاعر إلى فراشة ليتحرك بحرية متنقلا بين رحيق الأزهار ليلتقط العبق الأنثوي مثلما المحارب الذي يبحث عن لحظات من الاسترخاء بعد أن استنزفه البحث عن أنفاس جديدة.

انه البحث عن منفى داخل منفى تلك هي الغربة الحقيقية والإحساس باليتم والضياع وفقد كل جميل... كيف ذلك؟!!

إن الشاعر بانكساراته اليومية وهو في أعمق الإحساس بفقد الوطن يبحث عن

منفى يقيه لفحة الوجود الإنساني المضطرب فلا يجد إلا أن يدس روحه بنخلته الأمل لعله يشعر بالأمان حتى وان كان أمانا كاذبا لا يعدو كونه سرابا ليمسك بالأزمنة الضائعة والتاريخ المنفلت والبهجة الفاترة والعمر المنكسر على مرايا الحلم والاحتياج لحنان الأنثى لذة لا تعرف الانطفاء سمر لليل الحزين في مدارات مفتوحة على امتداد الوهم.

التفت في دفء لحائك
أفاعي الفردوس
التمّت النجوم عند طلعك
تحضنين بحنو
أصداء الريح المحملة شجنا
ففاحت رائحة الفجر
وتكسري بروقا
لا تنطفئ
ثم..
انفيني فيك.... (نخلة الروح ص40)

هكذا يريدها وهجا، عروشا، دفئا،، شهدا، دماء للقرابين، قمرا كهنوتيا، طلعا للنجوم، رائحة للفجر، سلما للروح، حنوا، شجنا ونواحا، مطرا وبروقا لتظل النخلة ملاذ الشاعر الأخير ولا اختيار سواه.

في باب حواريات ثلاث قصائد هي: حوار أول – أغنية حب – حوار متأخر.

أما في الباب الأخير فيضم النصوص: رثاء الظل– شموس – التحول.

ينزلق الظلان على الإسفلت
خفيفين كهمس الموجة
ينفرشان على العشب الرطب
فتسري في خضرته المبتلة
رعشة وجد
فينتفض الظل الأوحد
يحتضن تقوسه
يحتضن اللون الكون
البون الشاسع
والى شرفات الفجر يضيع...
(التحول ص60–61)

معا، شاعرا وقارئا نودع هذا الغدير الشعري الوارف، وبحسرة أقول ليتني أظل في حضرة النصوص الثرية تدثرني بدفئها اللذيذ ولا أجمل من الشعر الأبهى دثاراً.

إنما الشاعر كأني به يخرج من قفصه ليبحث عن ثراء جديد من مملكة الكلمات ليتحفنا بجديده الشعري الذي نبقى ننتظره كما الاشراقات المجنحة البهية لنلتقي ثانية في بحبوحة شعرية وارفة.

قراءات

تصورات العراقيين القدماء عن متاهات العالم الأسفل

د. فاضل سوداني

مرثية لعذابات سيدة الخصب والتطهير الاولى

بالرغم من ان النص المأساوي لهبوط آلهة الخصب (السومرية إنانا ـ والبابلية عشتار) الى العالم الأسفل فيه الكثير من الإلتباس والغموض فيما يخص مصير الإله (دموزي ـ تموز). فحتى عام 1964 كانت جميع الأساطير المكتشفة تؤكد ان هدف وسبب مخاطرة نزول الآلهة عشتار الى العالم الأسفل هو إنقاذ زوجها وحبيبها الإله تموز من الموت.

ولكن عالم الأثريات الجليل صموئيل نوح كرايمر (1) إكتشف رقَمْاً جديدة أعطت تفسيرا جديدا منطقيا لسجن الاله في العالم الاسفل وبالتالي ربطت لحمة ألاسطورة. حيث أكدت هذه الرُ قم التي كتبت في عام 1750 ق.م ، على ان الالهة (إنانا ـ عشتار) كانت هي السبب في تسليم حبيبها الاله تموز الى شياطين العالم الاسفل في فورة غضب، ولكن سبب نزولها الى هناك قبل ذلك لم يُفسر بشكل مقنع، إلا إننا نفهم من هذه الرُقم بان تحديها لقوانين عالم الظلام والموت، كان نتيجة لنزوة من الإعتداد والغرور والقوة والإمتلاك وجشع السيطرة التي هي من سمات سيدة البلاد الاولى. بالرغم من ان فكرة التضحية والفداء كانت شائعة في ديانات الشرق القديم عموما والشرق الأدنى بخاصة.

فمن اجل أن يتم الخصب لابد من قربان وتضحية، ولابد ان تكون هذه التضحية عظيمة ومقدسة.لهذا فان نزول الآلهة إنانا السومرية الى العالم الأسفل (2) يعني غياب قوة الاخصاب الكونية عن الحياة، لكنها جاهدت من جديد من أجل الرجوع الى الحياة بعد جفافها لفترة محددة. إذن إنانا ذاقت طعم الموت من أجل الحبيب الإله تموز ـ الانسان. ومن أجل خصب الطبيعة لابد من نزول إله الى عالم الاموات.

وفي هذا الجانب يؤكد صموئيل نوح كرايمر في كتابه القيّم (طقوس الجنس المقدس عند السومريين) ان الالهة إنانا اعتزمت النزول الى العالم الأسفل، الى بيت الأموات بسبب عدم قناعتها في أن تكون ملكة" الاعلى العظيم" فقط، وانما بسبب رغبتها في أن تستولى على" الاسفل العظيم " أيضا. لذلك فإنها تزينت بشارات سلطانها وإمتيازاتها المقدسة وعزمت على النزول الى" بلاد اللاعودة "، وبما انها تعلم مسبقا بكونها ستخرق قوانين مثل هذا العالم الذي لا عودة منه، وان أختها أرشكيجال ملكة العالم الاسفل وعدوتها اللدودة سوف لن تغفر لها جرأتها في هذا الإختراق، لذلك فان إنانا احتاطت للأمر، وطلبت من وزيرها ننشوبر – في حالة عدم عودتها بعد ثلاثة أيام – أن يذهب الى مجمع الالهة يستجدي عطفهم لانقاذ سيدته وسيدة البلاد العظيمة:

إذا لم يقف إنليل الى جانبك في هذا الأمر،
فاذهبي الى أور،
وفي أور عند دخولك البيت،
الذي هو بيت الرهبة في البلاد،
بيت الإله نانا،
إنتحبي أمام نانا..
أبتي لاتدع معدنك الثمين يعلوه غبار العالم الاسفل.
وإذا لم يقف نانا الى جانبك في هذا الأمر،
فاذهبي الى أريدو
في أريدو عند دخولك بيت أنكي،
أبتي أنكي لاتدع لازوردك الثمين يتكسر كحجر،
لاتدع العذراء إنانا تموت في العالم الأسفل
الاب أنكي رب الحكمة
الذي يعلّم "طعام الحياة" ويعلّم " ماء الحياة "
لابد ان يعيدني الى الحياة ثانية.

وعندما تتأكد إنانا بأن هنالك من يدافع عنها ويحميها من الموت، تبدأ رحلتها فتصل الى بلاط العالم الأسفل، وتصرخ جريئة بوجه ناتي بواب عالم الموت، أن يفتح لها الباب.. فيتشاور البواب مع سيدته. وعندما تعلم ملكة العالم الاسفل بمقدم إنانا، تقرر عقابها وموتها، ولكن لايمكن ان يحدث هذا مالم تنتزع منها شارات ألوهيتها. لذلك فانها تعلّم بوابها القيام بخدعة تتمثل بالسماح للآلهة إنانا بالدخول من الابواب السبعة لعالم الموتى(3). ومن الوصف المعبر للشاعر القديم نعرف بان إنانا تفقد شاراتها وسلطتها واحدة إثر أخرى بدون أن تكون قادرة على الاعتراض او الرفض لان نواميس العالم الأسفل تحكم بذلك .ويستمر الشاعر السومري بتقديم هذا المشهد بلغة وصفية رمزية معبرة:

لدى ولوجها البوابة الاولى،
الشوجرا،
تاج السهل، نزع عنها.
رحماك ما هذا ؟
صمتا إنانا،
نواميس العالم الاسفل،
نواميس كاملة،
إنانا إياك ... لاتجادلي بمراسيم العالم الاسفل.
لدى ولوجها البوابة الثانية.
صولجان القياس واحجار اللازورد نزعت عنها

رحماك ما هذا ؟

صمتا إنانا ، نواميس العالم الاسفل نواميس كاملة)

ويستمر الشاعر السومري في تقديم هذا المشهد المكثف بلغة رمزية لها دلالاتها المعبرة، لغة شرطية لاتتحمل التفصيلات الفائضة. من خلالها نفهم أن إنانا تفقد جميع شاراتها الالوهية عند إجتيازها الأبواب السبعة ، حتى تصبح عاجزة عن فعل أي شئ أمام ملكة "الاسفل العظيم"

(إنحنت خفيضة،

جئ بها عارية أمامها)

وبما انها الآن عارية من شارات الخلود، لذا فان حكماء العالم الاسفل وحراسه وملائكة الموت على استعداد لتطبيق قوانين عالمهم على آلهة مثلها أيضا

أركيجال المقدسة اعتلت سدة العرش

الأنوناكي القضاة السبعة،

نطقوا الحكم أمامها،

سلطت عينيها عيني الموت

نطقت الكلمة بحقها، كلمة الغضب

صدرت عنها الصيحة بوجهها،

صيحة الإدانة،

ضربتها أحالتها جثة هامدة

الجثة علقت بمسمار)

وهذا يدلل رمزيا على ان الأنسان ينتقل من الحياة عاريا ً الى عالم الموت مستسلما تاركاً وراءه خداعه ومكره وطموحه ووحشيته وحقده وحسده وتبجحه.

وينتقل بنا الشاعر القديم الى عالم السماء والأرض حيث يتابع تطور الحدث من خلال قلق (ننشوبر) بسبب عدم عودة سيدتها، فيبدأ بتنفيذ التعليمات في اقامة النواح وطرق ابواب آلهة السماء لإنقاذ إنانا لكن إنليل وإله القمر نانا لايصغيان الى توسلاته، إلا ان الاله "أنكي " يقرر مساعدتها بخلق مخلوقين يتناسبان مع العالم الأسفل، وعلمهّما حيلة لانقاذها من عالم الموت

(واحد منكما يرش لها طعام الحياة ، والآخر ماء الحياة ، إنانا " سوف تقوم ").

وعندما ينجح هذان المخلوقان بإختراق عالم الموتى بالحيلة وينفذان تعليمات الاله أنكي المحكمة التي لاتترك مجالا للخطأ بل تخضع للتتابع في التنفيذ بما يشبه السيناريو المعد مسبقا من قبل الشاعر حيث نرى حبكة الأحداث تتصاعد حسب خطة الاله أنكي. وعندما تعود إنانا الى الحياة لا تستطيع الخروج من عالم الموتى دون أن تقدم بديل مكانها

(من الذين نزلوا الى العالم الاسفل واتفق لهم ان يصعدوا سالمين؟)

لذلك فان شياطين (الجلا) وهم حرس العالم الأسفل ، يقومون بمصاحبتها للعودة بالبديل.

وأثناء رحلتها تلتقي بالكثيرين من الذين تعرفهم وأحبتهم والذين حزنوا على غيابها في محنتها عندما كانت هناك في عالم اللارجوع، لذا فإنها ترفض تسليمهم كبديل. وعندما تصل مدينتها(أوروك)، هناك تجد حبيبها وزوجها الاله (دموزي - تموز) مرتديا فاخر الثياب، جالسا على عرشه يتلهى بإقامته احتفالاً كما يليق بإله، وغير آبه بفراق حبيبته والحزن عليها. وهذا ما أغضب إنانا لدرجة سلطت عليه عينيها، عين الموت، نطقت الكلمة بحقه، كلمة الغضب

وبدون ضجة أسلمته الى شياطين (الجلا) كبديل لها، أطلقت صيحة في وجهه. صيحة الاثم:

ـ أما هذا فخذوه.

مطاردة الإله القتيل

وعندما قادوا الإله الى العالم الأسفل فان أحد اركان الخصب جف ومات وبالتأكيد فإن هذا سيؤدي الى جفاف الحياة وسيربك القانون الأبدي للطبيعة والبشر. ولأهمية هذا الأمر يعتبر موت وقيامة الاله تموز (دموزي) أحد الطقوس التراجيدية المهمة بسماته الأسطورية والطقوسية والفلسفية، فهو الخزين التراجيدي في روح الإنسان القديم في وادي الرافدين. ولحجم الإضطهاد والعذاب الذي تعرض له الإله (دموزي ـ تموز) وعلاقة حبيبته الآلهة إنانا – عشتار ودورها الملتبس بهذا الموت المأساوي أدى الى أن تمتلئ المثيولوجيا والآداب السومرية والبابلية بمناحات وأساطير وملاحم وطقوس تعزية خاصة بمآسي آلهة الخصب الشهيرة هذه وغيابها عن الحياة، ومن ثم قيامتها من جديد، و يعتبر كل هذا حتى الان من أرقى وأغنى ما كتب في مثيولوجيا شعوب وادي الرافدين بل العالم اجمع نتيجة لقدمها.

ومن خلال هذه القصائد واللتورغيات والأساطير والطقوس تكثفت معرفتنا عن إختطاف إله الخصب دموزي السومري ـ ومن ثم تموز البابلي من قبل شياطين العالم الاسفل ونواح الالهة السومرية إنانا على زوجها وحبيبها وأخيها بعد ان سلمته هي للموت.

لكن الآلهة عشتار (الامتداد البابلي للآلهة إنانا السومرية) أرادت ان تكفر عن خطئها حيث بدون تموز لا يتم أي إخصاب بمختلف أشكاله سواء في الطبيعة او لدى الإنسان، وهذا يعني القحط والجفاف والموت في الحياة مما دفعها للهبوط الى عالم الموت للبحث عنه وتحمّل المآسي والصعوبات التي رافقت رحلتها. وتعبيرا عن ضرورة الخصب في الكون مارس شعب وادي الرافدين الحزن الجماعي على دموزي السومري ـ تموز البابلي ومشاركة الالهة إنانا ـ عشتار في مصابها على حبيبها او نصفها الاخر. ويعد هذا الطقس نقيض طقس الزواج المقدس الذي هو مرتبط باعياد الأكيتو الرافدينية القديمة ولكنه مكمل له في ذات الوقت. فعندما سلمت الالهة إنانا السومرية الاله دموزي كبديل لها، فان الالهة عشتار في النسخة البابلية هي التي هبطت من جديد لإنقاذه من أجل أن تستمر الحياة، ويعد هذا إنقاذاً لحياة الكائنات والطبيعة وكل مايمت بصلة بالخصب.

وقد بدأت مأساة الاله تموز عندما وقع بين أيدي شياطين (الجلاد) وهي مخلوقات لاتعرف الرحمة وتقتات على االطين

(انتم العفاريت الذين لا أم لهم ولا أب ولا إخت ولا زوجة ولا ولد

الذين يرفرفون حائمين في السماء والارض مثل رؤساء الحرس

انتم العفاريت الذين يتشبثون بجنب الانسان

الذين لا يعرفون ما الفضل ولا يعرفون الخير و الشر)

وتنفيذا لتطبيق نواميس العالم الأسفل قاموا بشد وثاقه في الحال وعذبوه تمهيدا لإنزاله في جحيم الموت، وبعد توسلات كثيره من قبله لجميع الالهة لمساعدته،

وتوسلاته الى صهره إله الشمس :

(ايه أوتو، أنا صديقك، أنا الفتى الذي تعرفه
إتخذتُ أختك زوجا
إستبدلتني لأكون عوضاً عنها في العالم الاسفل
إيه أوتو، انت القاضي العادل، لاتدعني أموت،
غيّر يدي
بدّل صورتي
دعني أفلت من شياطيني، فلا يمسكوا بي،
مثل حية ساجال سوف أجتاز مروج الروابي،
سوف أنقل روحي الى بيت أختي جشت نانا)

ويستجيب إله الشمس أوتو لإنقاذه ويحوله الى ثعبان يختفي في الحقول. الإله المنفي تموز مطاردا، بدون سقف يحميه او زاوية يركن اليها، مامن دكة يتكأ عليها، مامن باب يصد عنه الريح، ما من مكان يحتمي فيه. منفيٌ مطاردٌ وحيدٌ هو، لا يملك سوى جذوة روحه، هو ومصيره، أنه هذا الاله المنفي سيد البلاد المعذب.

وأثناء نوم الاله الهارب من قتلته في الحقل، يرى كابوسا مخيفا له دلالاته الرمزية كما يحدثنا الشاعر السومري - البابلي بكلمات شعرية معبرة وموجزة وذات بعد تراجيدي، فمن خلال اللقطة الخاطفة ذات الإيقاع السريع كما في السينما المعاصرة، يكثف لنا الشاعر الصورة الدرامية التي تعبر عن مأساوية النهاية الحتمية لمصير الاله:

(إستيقظ، كان حلماً
اضطرب، كان رؤيا،
فرك عينيه ، إنتابه دوار)

وكما يرى الاله في حلمه فان الأسل يتكاثف من حوله فقط هنالك حزمة من القصب تحني راسها أمامه. وعلى مثواه المقدس لايسكب ماء، وطاسة اللبن المقدسة المعلقة الى وتد تسقط وتنكسر، ومحجنة (عصا) الراعي دموزي تختفي، وبازاً يمسك حملا ببراثينه، وماشية الإله تجرجر لحاها اللازوردية على التراب وتدب على الارض بقوائم ملتوية. ومامن لبن يسكب والطاسة محطمة. دموزي لن يعيش الهدوء بعد الآن، فحضيرة الغنم في مهب الريح.

إن رموز هذا الحلم تدلل جميعها على صفات الإله باعتباره راعياً، ولذلك فان الشاعر إستخدم كلمات مكثفة الصورة ترمز لطبيعة مثل هذه الحياة. وحلم الإله يظهر لنا الحالة التراجيدية والحزن الذي يلف شغاف قلبه.

ويضل هائما حتى يصل الى بيت أخته، وعندما تراه تصدر نواحا مرا، نواحا لا مثيل له لأنها كعرافة ترى نهايته المستقبلية الاليمة.

(جشتي نانا حدقت في أخيها،
خدشت وجنتيها ، مزقت فمها
شقت ثيابها
صدر عنها نواح مُر على السيد المعذب
اوآه ياخي، أوآه، أيها الفتى الذي لم تكن ايامه طويلة
أوآه ياخي الفتى الذي لازوج له ولا ولد
أوآه ياخي الفتى الذي لاصديق له ولارفيق

أوآه يـااخـي الفتـى الـذي لا يجلب العزاء لأمه)

وعندما تبدأ(جشتي نانا) بتأويل حلم أخيها وتفسيره يكون التأويل أكثر رعباً وتراجيديةً من الحلم ذاته. حيث تنبئه بأن الاسَل الذي يلتف من حوله يرمز لسفاحين سينقضون عليه والأشرار سيرعبونه وحضيرة الغنم ستغدو خراباً. ولكن تمسك الإله دموزي - تموز بالحياة يدفعه الى الإختباء في مكان سري آخر لايعلم به سوى أخته بعد أن يستحلفها ألا تدلهم على مكان مخبئه ..

(سوف اختبئ بين النباتات الكبيرة، لاتقولي اين أنا سوف اختبئ بين أخاديد "أرالي"، لاتقولي اين أنا) فتعده أخته بذلك.

(إذا قلتُ أين مخبؤك، فلتاكلني كلابك.)

لكن شياطين الجلا يتشاورون فيما بينهم عن مكان اختبائه..

(من ذا الذي يرى انسانا تملكه الخوف يعيش بسلام

ألا، فلنمتنع عن الذهاب الى بيت صديقه ،وعن الذهاب الى بيت صهره

فلنمض باحثين عن الراعي في بيت جشتي نانا)

وعندما يصلون الى هناك يعذبونها من أجل أن تدلهم عليه ، لكن دون جدوى ...

(دلينا أين يختبئ أخوك، قالوا لها، لكنها لم تدلهم، جاءوا بالسماء قريباً منها، ووضعوا الأرض في حجرها، لكنها لم تدلهم.

جاءوا بالأرض قريبا، مزقوها، لكنها لم تدلهم،

جاءوا بها قريبا.. بعثروها فوق ملابسها ، لكنها لم تدلهم

صبوا في حجرها قاراً، لكنها لم تدلهم لم يجدوا دموزي في بيت جشتي نانا) وهكذا تفي أخت الاله بوعدها.

إلا ان تموز يشعر بالذنب بسبب الآلام التي عانتها اخته...

(إن اختبأت في المدن، أكون جلبت نهاية لأختي.) فيسمح لمطارديه أن يمسكوا به بطريقة ما.

وعندما يتم هذا يشعر بالخوف من الموت فيتوسل الإله آوتو من جديد كي يحوله الى غزال، غير أن الشياطين الأشرار لديهم مهمة تنفيذ قانون العالم الأسفل ولابد ان يجدوه فيطاردونه إلا أنه يفلت ايضا منهم، وهنا دلالة على الصراع بين قوى الإخصاب وقوى الموت.

وفي الختام يمسكون به وهو مختبئ في حضيرته في الصحراء. يعذبونه من أجل ان يرسلوه الى عالم الموت الابدي. وبهذا يتحقق كابوسه. لكن أخته تقوم بالتضحية الكبرى عندما تعرض على شياطينه ان تحل محله في عالم اللاعودة كبديل عنه. وعقابا لدموزي الذي حاول الهرب من قدر العقاب يتم الحكم عليه بان يقيم نصف سنة في عالم الاموات وتأخذ أخته مكانه في النصف الثاني. وعند موت دموزي في هذه الأشهر يعم الجفاف في الكون. عندها يمتلأ قلب الالهة إنانا - عشتار حزنا على حبيبها فتصاب بالندم على كونها هي السبب لهذا الجفاف والخراب الذي عم مدينتها، بتسليمها إله الخصب الى الموت. فيبدأ شعب وادي الرافدين بممارسة طقوس الحزن مع آلهته إنانا، وفي النسخة البابلية يبدأ ايضا طقس الندم الجمعي وتقود الآلهة

عشتار نواحاتها على الإله تموز وتهبط الى العالم الأسفل لإنقاذه حتى تتم قيامته من جديد، عندها يبدأ الخصب في الربيع والصيف بعد الموت والجفاف وهكذا تبدأ دورة الحياة، وإبتهاجا تقام في وادي الرافدين الإحتفالات بعودة الإله من اسره.

ومن خلال هذه الوقائع السردية لموت وقيامة الاله يمكننا القول بان:

الميزة الجوهرية لهذا الطقس يكمن في كونه يعالج فكرة أساسية وهي الصراع المستميت بين الحياة والموت أضافة الى التطرق لبعض المشاكل الانسانية الأخرى مثل الدهاء والمكر في التخلص من الأعداء، والغيرة والتضحية والحب العميق بين الأخت والأخ ، وقد لاحظنا تنوع المكان الذي حدثت فيه الأحداث، كالمعبد ومجمع الالهة والحقول والصحارى وعالم الموت والتباين في سلوك ومصائر الشخصيات ، وقد اتسمت شخصية الاله تموز واخته جشتي نانا بالتمسك برباط الاخوة القدسي والحنان والرقة مما اضفى عليهما بعداً إنسانيا عميقاً.

ومن خلال المقاطع الشعرية التي اوردناها من اسطورة نزول إنانا – عشتار الى العالم الاسفل يتضح لنا التعدد الصوتي والايقاعي في القصيدة الواحدة والمبني على التكرار المفاجئ سواء كان في الكلمة ام في الجملة، كأنه الموتيف الموسيقي. فهنالك ثلاثة أصوات تحدد لنا ثلاثة إيقاعات هي: الشاعر، إنانا، والبواب او صوت الشاعر وننشوبر والآلهة إنانا ـ عشتارأو الاله أنكي في المحاورة الاخرى. وبالتأكيد فان المتحاورين (إنانا والبواب) يشكلان إيقاعا حواريا في الحاضر (الان) أما الشاعر فانه يعبر عن الماضي لأنه يصف ما حدث في الماضي قبل ان يبدأ المتحاوران حوارهما. لذا فان تعدد الاصوات هنا يأخذ شكل حوارات ثنائية او الديالوج باللغة المعاصرة، وهذا ما يقربها من الحوار الدرامي ويسهل معاصرتها وإعدادها كدراما معاصرة، وقد عبر الشاعر عن موت إنانا التراجيدي باسلوب فيه الكثير من العنف والغضب والرمز.

أما شخصيات الطقس فانها رسمت بشكل فيه الكثير من الكمال من قبل الشاعر السومري الذي مازال يقلقنا من خلال المشكلة التي عالجها وانعكاسها على مشكلتنا المعاصرة.

وبالرغم من ان معظم الشخصيات من الالهة، ألا ان شاعرنا السومري استطاع ان يعالج المشاعر الانسانية المتمثلة بالخوف والقلق والجشع والصفات البشرية الأخرى وهذه أحدى ميزات مثيولوجيا وادي الرافدين كون الآلهة هي بشر غير متعالٍ عن الانسان بالرغم من عليائها في السماء.

فنرى بان شخصية الالهة إنانا وطموحها في الإستيلاء على عالم الاموات اضافة الى عالم ما فوق الارض، يدلل على انها شخصية مقتدرة وماكرة تعتمد الحيلة والخديعة للوصول الى مآربها، وهذا واضح بشكل جلي من خلال الألاعيب والحيل والتزلف والخداع الذي اعتمدته. وكذلك اعتماد ذلك الأسلوب والسلوك الملتوي ولكن المقنع بغية منع عفاريت العالم الاسفل الذين رافقوها من القبض على معارفها واعتقالهم كبديل عنها.

لكنها تظهر كل وحشيتها وقساوتها وحقدها وغضبها في وجه الاله دموزي ـ

تمـوز لانه لم يتظاهـر بـالحـزن والتـزلف الكاذب عند عودتها.

ان هـذه المميزات والصفـات التي أسبغها الـشاعر السومري علـى شخصية انانا تترك لدينـا إنطبـاعا بتكامل شخـصيتهـا. ويمكن القـول بـان الفضـــاء الـذي تـتحـرك فيه الـشخصيـات والأحداث هـو فضـاء سحري فيه الكثير من الطقوسية والجاذبية.

ولكن يكون من الفرض القسـري إعتبار هذا التكرارفي الشعر وتعدد اصوات ابطال الملحمـة وإيقـاعهـا دليل علـى وجود مـسرح سومري او بابلي كما اثيرت بعض الدعوات التي مازالت تصر على هذا الأمر بالرغم من عدم وجود مايثبته (وهذا يحتاج الى دراسة اخرى).

الهوامش:

)1(الذي يدين العراقيون له بالكثير لفضاؤه في الكشاف كنوز مرتكزات آثارهم وأساطيرهم وطقوسهم الفنية القديمة الممتدة تحت الر ض، وبالتأكيد سيتذكرونه بكل مرمم المعروف في المستقبل.

)2(لعل النص الـسومري ـ هبوط إنانا الى العالم السفل ـ هـو أول ملحمة خطها يد الانسان في موضوع الله الفادي او كش الفداء وعلى اساسه دون النص البابلي لذات الملحمة (

)3(ان الرقم سبعة يتكرر ويستخدم دائما في الساطير والملحم السومرية والبابلية

في عددنا القادم

مجموعة قصائد / حسينة بنيان

عرق السواقي / اسماعيل جاسم

تشكيل

ريادة الواسطي في مدرسة بغداد للتصوير

قاسم العزاوي

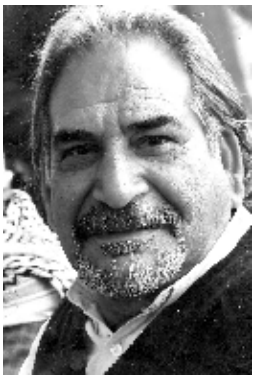

قاسم العزاوي من مواليد 1952، وهو فنان وناقد تشكيلي، ومدير تحرير مجلة تشكيل. والعزاوي عضو في العديد من الجمعيات والنقابات من بينها: اتحاد الادباء والكتاب، جمعية التشكيليين العراقيين، نقابة الصحفيين العراقيين، جمعية الخطاطين العراقيين... الخ. كما كتب الكثير من القصص والمقالات الأدبية والفنية والدراسات في الصحف والمجلات المحلية والعربية، وشارك في الكثير من المعارض التشكيلية.

الحضارات الرافدينية المتعاقبة، السومرية والبابلية والآشورية، تركت لنا وللإنسانية كما هائلا وثرا من كنوز الفن التشكيلي بجميع مفاصله وأنواعه، من نحت ورسم وخزف وريليفات، مازال هذا الفن الرافديني القديم يرفد لحركة ألتشكيليه العراقية والعربية والأجنبية، بشحنات مضافة و أستلهامات معاصرة، ورؤى جمالية ومعرفية للفن الرافديني القديم بما يتناسب مع الفن المعاصر .. ومع اندثار هذه الحضارات العريقة، نتيجة الحروب والغزوات الداخلية منها والخارجية، ... مر الفن التشكيلي العراقي بفترة سبات وقطيعة امتدت طويلا، حتى كادت أن تندرس وتموت لولا حركة

التنقيات الأثرية .. وكاد هذا الفن الجميل ان يحجم وتطوى صفحته الرائعة، بما يفهم انه يحرم في الدين الإسلامي الحنيف وخاصة من (الفقهاء) المتشددين.لا أريد أن ادخل بمداخلات حول هذا الموضوع المكرر كثيرا ولكن. بازدهار الفترة العباسية وعصرها الذهبي، واتساع رقعتها الجغرافية وانفتاحها مع الحضارات الأخرى وثقافتها، اذ نشطت حركة الترجمة من اللغات الأخرى الى العربية ، مثلما تنوعت المدارس الفلسفية والفكرية والدينية والعلمية، وتأليف الكتب الطبية والأدبية والتاريخية والجغرافية وغيرها ... وإزاء هذا الحراك الثقافي والعلمي المتنامي أكيد أن الفن التشكيلي سيضحى ببعض ألمكانه والازدهار، لأنه ليس بمعزل عن هذا الحراك الثقافي وقد أفرزت هذه الحقيقة العديد من الفنانين، بيد أن أبرزهم وأكثرهم شهرة واتساعا هو: الرسام والخطاط والمزخرف والمذهب، (يحيى بن محمود يحيى بن أبي الحسن الواسطي) والذي اشتهر بتزويقه لمقامات الحريري التي ذاع صيتها في الأدب العربي، منذ القرن السابع للهجرة .. اذ يروي الحريري قصصه او مقاماته باسم الحارث بن همام وهي تشمل نوادر ابي زيد السروجي ..وأعطى الواسطي في رسومه ومنمنماته، صورا صادقة للمجتمع الذي كان يعيش فيه .. من هذه ألمقدمة المختصرة .. سأحاول أن اذهب في سياحة إلى عالم الفنان الواسطي والتقرب إلى منطقة اشتغاله والتأشير على اهم السمات والخصائص الفنية التي تركها لنا هذا الفنان العراقي الخالد والذي مد لنا جسور التواصل والاتصال مابين أواخر العصر العباسي والعصر الذي نحتفي به ألان بمهرجان دولي يحمل اسمه الخالد .. وبذا يكون الحوار متواصلا من خلال الاجتهاد والتأمل والبحث والاستلهام بتواصل روحي ووجداني بين الماضي والحاضر كي تبقى شعلة الفن الخالدة، متوهجة ما حيينا ..

مرجعيات الواسطي الفنية وتراكم الخبرات

قد يكون من المستحيل لأي مبدع في الأدب والفن والعلوم الأخرى، ان يظهر هكذا فجأة ويطرح منجزة الأدبي والفني، بدون مرجع ثقافي وخزين معرفي، ساهم في تشكيل ونمو هذه المعرفيات، تأثر بها وأضاف لها، لان حقل ألمعرفة سلسلة متصلة الحلقات واحدة تكمل الأخرى وألا تصبح مبتورة وعرجاء، منعزلة وبالتالي لا تمت للثقافة بشيء .. والواسطي شأنه شأن الكثير من المبدعين تأثر بهذا التراكم المعرفي مثلما سيؤثر بعدد من المبدعين .. انه لمنطق بديهي، ولكن أريد تسليط الضوء، على المشهد الثقافي في عصره اعني (العصر العباسي الوسيط) ولبعض المنجزات ألفنية التي سبقت رسوم الواسطي ،وتأثير فنون البلدان الأخرى على رسومه .. اذ شهد العالم الإسلامي ،خلال الربع الأخير من القرن السادس الهجري، والنصف الأول من القرن الذي تبعه ازدهارا حضاريا مشرقا، ازدهرت فيه منمنمات المخطوطات التي زوقت في (سبقه) والأندلس، وهي من ألأمثلة للمدرسة العربية في التصوير الإسلامي، والتي كان يحيى بن محمود الواسطي احد مشاهير مصوريها، ومخطوطة (خواص العقاقير) لديو سقوريدس، قام بتزويقها

(علي بن عبد الجبار النقاش) سنه 262هـ ، التي تعتبر منمنماتها أمثلة بارزة للمدرسة العربية في التصوير الإسلامي، وهذا المزوق لا يقل شأنا عن يحيى الواسطي، اذ تجرأ ووقع اسمه في مكان لا يجلب الانتباه .. بعد خلافة المستنصر باللّه أبو جعفر المنصور، والذي عنى بدور العلم والكتب والمخطوطات والمباني للمدرسة ألمستنصريه سنة 631 هـ ونقل لها الكثير من المخطوطات والكتب النفيسة ألمحتوية على العلوم ألأدبية والفنية أضافه للدينية وكان محبا للخط وعني به أيما اعتناء، وقد اقتنى هذا الخليفة نسخة مزوقة من مقامات الحريري، نسخها وزوقها الواسطي، ومن المحتمل ان الخليفة كان يمتلك الكثير من المخطوطات المزوقة بأمهر المزوقين، ولكن المؤرخين لم يذكروا ذلك لان الفقهاء لهم موقفهم من الرسوم والمزوقين ، لذا أهمل اسم المزوق .. وكان الخليفة العباسي المستعصم باللّه (640) هـ – 656 هـ، أكثر خلفاء بني العباس عناية بالكتب والمكتبات، واشتهر بولعه بفن الخط العربي وكان خطاطا أيضا .. ورعي الخليفه الخطاطين رعاية خاصة، مثل ياقوت المستعصمي الشهير الذي فاقت شهرته شهرة ابن البواب وابن مقلة .. مثلما عني أيضا بالملحوظات المزوقة، وكتاب الجزري (في صناعة الحيل) مزوقا على ألطريقه ألبغداديه، والكثير من المخطوطات المزوقة والتي سبقت الواسطي او تزامنت معه، كل هذا الخزين الفني والمعرفي اثر بالواسطي أضافه إلى الفنون البيزنطية والفارسية، التي تعتبر مقاربات واستلهامات للواسطي ولكن بأسلوبه البغدادي الأصيل، والكثير من المؤلفات العلمية المزوقة منها (كليله ودمنه) لبيدبا والأغاني لأبي فرج الاصفهاني، وقبلها (مقامات بديع الزمان الهمداني) المزوقه والتي تسبق مقامات الحريري والذي نسج على منواله فكتب خمسين مقامه واشتهرت باسمه .. وعلى هذا المنوال كتب آخرون عددا من المقامات مثل (الزمخشري، الرازي وغيرهم) ترى، هل اغفل الفنان يحيى الواسطي هذا الموروث الفني وعمل بمعزل عنه .. بكل تأكيد لا ..؟ وانما استطاع بعبقريته الفذة أن يشذب ويضيف الكثير كي يخط لنفسه أسلوبية خاصة تنتمي إلى المدرسة البغدادية تتسم بالإتقان والدقة في فن التزويق وكما يقول عنه (ياقوت الحموي) .. (لم يبلغ احد من المزوقين، ما بلغة، حيث نقل لنا وبصورة دقيقة معالم الحياة في مجتمع بغداد ...) فلا عجبا ان يبدع هذا الفنان، وهو في عصر مزدهر يعج بالعلم والثقافة والعمارة والفن هذا أولا، وثانيا في عصر عاش فيه ياقوت الحموي صاحب أهم مؤلف في العلوم الجغرافية، وفي هذه الفترة أيضا عاش في بلاد مابين النهرين أشهر مؤرخ عربي عرفت كتاباته بالدقة والشمول صاحب الكامل في ألتاريخ وهو ابن الأثير، وكذلك الخطاط المبدع ياقوت المستعصمي والكثير من مبدعي الفن والعلم والأدب، ناهيك عن الشواهد العمرانية مثل المدرسة ألمستنصريه ومرقد السيدة زمرد خاتون والقصر العباسي وغيرها من أمهات العمارة .. والفن .. كل هذه الشخصيات الثقافية والشواهد العمرانية والمخطوطات المزوقة ساهمت في التشكيلات الفكرية والمعرفية والفنية لفنان ألمدرسه ألبغداديه يحيى الواسطي .. الذي أجاد برسم مقامات الحريري حتى اعتبرت من النفائس

من اعمال الواسطي

المخطوطات ادبا وخطا ورسما .. فما هي هذه المقامات ومن ألفها وفي أي وقت .. ؟

مقامات الحريري .. الأشهر بين كتب الأدب

ألفها الحريري وهو أبو محمد القاسم بن محمد بن عثمان البصري الحريري .. والمولود سنة446 هـ ـ في ناحية من نواحي ألبصرة ..

والمقامة: تعني (المجلس أو ألجماعة من الناس) وقيل أنها (المجلس يقوم فيه الخطيب ويعظهم على فعل الخير) أو أنها (الموعظة تلقى في مجالس الخلفاء والملوك وتدور على الوعظ والزهد) وتعنى أيضا ألمكانه والسيادة والخطبة والعظة والرواية التي تلقى في مجلس من الناس .. واكتسب الحريري شهرة واسعة بسبب هذه المقامات ونال الحظوة عند ذوي السلطة آنذاك .. وعاش الحريري حوالي سبعين عاما قضاها في ألبصرة وبغداد، وكان من أعلام عصره يشار أليه بالبنان ولازمه وسمع عنه الكثير من الأدباء ..

وتوفي سنة 516هـ ولهم مصنفات في الأدب واللغة والشعر أشهرها المقامات.. وتتكون من خمسين مقامة وأنشأت هذه المقامات لوزير الخليفة المستنصر باللّه العباسي وان لم تكن للخليفة نفسه .. وقد قيل انه نسخها (500) مرة بنفسه وقبل (700) مرة ..

يروي فيها الحريري قصصه باسم الحارث بن همام وهي تشمل نوادر أبي زيد السروجي .. تميزت المقامات بأصالتها ألللغوية وتنوع أبحاثها البيانية ولاسيما في البديع والسجع، والتعقيد اللغوي وليونة وجمالية الأداء .. فضلا عن ذلك فان الإشعار الزاخرة في المقامات اتسمت بالزخم اللغوي والشفافية والتأثير .. وساهمت في ظهور المسرح العربي لما فيها من مقاطع حوار داخلي، أضافة إلى صفاتها الدرامية (كما أشار الباحث الروسي ت.أ. بوتينتسوف) .. وقد جذبت المزوقين لنسخها وتزويقها لما فيها من مادة خصبة للمصور، ففيها من الصور ما لا يحسب .. مما شجع يحيى الواسطي ان يترجم تلك الصورة ألذهنية إلى واقع بصري ونجح في نقل صورة المجتمع ومظاهر الحياة والعمارة والملابس والسمات ألبغدادية على الوجوه من فرح وحزن وفراسة .. وقد زوقت هذه المقامات بالمنمنمات في أكثر من نسخه وفي آماكن وازمنة مختلفة، وصلت ألينا منها اثنتا عشرة مخطوطة محفوظة في مكتبات متفرقة وهي على التوالي :

ثلاث مخطوطات تحت الأرقام (29,3,5847,6094) في ألمكتبة الوطنية في باريس، ومخطوطة في مكتبه فينا ألشعبية في النمسا تحت الرقم (91) وتحتفظ تركيا في سليمانية اسطنبول لمخطوطة واحدة تحت الرقم (16,2) ومكتبة الجامعة في أكسفورد (مجموعة مارش) لمخطوطة للمقامات تحت الرقم(R1200) ويحتفظ معهد الدراسات الشرقية لشعوب أسيا ألتابعة لأكاديمية العلوم الروسية في مدينة بطرسبرغ لمخطوطة تحت الرقم (س.23) ..

وعشر أخيرا على نسخة مصورة من المقامات في اليمن زوقت في فترة متأخرة بأسلوب المنمنمات العثمانية (رسمها احمد بن محمد عايش) ويعود تاريخها الى عام 1121هـ –1709م .. وقد اهتم الباحثون

بدراسة هذه المخطوطة نسبة إلى مالكها، شيفر ومنمنماتها للمزوق المشهور يحيى الواسطي، الذي أنجزها سنه 643هـ / 1237م، بصورة مفصلة، واعتبرت منمنماتها قمة ما أنتجتها مدرسة بغداد الفنية من أبداع وغنى في ذلك الوقت، ولم تحظ المخطوطات الأخرى، وعلى وجه التحديد مخطوطة المقامات المحفوظة في بطرسبرغ بمثل هذه الدراسات على الرغم من اعتراف أكثر الباحثين بأهمية تصويرها واعتبارها لا تقل من حيث قيمتها ألفنيه والجمالية عن صور الواسطي إن لم تسبقها بأصالة عناصرها وبنائها التشكيلي وقوة تعبيرها ...

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن، هل اكتسبت مقامات الحريري شهرتها بسبب رسومها ألواقعية والتعبيرية للفنان يحيى الواسطي، او سبب لغتها وحبكتها.. وصياغتها من قبل الحريري؟ أقول: أن لدور ريشة وقلم الواسطي في تزويق وخط وتذهيب هذه المقامات أثرا بالغا بانتشارها وإقبال الدارسين والمؤرخين والمحققين والفنانين على الاهتمام بها بدليل أن هنالك الكثير من المخطوطات لم تلق من الاهتمام مثل ما لقيت المقامات التي صورها الواسطي .. وهذا لا يعني إلغاء أو تحجيم دور الحريري المؤلف وإنما كثرة صورها الكتابية شجعت الفنان الواسطي تزويقها، فكلاهما له من الإبداع ما يسر المثقفين.

النسخة التي زوقها الواسطي، تعرف باسم (شيفر الحريري) وتنسب إلى مالكها شيفر، وقد أهدى هذه ألنسخة إلى دار الكتب الوطنية في باريس تعتبر من أهم النسخ لأنها كاملة وبجلدها الأصلي وورقها بحالة جيدة وتحتوي على 167 ورقة بعرض 276م2 وبطول337م2 وعدد الأسطر في الصفحة 15 سطرا، وكتبت بمداد اسود يميل إلى الحمرة وبخط النسخ الجميل والمتقن، وتعود أهميتها أيضا لان الواسطي ثبت اسمه وتاريخ انجاز النسخ على أخر صفحة منها فقد جاء (فرغ من نسخها العبد الفقير إلى رحمة ربه وغفران وعفوه يحيى بن محمود بن أبي الحسن كوريها الواسطي بخطه وصوره أخر نهار يوم السبت سادس شهر رمضان سنه أربع وثلاثين وستمائة.. حامدا اللّه تعالى... الخ).

وهذه النسخة الوحيدة من بين النسخ التي ثبت الناسخ اسمه وهو من أبدع برسومها.. لكنه لم يشر اسم ألمدينه التي يعمل فيها.. لكن معظم علماء الفنون الإسلامية أكدوا نسبتها إلى بغداد عاصمة ألخلافه العباسية آنذاك ولقد قضى وقتا طويلا حتى أتمها إذ زينها بأربع وتسعين منمنمة وخط عناوين المقامات بالذهب وبحروف كبيرة وجعل وقفات الجمل بشكل وردة ذات ستة فصوص وبالذهب.

لقد برع الواسطي في أخراج المقامات بشكل فني أنيق لم يقتصر على التزويق فقط وإنما برع في الخط والزخرفة والتنسيق والانسجام والتذهيب، ولم يترك الواسطي فراغا ألا واستغله لإظهار براعته وتمرسه الفني، مما يدعونا ان نصنفه بحق واضع ملامح المدرسة البغدادية في الفن التشكيلي.

أهميه رسوم الواسطي في تبيان مظاهر الحياة ألاجتماعية في الفترة الزمنية التي عاشها

تعتبر رسوم الواسطي ترجمة دقيقه وصادقة للنص الذي توضحه .. اذ كان

النص الادبي للحريري في المقامات غني في وصفه للواقع، لذا جاءت رسوم الواسطي بمثابة مرآة عاكسة لذلك الواقع .. تعرفنا من خلال رسوم الواسطي على شكل الأشياء .. مثل أنواع الملابس والأواني والأدوات والعمران (البيوت والمساجد والقصور والحانات) مثلما تعرفنا على أفراح الناس من خلال نوع الشرب والاستمتاع بسماع الموسيقى والغناء والتنزه في البساتين المثمرة .. والأماكن التي كان البغداديون يرتادونها. لذا اعتقد ان رسوم الواسطي ساهمت في صنع المشهد السينمائي والعرض المسرحي مثلما لها دور في الدراما، لاستفادة المخرجين وكتاب السيناريو والروائيين أيضا من استلهام ومحاكاة ما جاء في رسوم المقامات من ملابس وعادات وأماكن أليفه وشكل البيوت والعمارة بشكل اعم .. فيما لو تناولوا في مادتهم الإبداعية ذلك العصر الذي عاش فيه الواسطي لان المقروء لا يقرب الصورة بالضبط للقارئ لكن المصور او المرئي الباحث في الأشياء والملامح يقترب كثيرا من الواقع لم يكن متطابقا معه تماما، من هنا كان دور رسوم الواسطي مهما في ألمساهمه في تقريب الواقع حينذاك إلى مبدعي عصرنا الراهن والمستقبلي أيضا .. لم يقتصر الواسطي على رسوم الأشخاص فقط بل رسم مجالس القضاة والولاة مثلما رسم المنظر الطبيعي ورسم الحيوان .. لذا تعتبر رسوم الواسطي عالما متكاملا لم يغفل فيه أي شيء ...

تندرج رسوم الواسطي تحت مفهوم ألواقعيه بالرسم ببعض الشحنات ألتعبيريه .. زينت بألوان طبيعية مستخرجة من النبات أضافة التذهيب بالذهب الخالص. ان الوحدات ألتشكيليه ألمكونه برسوم الواسطي تتوزع بشكل منتظم ومتناغم مع العناصر الأخرى ألمكمله للعمل ولذا جاءت رسومه متزنة بوحدتها وعناصرها ألخطيه والزخرفيه وباستغلال مدروس للسطح التصويري وبدون إقحام .. وبذا استحق يحيى الواسطي ألمكانه المرموقة في المشهد التشكيلي العراقي في عصره وفي عصرنا ايضا ولاقى اهتماما واضحا من قبل الدارسين والباحثين في صقل الفن والمؤسس الأول لمدرسة بغداد في التصوير ..

ورادما للهوه العميقة بين الفن الرافديني القديم وفن عصره والجسر الواصل ايضا مع عصرنا الذي استطاع الفنان الرائد والمجدد جواد سليم أن يساهم الردم ايضا ويوقد جذور مدرسه بغداد التي ابتدأها يحيى الواسطي. ويعيد خصوصيتها وملامحها ولكن ليس بالاقتباس المباشر وإنما بأسلوب يتماشى مع العصر، ولذا زاوج المحلية بالعالمية لكنه لم ينس الموروث الفني الكبير الذي جاء به يحيى بن محمود الواسطي فنانا مبدعا .

المصادر :

1- الواسطي، يحيى بن محمود بن يحيى رسام وخطاط ومذهب ومزخرف / الدكتور عيسى السلمان.

2- فن المنمنمات عند العرب / تأليف ريتشارد انغهاوزن ترجمة الدكتور عيسى سلمان وسليم طه التكريتي.

3- منمنمات ومخطوطة مؤامات الحريري العظمى في بطرسبرغ، الاستاذ الدكتور، ماهود احمد .

4- مجلة الرواق العدد 15-1984.

تشكيل

جواد سليم .. الفنان الذي صنع لفنه باقية إلى الأبد

كاظم السيد علي

كاظم السيد علي رئيس تحرير مجلة الشرارة عضو نقابة الصحفيين العراقيين/ عضو اتحاد الأدباء و الكتاب في العراق/ شاعر وباحث في الأدب والفلكلور الشعبي العراقي / رسام له كتابات في الفن التشكيلي العراقي المعاصر في المجلات والصحف العراقية والمواقع الالكترونية

من كل عام وبالضبط في كانون الثاني تصادف ذكرى رحيل الفنان العبقري الكبير جواد سليم إذ تعيد هذه الذكرى إلى الأذهان المآثر البارزة التي خلفها هذا الفنان الخالد وفي هذه المناسبة يساهم نفر قليل في إحياء ذكرى صاحب(نصب الحرية الشهير) إكراما وتقديرا لمكانته الفنية البارزة.

وجواد سليم، رسام ونحات عراقي معروف على النطاق العالمي من خلال سفره واشتراكه في عدة معارض شخصية في لندن وباريس والمتحدة الأمريكية والهند.وكذلك مشاركته العالمية التي أقيمت في لندن عام1952 بتمثاله(السجين السياسي المجهول) الذي كان نصيبه الجائزة الرابعة من بين (3500) فنان عالمي.

وفي هذه المناسبة قال عنه النحات العالمي " هنري مور: "انه كان من الممكن ان يكون نصيب جواد سليم الجائزة الاولى لو لاعدم الشرح الذي هو احد الشروط اللازمة ".

كان جواد سليم وطنياً في فنه ولهذا السبب قام بعمل (يافطة) عراقية ما زالت خالدة تقرأ من قبل كل الناس في بلدنا اليوم. إلا وهي(نصب الحرية) الشامخ الذي يحكي تاريخ العراق ويعتبر أكبر نصب في العالم، فمن خلال تجربته الإبداعية استطاع أن يستوعب هموم المرحلة ويعبر عنها

بأصالة وحيوية وبلغة فنية متقدمة لم تكن معزولة عن واقعه الاجتماعي وهمومه وتطلعاته حتى في غربته متعلقاً بوطنه الام نلاحظه لا يبتعد عنه دائماً معه في كل إعماله لم ينفصل عنه بتاتاً والتعبير عنه بإعماله الفنية ذات صلة شديدة بالواقع ورسم مكونات البيئة وعلاقة الإنسان بها بفضل وعيه الاجتماعي ونقله وإظهاره أمام الناس ليس محبوساً بين الجدران الاربعة.وعلى التقاط ورصد الحس الشعبي في :الشخصيات البغدادية/ البساتين / الحكايات البغدادية الشعبية/الموسيقيين / بائع عرق السوس / بائع التماثيل / جامع الحيدر خانه / اطفال يلعبون / ليلة الحنة / الكوفة / منتظر في الصليخ /لورنا زوجة الفنان و...و...والقائمة تطول.

فالبيئة العراقية كانت المنطلق عند ظهوره حيث مهد هذا الدور لبقية زملائه الفنانين في تلك الشخصية حتى اخذوا على عاتقهم تأسيس جماعات فنية فكانت بين هذه الجماعات(جماعة بغداد للفن الحديث)عام 1951 ترأسها الفنان جواد نفسه.

وجواد سليم من مواليد 1919 وبالضبط في23 كانون الثاني نشأ وترعرع في كنف عائلة فنية تمتلك وعياً متقدماً من الثقافة بما فيها الأب الحاج سليم الموصلي، فبدأ جواد نحاتاً قبل أن يكون رساماً منذ طفولته فأخوه سعاد ممثلاً ورساماً للكاريكاتير وشقيقته (نزيهة) من ابرز الفنانات العراقيات وكذلك شقيقه (نزار) رساماً ومؤلفاً وكاتباً ورساماً للكاريكاتير وكاتباً للقصة القصيرة.

لم تقتصر تجربة جواد...على الرسم والنحت بل تعدتها فكان رساماً كاريكاتيرياً وعازفاً للعود والكيتار ويصنع الشخصية ومصمماً لأغلفة الكتب الأدبية منها غلاف ديوان (قصائد عارية) للشاعر حسين مردان و(ادونيس) للكاتب والفنان جبرا إبراهيم جبرا. وكذلك امتلاكه موهبة كتابة الشعر الشعبي العراقي خلال دراسته في انكلترا عام 1947.وأخيرا قضى آخر سنتين من عمره في تصميم (نصب الحرية) وانجازه. حتى داهمه الموت..وهو يهم بوضع القطعة الأخيرة من النصب (رمز الإصلاح الزراعي) فأصابته نوبة قلبية حادة أمضت به بعد أسبوع إلى غيبة أبدية في23 كانون الثاني 1961وهو لم يكمل الثانية والأربعين..وكان يردد قائلاً:" كنت أعرف أنني سأموت..ولكني سعيد لإكمالي النصب وهذا العمل الهائل الذي تصور الكثيرون انه لم يستطع إكماله".

نعم..مات فنان الشعب سعيداً.بعد أن حقق أمنيته الكبرى التي ظلت تراوده سنين..عندما رأى اللافتات الكثيرة التي كان المتظاهرون من الشعب العراقي يخرجون بها كل يوم تأييداً لثورة 14 تموز المجيدة بكل طوائفهم السياسية..فقال جواد في لحظتها (لنصنع نحن لافتة أخرى باقية إلى الأبد) وبذلك تحقق الحلم الكبير وبقيت لافتة خالدة لكل الأجيال في هذا الوطن.ولذا فقد بات من الضروري..أن تقوم وزارة الثقافة في عهد الانعتاق من الظلم والتعسف وتفتح فضاء الثقافة على أفق مشرق جديد..ان تلبي طموحاتنا بإقامة متحف دائم لفنان الشعب يضم كل أعماله الفنية..لكونها مبعثرة في بيوت زملائه الفنانين وأصدقائه ومعاصريه..